نَـواحُ الـرِّيـق ، روايــــــة ... محمد الأصفر

*شفـتـاي جاءتا مع قافلة للعبيد **
كان يملـكـها السنوسي الأكبر .
في الجغبـوب أعـتـقهم وانـتـشروا .
مازالوا يقطنون الربع الفقير ببنغازي
قرب المستشفى حيث ولدت .

أولئك الإغريق
الذين أهدونـي حاجبيّ
ما كان ببالهم البقاء بتوكره .
لكنهم شمّوا ذات يوم
رائحة المريمية البريّة
وأعلنوا بلادي مسقط رأسهم .
فرسان القديس يوحنّـا
غزوا طرابلس .
فطلب سكان المدينة النجدة
من اسطنبول ، في عام ١٥٣١
جاء الأتراك بأنفي .

يعود شَـعري
إلى إحدى جواري
سبتموس سيفيروس .
كانت تهيئ له فطوره
و أجبت له أربعة أبناء .

فتح عقبة مدينتي
باسم الله .
نجلسُ الآن على حافة قبره
وأغني لك :
يا ذا الأهداب الحلوة
- حادة كالسِّهام -
أهذا وجهي الذي أراه
منعكساً في عينيك ؟

* الشاعر خالد مطاوع

ارتفاع الهرم نهاية .. وانخفاضه رسوخ .. ولكي يرتفع أكثر.. لابد لـه من قاعـدة أكبر .. والقاعدة كلما تورّمت زاد عطشها للقاء .. وإنْ التقتْ القواعد حدث الفناء ..

النخلة النابتة في قلب الهرم تشرأب بماء أرواحنا .. تحاول الانبثاق من قمّة الهرم .. تحاول أنْ تـُظلل بسعفها كل الخطوط والأضلاع المائلة .. ترتفع أكثر.. تحفر أكثر .. تمدّ عروق عمرها .. تظلل مهدها .. وترمي بعراجينها الخصيبة في الأرجاء .. كالشمس مع الأضواء .. تُطعم وتُكنس .. كل نخلة معوجة فراشها تراب معوج وغطاؤها سراب بعيد .. النخيل المعوّج أحيانا نحبه .. إنْ كنـّا قد أجدنا تقدير المسافة والتربص .. سننتظر النخيل بسذاجتنا ونصعد النخيل بضحكاتنا .. وسنكون نخيلا وزيتونا ورمانا وتينا وتفاحا طازجا .. تفاح حيّ كاسحٌ للخطايا .

افخر خمر يُصنع من التفاح وأمتن ذاكرة تصنع من النسيان وأرقى فكرة هي الهشّة .. الخفيفة قصيرة العمر قريبة الأمد الطافحة الراسخة بشرف كالانتصار كالابتسامة كالقـُبلة كالوردة كالشمس كقطرة الندى كالحبيبة كالمكتبة .. كهذا العالم .

الأفكار المُلحّة أهرام أنانية .. ناقصة جافة .. تحبّ الظهور والانبثاق من مكامن النور .. تلج هذا العالم بليله ونهاره .. تصيبُ من تصيب .. تترك من تترك .. تخطئ من تخطئ .. تـُستهلك كرغيف ساخن أو كعمر كائن ولد ورحلَ وجاء بعده خلقٌ كثير .. همْ مثل الأفكار لا يصمدون في مَحكّ الحيّاة المولودة مرّة واحدة وغير القابلة للموت أو الإزالة أو الإزاحة أو التجزيء وحتى وإنْ حدث فنحن لا ندري ولا الأفكار التي ندركها ولا التي لا ندركها أي الهائمة في أرواحنا .. الأفكار الفطرية الطريّة المفكـّرة المتواضعة غير المُعيّرة أو المـُتجهة وغير الموصوفة بالشيطانية أو الملائكية أو الوسطوية.. تلك المجاهيل الغارقة في لا وعينا .. نحسّها داخليا ولا يُمكننا ترجمتها .. نقتات على رذاذ فتاتها اللذيذ .. في عـالمنا الخاص اللا متناه واللا متشابه مع أحد .. أضع رأسي على الوسادة .. الشعر الأسود يضغط حشوة الوسادة المتكوّنة من الصوف والقطن .. رُفات النبات والحيوان أنا شاهِدَتـُها .. حرارة رأسي تنقل دفئها لما تلامس .. الوسادة مطعوجة من المنتصف .. منتصبة من الجانبين .. وسطها غارق في العرق .. كلما انتقلت رأسي إلى الجهة الأخرى أخذتُ بعض نفس .. الفراش تحتي ينعم بدفئي .. فراش الإسفنج الصناعي المغلف بقماش البوبلين الرخيص الذي اشتريته من سوق دينارين ذات عشية صيفية .. حيث تنخفض الأسعار إلي تخوم المجانيّة .. كل صباح أنشر الفراش على حبلٍ أفقي .. وسط بيتنا العربي العاري السقف .. يتهوّى مثلما نتهوّى .. تطهرّه الشمس من رطوبة الأرض والجسد والأثقال .. في المساء أنفضه .. أفترشه .. أنطرح عليه وأنام .

كان جسدي منهكا
وعقلي لا تسألوا ..
ارتميت بملابسي
وحذائي الضيّق ..
ما أجمل الارتماء إذ تكون حائرا ويلقاك صديق ..
رحلتُ عبر النوم
والمصباح مُضاء ..
والمروحة تدور كرحَى ..
لا ينتهي شعيرها ..
دموعي دقيق ..
ودقات قلبي حُبيْبَات ناجية ..

أشعر بالخوف .. بالخوف ..

من عجوز تغربل ..

وتعيد كل حبّة ناجية إلي قلب الرحى ..

عندما ضاقت بنا الحال في ظهرة طرابلس رحل بنا أبي شرقا إلى بنغازي .. المُلقبة بربّاية الذائح .. سعيا وراء الرزق وهربا من الجفاف والفاقة والبطالة المتفشية في النواحي الغربية من الوطن الليبي .. ربما كان عمري آنذاك ثلاث سنوات أو أربع .. لم أعدْ أذكر بالضبط .. عشت طفولة لا بأس بها في براريك الظهرة .. مليئة بالمتعة والألم .. درستُ في خلوة الجامع .. أحفظ القرآن الكريم على اللوح .. أكتب بعود القصب وأمحو بلطيخ الطفلة وأمنح الفقيه الكسيح كل خميس بيضتين وحفنة لوز.. استقبلت أولى جلدات الفلقة على قدمي الغضتين مرسلا أولى صرخاتي المضمّخة بدموع الكُره والمقت إلى فضاء أخرس.. كنتُ أول العنقود .. مدلل مُجاب الطلبات .. لا ينهرني أو يضربني أحد .. في الشارع أتضارب مع الصغار .. أتعافرْ معهم دون بُكاء .. الباكي في عرف الصغار ليس رجلا .. كنّا أصدقاء دائما .. حتى وإنْ تشاجر أهلونا وسال الدم ووصل الأمر إلى مركز البوليس نظل مبقين على وشائجنا الحميمة .. نقتسم برتقالتنا وتمرتنا وخبزتنا وكعكتنا والذي لا يقتسم زاده مع الآخرين الكلُّ ينبذه ويفنـّص فيه ويُقاطع .. بتعبيرنا الطفولي (يقصّوله) .. ويصفونه بالمكّار .. ومَنْ (يقصّوله) يقوم كل طفل بالذهاب إليه ومقاطعة خنصره في خنصره ثم جذبه لينفصل الالتحام مع فرقعة لسان من القاص ونظرة أسى من المقصوص له .. منذ تلك اللحظة لا يجوز التكلّم مع المقصوص له .. القصْ وتشبيك الخنصرين مثل القسم والأيْمان الغليظة عند الكبار .. لكنه قَسم خاص بالصغار غير قابل للحنث .. يظل هذا الجفاء يومين أو ثلاثة أو ساعات .. لأنّ المنبوذ يشعرُ بالضيق والألم ويبقى أمام بيتهم حزينا مكفهرا عصبيا وإذا شعرَ بالبكاء دخل براكتهم وانفجر باكيا حتى تـُعطيه أمّه أي شيء ذا قيمة يقتسمه مع رفاقه الصغار ليبطل القصْ وتـُرفع العقوبة ويعود طبيعيا يلعب معهم .. يقاسمهم زادهم ومسرّاتهم .. وتتوقف كلمات التحذير من الآخرين لكل من يهمّ بالسلام عليه : اسمع راهو قاصّيلا .. لأنّه لو سلّم عليه سيقصّون له هو أيضا .. قوانين وتشريعات نبيلة .. عشنا في ظلها بسلام وعدل ومحبة وها لا شعوريا يستدعيني القِدم والآن يبكي والغد يرمي له منشفة مشكوك في نظافتها لتتوتر في داخلي الأزمان ممتزجة في فيافي عمري وغياهب خيالي وطيّات جوّانيّاتي .. تقصّرني .. تطوّلني .. تكوّرني .. تغزّيني .. تسيّلني .. تصلّبني .. تُنصبني .. تحلـّمني .. تعلّيني .. تمددني .. طفولتي تترثر عن نضجي .. نضجي عن كهولتي .. شيخوختي عن ميلادي .. ميلادي عن برزخي عن مطهري الماضي أو القادم .. أنا أرى ذاتي .. أتذوّقها في نومي وفي موتي .. أعلم غيبي بدون تفاصيل وأجهل حاضري بتفاصيله المرئية والغيبية .. الماضي هزيل وقوي .. مازال يشنقني ولا يمنحني فسحة ارتخاء .. هو لا يثق في الحاضر .. والحاضر لا يثق في المستقبل والأزمان أبوها الماضي وأمها المستقبل .. والحاضر رعيتها التائهة في المضمار .

قدرنا أنْ نعيش في مضمار .. مضمار يضيق بأرجلنا .. أجري فيه عارياً من عريّي .. كصوفي أعتقد أنّه رأى وما هو برائي .. أتذكر الظهرة بطرابلس حيث ولدت وخُتنت .. ضبابة ملح تضيء دفء ذاكرتي .. بداية ألمي وبداية تطويعي للعنف القادم المستمر .. جاء الطهّار إلى برّاكتنا .. الطهّار أحد فقهاء فشلوم أو زاوية الدهماني .. عجوز شنب بعباءة بيضاء وبلغة حمراء أصفر قاعها .. يتدلّى خرج جلدي من كتفه .. أحسستُ بالألم فور دخوله .. هربتُ .. تسلقتُ إلى سطح البراكة .. رأيتُ مئذنة الجامع وقـُبب أسيادي بوكر والشعّاب وآخرين مبعثرين في مُحيط رؤيتي .. لا أدري من أنزلني .. كـُنت صغيرا خائفا .. عجزتُ عن القفز إلى البراريك المجاورة .. مازلت أذكر قعقعات قدمي والأقدام الراكضة ورائي على سطح الصاج (الزينقو) المموّج ..

امسكني أبي .. وأمي تتلصص وسط دموع فرح وحزن .. أمي في المسْقف المُلحق بالبراكة .. تطبخ كيلو لحم الجمل .. تحرّكه بمغرف العود داخل القدر الفخّاري .. بين حين وأخر تنفخ جذوة الحطب حتى تدمع ..

رفعوا جلابيتي الجديدة إلى وسطي .. أنزلوا سروالي القصير عُنوة .. مباعدين بقوة ركبتي المضمومتين عن صدري .. أفردوا قامتي وفعل مِقص الطهّار فعلته بين فخذي ..

صرختُ وبكيتُ .. الألم فظيع وبكائي اتصل حتى صِخت .. أمي دائما تقول : وين طهرناك صِخت ورششناك بجغيمة من أميّة سيدي الشعّاب ..

جلابيتي بيضاء مضمّخة بزعفران وحنّاء .. فمي مملوء بدحية خميس مِحّها أصفر فاقع .. الألم بدأ يخف .. وهدايا بسيطة تتقاطر من طيبة الجيران .. (بيلة بشكوطي .. كور مستكة ملونة .. شكارة امبولات .. زوّايا في طرفها ريشة ...) الهدية المميزة المحتفظ بها حتى الآن جاءتني من أم آمال .. مزهرية فضيّة منقوشة بعلامات ورموز قديمة .. هذه المزهرية تنقلت معنا من مكان إلى مكان .. جوفها تذوّق ياسمين الظهرة .. وقرنفل الخمس .. وفُل بنغازي .. وشيح طبرق .. وكلما سافرت إلى مرّاكش .. درنة .. بانكوك .. استانبول .. بكين .. حملتها معي وأطعمتها ورود تلك البقاع .. هذه المزهرية لم تتقيأ وردة قط .. ملامح الطهّار تلاشت .. أذكر أنّه طهّار فقط .. أراق دمي بمقصّه المشحوذ .. وقبل أنْ يغادر شبع من البازين واللحم والبيض .. وكوغدت له أمي ما تبقى من لحم جمل وضعه في خُرجه ومضى ..

لا أعرف مصير ما اقتطع مني .. نتفة سُرّتي تحتفظ بها أمي .. جلدة جافة ملفوفة في خرقة تحشوها في قاع مزهريتي الفضيّة .. الخرقة عام بعد عام تُبلى .. نتفة سُرتي باقية كما بُترت .. فكّرتُ أنْ تُدفنَ معي إذا مُتْ .. أنبوب غذاء يمنحني بارقة أنس .. لكن ما اقتطع من ذكري لا أدري أينه .. هل التهمه سنّور جائع ؟.. هل دُفن وذاب في الأرض ؟ .. أشعر أنّ لي إرث في هذه المُداسة .. الأم تورّث وليس الأب فقط .. السنّور أكل مني وتفتت في الأرض .. الرياح لن تحمله خارجها .. الأرض من مكوّناتي .. طهرٌ أليم صاف يُعطّسني .. وغرسة آمالي تجذبني بنسيم دابق .. أضع أذني على رأس الأرض .. أستمع لأنيني.. إذاعة روحي مُذيعها أنا.. صوت الطهّار الغليظ يقتحمني.. أنت راجل يا ولد.. بلاش عياط كيف اولاد بن عاشور المرخيين.. قهقهات أبي الصاخبة.. نشيج أمي العطوف.. عويل جارتنا أم العز .. اغتال النصارى ابنتها معيتيقة في حومة الشط ..

عادت بي الحياة إلى حيث تقيأتني .. الظهرة هي الظهرة .. مقبرة سيدي بوكر كما هي .. سورها الحليبي يصنع ظلال دهره .. سيارات نصف نقل (قلع عكّارية) تصطف بجانبه .. تؤجر لمن يرغب حمل جثمان أو بضاعة .. أو أكياس شعير وقمح للبذر .. نحن سنابل لزجة يُعفّنها الهواء .. جذوع متحركة تبحث عن سُرر جذورها .. البرازخ مطامير آمنة .. ما أتعس كائني الخارج من بيضتين .. الخير والشر .. النور والظلام .. العقل والجنون .. أنا وهي .. أنا مدينة عظم ولحم .. هي مدينة لحم وعظم .. أنتما دمنا الجاري .. كلكم مدائن نحن دمها الساخن .. من يقطعنا نحن المقطوعين ؟ .. من يقطع سُرر المدن لحظة ميلادها .. في أي خرقة سيحتفظون بها .. أي قماشة تحتمل الوطء .. المدينة من أبوها ؟ .. من أمها ؟ .. كيف هي ذروة لذتها ؟!.. على أي فراش تتضاجع يا تُرى ؟ قطن .. صوف .. قش .. تراب .. نار .. ماء .. ملح .. هواء .. فحم .. بناياتها تتشاجر رأسيا .. رؤوسها تتطاول مائلة لتتناطح .. البُراح يضيق .. يتلوث .. يختنق .. الأفق ممتد ولو فصله بحر .. مُدن يتيمة معروف نسبها .. مُدن سفاح رحمها تائه .. هل هناك مدن هربت من مقص ..؟ أرى مدينتي تمشي على نفسها حافية حتى من الجوارب .. حتى من الحنّاء .. الحنّاء ليست طلاء أظافر .. والسواك ليس أحمر شفاه .. صخورها كدار الجامع .. مدفونة في الداخل .. الطلاء بارد عطش .. طبقاته جليد متراكم .. طبقة تجثم على طبقة

.. التقشّر جمال مرفوض .. الأيام طلاء .. السنون طلاء خاثر .. أمّا الحقب فقطران هلامي .. ينزلق بوهن .. رغم ميلان المكان الحاد .. وانخفاض منسوبه المرعب عن سطح الحظ .. وتتنازعني المدائن .. وتهيمن بنغازي (ربابة الذائح) على مداركي وقلبي .. حللتها صغيرا فمنحتني الوَفرة .. احتضنتني كبُهرة نور التجأ إليها ظلام.. مَنحتْ برودتي دفئا لا ينتهي .. وأحزاني غطستها في رحيق الابتهاج .. تربتها تبتسم لي.. ابتسامة التراب أبهج منْ ابتسامة الحظ .. دائما تواسيني بهمسة في أذني (خليها على الله) وتغني لي :

" *هي فانية واللي عليها فاني .. وما يوجعك غير الحبيب الداني* "..
وأسألها والحبيب البعيد ألا يوجعك ؟ ..

فتُجيبني :

بنغازي ليس لها بعيد ..
بنغازي طاهرة من الصديد ..
كل العالم يسبَحُ في ملحها ..
وملحها في قلبها ..
وقلبها وريد ..

أحببت شوارعها .. أزقتها .. أحياءها .. مقابرها .. مطاعمها .. مقاهيها .. ملاعبها .. سباخها .. ملحها .. غبارها .. شمسها الشارقة والغاربة .. قمرها الخجول .. بحرها المتماوج .. منارتها الأبدية الومض .. أعلامها الطيبين.. مفتاح الهندياني .. بازامة .. شركَة .. حيطة .. احميده فاصوليا .. بابا سليم .. وفتية شهداء يناير .. بنغازي حبيبتي الحالمة الجريئة المالحة .. ذات البحر المعطاس المرذذ على الدوام .. على الخارطة تطلّين كسنام بعير .. جمع قطيرات زيته من نسوغ الفيافي والقفار .. ومن أعشاب التاريخ وآلامه وأوشامه على صلادة البقاء .. ومن تعريّات صخورنا السخيّة أمام مؤلّهة الريح والشمس والماء .. ومن سرّ الملح الهارب من لعاب المتذوقين .. ومن كسيرات اللُبان وثمار التين والخرشوف والخرّوب والصبّار .

بدأ رحلته من الصحراء .. امتطى الفضاء .. تمرّغ على جباه الطوارق والزنوج والبربر والعرب والفرنجة الغزاة .. نال نصيبه من قذارة الجليد ومن عجرفة السياط والطغاة .. صافح السحاب .. غازل الوميض .. وعلى مرافئك صُبّت الحمم .. ورحلت الخيرات من أفواه جياعنا .. إلى أفواه شبعى في أصقاع أوروبا وآسيا وأمريكا وأتلنتيك.. سنام ينوء بالشقاء .. دهنه زيت سيضيء في شموع نخاعنا .. وفي خيوط (زغداتنا) وطائراتنا الورقية التي تخبّلت في الزرب والعوسج والسدر والديس وأسلاك الشوك الحمقاء .. البحر لن يجف .. والصحراء ستأتي .. وسنام بنغازي سيتيبّس ويتشقّق ويتفجّر .. لتكون جمالنا خيول وخيولنا بغال وبغالنا حمير وحميرنا نعاج مبتورة الليّة .. سنام البعير جال وجال .. جال يا بُنيغازي حدّ الفناء .. وعندما أحسّ بالخواء .. نظر إلى عينيك فتفتت .. يا ترى ماذا رأى ؟!.

ليس كل الدهون للأكل .. هناك دهون مرطبة للخيبات .. مواسية للحزانى .. مشاركة للفارحين .. معانقة لكل (راقد ريح وقليّل والي) .. دهون مالحة منعنعة مصعترة مضمّدة طاهرة .. بنغازي مثلي سيئة الحظ .. فساد الملح ينخرها من تحت .. والعجاج من الوسط .. وطوابي الشوك والفولاذ من الأجناب .. والمصائب من فوق .. تبتلع الألم وتصبر .. تبتلع المهانة وتصبر .. تأكلها الحيرة والغيرة .. تقبل كل الناس .. تقبل كل الانتهاكات .. كل الإفرازات .. كل السّماجات والوقاحات .. بنغازي مومس المدن .. مومس شريفة أجهل فرجها .. أمازونية مجتثة النهد .. لكنها تذرف الحليب .. ألحس دموعها بلسان بطني .. وكلما أردت البصق أعياني الابتعاد .. بنغازي

نظيفة طاهرة .. بهيّة يانعة .. أعرف ذلك جيدا .. ما جعتُ أو عطشت فيها قط .. ما فرغت جيوبي فيها من النقود .. كل أناسها تقتسم معك الفرنكات والليرات والمجيديات والبارات والجنيهات والدنانير والدولارات والخبز والملح والفحم والشاي والخمر والهمّ .. ما وجدت فيها بابا مسدودا أمامي أو خلفي أو تحتي أو في حلمي أو في نسياني.. أجلس في مقهى تيكا العتيق .. أرتّبُ أوراقي .. أشكو إلى وجه قهوتي البنّي الدافئ المنمّش بذريرات الكسبر أوالحبّهان .. أقرأ جرائدي ومجلاتي .. أستمع لثرثرات الرواد من موظفين ومباحث وعاطلين ومتقاعدين وطيبين وأشرار .. أمكثُ زمنا قصيرا وأصعد إلى صندوق ضياعي في مبنى البريد المقابل .. أقرأ وارده وأردّ عليه .. ومن ثمّ أبدأ في ذرع شوارعها هائما على وجهي .. وجهة تمنحني إلى وجهة.. المحيشي .. سيدي يونس .. الصابري .. بوعطني .. سوق الحشيش .. السلماني .. بن يونس .. أرض قريش .. أزواوه .. الكيش .. رأس أعبيدة .. الليثي .. اللثامة .. الماجوري .. الفويهات .. بوهديمة .. البركة .. الحمّيضة .. الهواري .. قاريونس .. القوارشة .. سيدي حسين .. السبّالة .. جُليانة .. عمارات السيرتي .. عمارات الكعب العالي .. الخ .. بنغازي مستعمرتي مملكتي جمهوريتي جماهريتي مجهولتي فاضلتي فضلتي .. بنغازي حياتي تاريخي .. كلها لي .. أفعل بها ما أشاء .. أصوغ زمنها كما أريد ..

القلم في يدي
والحبر في قلبي
والقراطيس أرواح الأحباء ..
الحقيقة هي أنْ أبكي ..
وإنْ لم أبكِ فكتابتي رياء .

كل حي فيها لي به ذكريات .. وضحكات على لبن مشروب .. وبكائيات على لبن مسكوب .. في صميمها الدافيء أجد أناسا أحبّهم .. وأماكن رأتني ورأيتها وامتزجنا في كائن من جمادات وحياوات .. أحبّ كلّ بنغازي .. أحبّ بنات بنغازي .. أحبّ طعام بنغازي .. أحبّ كرة بنغازي .. أحبّ فن بنغازي .. أحبّ أدب بنغازي .. أحبّ تراث بنغازي .. أحبّ بيان بنغازي .. أحبّ أصيل بنغازي .. أحبّ ليل بنغازي .. أحبّ كروم بنغازي وعرائش عنب بنغازي ومصاطب ظل بنغازي ومرابيع بنغازي وزنقات بنغازي وجلسات بنغازي وقرابة (خمر محلي) بنغازي وحشيش بنغازي وعاهرات بنغازي ومعاكيس بنغازي وثوّار بنغازي وشيوخ بنغازي ومتطرفي بنغازي وإلهامات بنغازي وصديقا كلما التقيته حرص على أنْ يضيّفني في مربوعتهم العتيقة ذات البلاط الأبيض والقرمزي الشبيه برقعة شطرنج .. والتي قبل تحويرها إلى مربوعة كانت مقهى شعبي من رواده بعض فتية بنغازي المهمومين بالثقافة والأدب كصادق النيهوم ورشاد الهوني وحسين مخلوف وخليفة الفاخري ..

كان ذلك حقبة الخمسينات والستينات عندما كان ميدان سوق الحشيش حاضرة برقة ومركزها التجاري العامر يوميا بالباعة والشُراة القادمين من نواحي سلوق وقمينس والأبيار والرجمة وحتى من الجبل الأخضر وفزان وأوجلة.. جالبين منتجاتهم من عسل وحبوب وبقول وأصواف وتمور .. وغيرها ..

كان مقهى سي عمر يقدّم القهوة والشاي والمشروبات الغازية .. وفي فصل الشتاء يضيف سحلب القصب الساخن المرشوش بالقرفة والحرارات ومبشور جوز الهند .. بعد أنْ نتناشد ونجمع ما في جيوبنا .. يخرج لزمنية قصيرة ويعود بكيس صغير نافخه الماء .. يثقب طرفه بعضـّة ليصبّه داخل القنينة الفارغة .. نبتسم .. وتدور الكؤوس بيننا .. تصحبها ملاعق زبادي غوط السلطان وحبيبات الزيتون المالحة ..

في قطيرات الخمر تـتجرأ المحاكي ..
والأحـاسيس الظامئة تُـزْهرُ الإنـتعاش ..
والهم والغم مذبوحان في رقـصة مرحة ..
والأحذية الدائسة مأزق وجودنا تسكر .. تـترنح ..
تـنحلّ عُقد خيوطها لـتـنـثـني أبوازها إلى تحت ..
والفناء المرئـي يرحل بعيدا عنـّا ..
وإن عاد فببطء ..
حتـى نكاد لا نحس دخوله ..
أي بقاء فان يرانا ولا نراه ..!!

بعد خمسة أدوار يضيء الجو .. والمزاج يرتقي سلالم الإبتهاج .. والتجلي يشير إلـى الدرج القريب .. يجلب منه أوراقه وأقلامه ويغوص متـنفسا في عميق عوالمه .

نجيب مخلـوف .. مـن مواليد سـوق الحـشيش بدايـة الخـمسينات .. متوسـط القامـة .. هـادئ الطبـاع والملامـح .. مـخـدد الجبهـة .. شـعره جيّره الزمـان .. عينـاه محمرتـان .. أغلـب الآحـايين تخالهمـا تذرفان .. على جبينه مسحة حنين .. وفي رأسه ذاكرة ضجيجة بالأحاديث والحـوادث .. أمكنـة .. شخوص .. أزمنة مفرحة ومحزنة .. ينشر حكاياته في جريدة أخبار بنغازي .. تنـاول العديد من الشخصيات الليبية والعربية .. علي بازامـة فنـان الكاركوز .. الدرويش بوسعدية .. أحمد بن بللـة .. جميلة بوحيدر .. جميلة بوعـزّة .. بطل الملاكمة جقرم .. صاحب المطعم قريتشة .. وكثيـر .. كثير ..

مختصر يومـه كمختصر ماضيه .. لا جديد تحت الشمس ولا قديم فوق السماء .. يخـرج ويعود .. يستيقظ وينام .. بندول رتيب يعيشه .. يجلس على مصطبة بيتهم .. خلفه حوض لاونطـا .. تظلله عريشة لبلاب .. أمامه مخلوقات تـمـر .. ينظر يمينه .. يستحضر الكرمـة .. كرمـة عائلـة مخلـوف .. هـي مجتـثـة الآن .. خيالهـا بـاق .. ظلهـا المفترض .. رائحتهـا .. يقعـي حيث كانـت .. يحفن من التراب .. يشمّه ويعيده برفق .. لا ينفض راحته .. لا يمسحها بمنديل .. يمسح بها على جبهته ويهمس لذاته :

- لماذا عمر الكروم قصير ؟! ..

يقطع ميدان سوق الحشيش .. القصير طوله وعرضه .. تقوده قدماه إلـى شـارع سيدي أحمد الشريف .. يتبوأ منـتصفه .. ظهره لأطـلال ضريح عمر المختار .. ووجهه لمنارة سيدي خـريبيش .. لا يعبأ لأبواق السيارات ..

ما أجمل الغروب ..
الغروب هروب ..

والشروق هبوب لرياح النور ..

الشمس تغوص ..
المنارة تومض ..
والنجوم تضـيء ليل برنيق ..
ليل الملح المضـيء ..
الليل الشفيف الذي لا يـبتـلـعـنـا ..

ذات يوم لم نجمع ما في جيوبنا .. كان حزينا .. صامتا .. يـدخن بشراهة .. سيجارة يشعلها من فم أختها .. ظللنا جالسين على المصطبة .. الظل يتأخر .. وآذان الظهر يرتفع من جامع سيدي محمد الفقي .. دخلنا المربوعة .. قدّمت لنا أخته مكرونـة جاريـة حـارة .. وأعـقبتها بـدورين شـاي

مكشكش .. نجيب مازال في غيّه صامتا .. لم أتجرأ على اقتحام عزلته.. من حق الإنسان أنْ يسكر صمتا .. تجرّعت مثله زجاجة صمت .. غرقت في قراءة (أنْ تعيش لتحكي) لجابريل جارسيا ماركيز.. بينما هو غارق في سُحب سجائره .. الصمت ليس عزلة .. يحاورني بعينيه .. بهزهزة رأس خفيفة .. بدمعتين حرّتين .. بطول وقصر سَحبه لسيجارته .. بطريقة نفثه .. بكيفية سحقه للاعقاب .. السيجارة حياة .. والحياة سيجارة .. والجمرة هي الروح .. وأعواد الثقاب قدحة قدر بائسة..

كانت حالته غير مستقرة .. صخب .. هدوء .. أحاسيس متشابكة .. ربما تلسعه سياط ذكريات أليمة .. ألم يختبئ في طيّات نسيان.. يتحيّن فرصته ليطفو .. لا يريد أنْ يموت دائما .. من حق الألم أنْ ينجو .. أنْ يعيش حياته .. أنْ ينتصر على حقن التخدير وشرائط المسكنات ..

الإنسان لا يجترّ من ماضيه غير الحزن ..
وإنْ اجترّ الفرح ففرح الحاضر أكبر أناني ..
وفرح المستقبل أقتم أنانية ..
مسكين تاريخ مشاعرنا .. مسكين !!

انتابتني نوبة سعال بسبب الدخان .. أسعفني نجيب بفتح النافذة المطلّة على سوق الحشيش .. ناداني بفرح طفولي .. تعال .. تعال .. جئته مسرعا أشاركه التأمل الشبّاكي .. كانت قادمة .. هريرة ناضجة متباطئة .. قصيرة مكتنزة .. ترتدي إيزارا سماويا وسترة فضفاضة تميل للون البنفسجي.. يفصلهما حزام من قماش وردي.. تتهادى مقتربة وشعرها منسدل في سالفين على صدرها .. تصلنا فرقعات صندلها على الأسفلت .. تك .. تك .. تك .. وشوشني : إنها سعاد .. اسعودتي .

هممت أنْ أخرج .. فسعاد على وشك الوصول .. لكنه أمسك بيدي بشدة

- والله ما تنكتب علينا .. النيهوم والفاخري ما علمونش استبدال الأصدقاء بالصديقات ..

- لا يمكنني البقاء .. أشعر بالخجل إنْ حشرت نفسي بين عاشقين !
- باهي .. باهي .. ساهل .. ساهل ..
رن جرس البيت فوراني وراء باب المربوعة ..
سعاد ونجيب جالسان في صمت صاخب .. أمامهما العصير والكعك والغريْبَة والمقروض ..

كان قد استنفد سجائره فاستأذن سعاد وجاءني خلف الباب .. سحب من جيبي علبة السجائر تاركا مكانها كعكة وقطعة مقروض ..

ومع أولى نفثاته الجديدة ساد المربوعة مناخ رومانسي يتواطأ مع الأيروسية .. حديث هامس.. آهات مسروقة من صمت محروس.. ضحكات مكبوتة.. محاورة بصر وبصيرة.. جسد وروح.. عصافير .. فراشات .. شموع تتذاوب .. ورود تنبت في الجدران .. البلاط القرمزي وردّ البلاط الأبيض.. اللونان يتداخلان .. يلهثان في امتزاج ألوان الطيف .. رقعة الشطرنج تورمت.. السقف دار ..هدد بتسريب ماء المطر .. أخيرا استأذنت سعاد للذهاب.. صحبها نجيب إلى شارع عمرو بن العاص عبر شارع عثمان ابحيح .. عند حلواني بوعشرين أوقف لها سيارة أجرة .. ولوّح لها بحرارة .. كنت أرقبه من النافذة وهو عائد يهرول بقفزات تزغرد .. خرجت لملاقاته على المصطبة .. عانقني وجرّني بإلحاح إلى مكان الكرمة .

أحبّ قعدات بنغازي وحكايات بنغازي .. أحبُّ روح بنغازي ورحم بنـغازي .. أحبُّ فضاءات بنغازي .. أحبُّ برنيق .. أحبّها بجنون .. لكن لو كانت هي مسقط رأسي لاحترقت حبّا .. مناطق أخرى تخفف العبء عني .. تلتهم من حبّي مساحات ومساحات .. تخفف تركيزه المبهّر الحارق .. مناطق أخرى لها في نفسي حبٌ واحترام .. مراكش .. بانكوك .. بكين .. استانبول .. أزمير .. أمستردام .. صوفيا .. أثينا .. دمشق .. القاهرة .. الاسكندرية .. الاسماعيلية.. فاليتا .. أمستردام .. بون .. كولونيا .. دوسلدورف .. وارسو .. فراتسواف .. بوزنان .. كوالالمبور .. سرت .. تاورغاء .. درنة .. البيضاء .. شحات .. اجدابيا .. المرج .. طبرق .. مصراتة .. صبراتة .. جربة .. تونس .. الخمس .. زليتن وغيرها .. وغيرها .. كان ذاك زمان .. والآن تصرخ فيَّ الظهرة .. مسقط رأسي .. كيف تتغزّل في الأماكن وأنا من تلقّى تباشير آلامك ومواشير نورك وصرخاتك وإفرازاتك البكر.. بل ودماء ختانك أيضا .. أنا الظهرة بطرابلس .. هل تسمعني ؟.. ما غرست في بكارتك الفطرية الجفاء .. أم أنك نخلة عوجاء كنخل النبات .. أنا مكان غيور .. تحكي عن بنغازي وتهملني .. سأبكي بدموع من شقوق .. مقابري تبكي .. شوارعي تتصدّع .. أزهاري تذبل .. حشائشي تُجتث .. خصوصيتي تتعمم بغباء .. كلسي يتطاير من الجدران .. الفولاذ يهاجمني .. دونك لي .. يا ابني .. يا ولدي .. على ترابي حملتْ بك أمك .. وعلى ترابي ولدتك .. وفي جامعي الصغير تلقّيتُ أولى حروف الأبجدية .. أنا الظهرة ببيوتاتها الطينية ذات الشرفات الخشبية وجوامعها البيضاء كالحليب .. وكنيستها ومقبرتها وسيدي بوكرها وسيدي شعّابها وودّانها وسفاراتها وحدائقها وسوقها وبحرها القابع تحت قدميها .. ومبدعها كامل حسن المقهور .. وفريقها الكروي وفرقتها الموسيقية الشعبية .. أنسيت ذلك الزكار ذا الجونيلة البيضاء الواسعة المزخرفة من تحت بطوق ستان ، الدائر برشاقة وهو يزمّر كمولوية مولاي جلال الدين الرومي وهم يرقصون على إيقاع أرواح كلماته :

" ماذا يضيرني لو يقع الخراب ؟
إنْ كنزاً ملكياً سيكون تحت الأنقاض .
إنْ هذه الأرض ، وتلك السماء - على سعتهما —
مزقتا قلبي إربا بضيقهما ..؟
فلا تفضح أمرنا أيها السراج "

.. أنا الظهرة .. حاضرة طرابلس وبركتها ودفئها وأصالتها وقدسها وفتوتها وسُرّتها ورقبتها .. سأقول لك آخر شيء .. أين استقبلت أول نص نشر لك في الجريدة (من مذكرات شجرة).. أليس على ترابي ؟.. ألم تجده في جريدة الجماهيرية يقرأه شاعر كردي اسمه نور الدين جابو ؟.. ولا أصمد .. وتُقبّلني الكلمات وتربّت على بوحي .. وتزيحُ بنغازي قليلا برفق وتدخلني الظهرة مسقط رأسي وأسمع آنذاك بعض كلمات لا أنساها .. تُعذبني وتصرخ بورقها في حبر قلبي .. تطل صارخة : أنا الظهرة .. كنتُ رؤوفة بك .. لم أحكي لأستنفرك عن آمالك ومزهرية أمها وعينيها المشرقتين وجبهتها الشامخة وقُصتّها الحاجبة حاجبيها ولعبكما على شاطئ البحر وعناقكما في غفلة من الناس في عيد المولد النبوي الشريف .. عندما سقطت الشمعة داخل قنديلك الورقي وأحترق القنديل وأبعدتك آمال عن النار إلى الظلام في ركن المخبز فعانقتها خائفا وعانقتك طويلا حتى نادتها أمها :

" آمال آمولة خيرك عطلتي يا بنيتي وخيرهن خدودك حمر ؟.."

كنتُ رؤوفة بك .. بنغازي أيضا لها عليك حق .. هي جرّة ملحك ومربية ذوحانك .. ونحن المدن أخوات .. نغار لكن لا نتشاجر.. نتفاهم .. دائما نصل إلى حل .. الزلازل والخراب ليس بسبب غيرتنا واختلافنا وشجارنا .. ربما بسبب طواغيت العمق وأسرار الظلام .. ربما بسبب الجادون في تدشين دمويات جديدة لمتاحف القسوة ومعارض الأنين .. دائما نتشاور ونقتنع أنّه

من الخطأ أنْ نظل نعيش على مسطح له حياته وموته ونـزواته .. ما أجمل الفضاء .. ما أجمل الأحلام التي لا تـنهار والذكريات التي تتـنفس ولا تهبط أو تجلس أو تـنام .. تـظل في الذاكرة كقدر .. تمشي وتطير ولا تفترش أو تتغطّى بشيء .. تنخر النسيان وتوخز الغفلة .. كما أفعل معك الآن أيها الولد الطيّب المُحب المجنون ..ها آنذا قد ارتحت عليك فاصدح وكن أصيلا كالظهرة وآمالها ومزهـريتها وفريقها الكروي صاحب الغلالة الحمراء المقلمة بالأسود الملقب بكوريا والذي مثلي ومثلك شامخ عريق عنيد لا يعرف اليأس .

كل هذه الأشياء تتماوج في مخيلتي .. تلعب مع القادم ألعاب المد والجزر .. أتوه وسط اهتزازات الشاحنة ولحاف أمي الذي يُغطّيني .. العبق برائحة لا تذهبها رياح .. رائحة تاريخ تليد ومعاناة وجزّات صوف جُرّدت من جلود مخلوقات كانت تمرح في ربيع الله .. وخيوط مسد استمعت للكثير من الحكايات .. منذ عهد هيردوت ومن قبله أيضا .. أتغطى بتاريخ وحكايات ودفء ولحم ضأن لم أكله .. أتغطى بتاريخ فوق علبة نار تجري .. الريح تعبث بلحاف أمي .. بستري الرقيق الشفيف وموج الشعاب يصلني منعشا مباركا رغم بعده .. في هذا الطريق أرى بحرا مرحّبا ببصيرة أنفي .. أشم تفلا وطحلبا وأتخيّل قواقعا تدبّ على جلدي.. وآمال آنذاك تأتي بل تأتي الآن تتأملني وتعطف عليّ حين أعياني المرض وكوتـني خالتي مباركة على فم كبدي بطرف فأس صغيرة .. آنذاك صرختُ وبكيت ألما .. لم أعد أذكر كيف الألم .. أذكر أمي إذ تأخذني إلى بحر سيدي الشعاب .. ترشرش على حروقي بهار مائه فيزداد عذابي وصراخي وإذ تلوح آمال مع أمها يكتنفني الخجل فأصرر على أسناني اللبنية لتظل دموعي وحيدة تسُح .. تقترب مني بود .. تمسح وجهي بطرف قفطانها المورد .. تدودشني .. تجلسني على حافة الماء .. بعد أنْ تهيئ لي مصطبة الرمل براحتها الصغيرة الناعمة ... تتباسم وجهانا .. نبني صروحا يعبث بها الموج .. نبنيها ويهدمها .. وأمي وأمها تعدان الشاي وسلطة الشرمولا وتثرثران سويا .. كنت أنسى الألم وأضحك وتضحك ويتناثر لعابنا ممتزجا في الهواء .. ذات مرّة غصّت بلقمة شرمولا فضربتها على ظهرها كما تفعل أمي معي .. ومرة أخرى غصصت أنا فأعادت لي الضربة ضربتين .. وقهقهنا آنذاك حتى دمعنا ..

قبيل منتصف النهار تعود أمهاتنا لتحضير الغداء فنفترق جبرا .. ليعاودني الوجع .. أتأوه فتلتفت ناحيتي .. ليهفت قليلا .. قبل أنْ تلتهمها انعطافة غياب أبكي وأتمسّك بفراشية أمي التي تتوقف وتنفحني خمس مليمات .. ابتاع بها الحلوى والحلقوم وقرطاس سامينسا مالحة ..

آمال ذات السوالف المجدولة بشرائط ستان مخضر .. ذات القُصّة الحاجبة حاجبيها والابتسامة الغارقة في المرح .. كانت دائما تتأملني عميقا .. تغرف من البحر في صفيحة مثقوبة تشرشر منها على ما بنينا .. ثم تهمس لي : حوشنا كيف براكتنا يقطر .. مُحُمّدْ هيا نغلقوا الهرود .

وتقف الشاحنة بكبحة مفاجئة تكبّ الناس والأمتعة على بعض وتوقظُ من نام وتوقظُ من يحلم .. وتتعالى صيحات الاستغاثة : *يا سيدي عبد السلام أحضر .. يا سيدي زايد .. يا هدّار .. يا ستار .. يا لطيف* .. والسائق يعلن وصولنا إلى منفذ القوس ودخولنا إلى حدود ولاية برقة أو الشرق .. كنا مكوّمين في صندوق شاحنة صدئة بطيئة السرعة .. أمي تُغطيني بفراشيتها البيضاء وأبي يمدد لي طرفا من جرده الصوف .. يقيني به رياح الخريف الباردة .. طيلة الطريق نقتات على التمر المعجون والزمّيتة بزيت الزيتون والبصل الحويل والفلفل الأخضر وخبز الشعير .. كانت أمي تخصّني بكوب لبن رائب يزداد حموضة وتـزبّد كلما تواصل سفرنا البطيء صوب الشرق .

طيلة الطريق وأبي يتحدث مع عمي حسين .. عن القوس وأسطورته ويتدربان على كيفية نطق الكلمات باللهجة الشرقاوية يقولان عن كلمة شبكة إشبكة وعن بقرة أبقرة وعن شجرة أشجرة وكانا أبي وعمي قد أصابا بعض تعليم في كتاتيب الجوامع والسكولا الإيطالية .. يقول عمي حسين : لتجيد لغة الشراقة ضع قبل كل كلمة ألفا مهموز الرأس .. أبقرة .. أشبكة ..أخرزة .. أبعرة .. الخ ويتضاحكان بقوة عندما يداعب أحدهما الأخر بجملة الوعيد الشرقاوية الشهيرة : *والله نعطيْها على خشمك منها نقّـة* .. هذا القوس الأسطورة المدفون تحته أخوين من قرطاجنة والمتموقع في منتصف ليبيا قرب مدينة سرت أو بالضبط بين سرت وبن جواد .. يقسم ليبيا ولايتين .. ولاية طرابلس وولاية برقة وهناك ولاية جنوبية صحراوية لا قوس لها اسمها فزان استعمرها الفرنسيون وحكمها سلاطين الطوارق وشيوخ العشائر المحلية ردهة من الزمن .. في الشاحنة توجد عدّة أسر أخرى .. لكن لا نبادلهم الحديث ، هم من زليتن ومسلاته ومصراتة وقماطة وورفلة .. كل رهط تقرفص جنب بعض .. يتسامر على حاله وأحواله .. ويغنّي أهازيجه الخاصة بمنطقته مثل: " *الزيت والزيتون في مسلاته.. والزين حازنّا بنات اقماطه..*" وهناك كهل من العجيلات متربع في مؤخرة الشاحنة يسرّب بأصابعه خرزات مسبحة كبيرة من الخزف ويردد لازمة لا تتغيّر:

"*يدرجح تحت المخنوق المحزم خاوي جوفه.. من صغري قلبي محروق معذبني بكلوفه*

يا شايب بنتك تبيني .. وعزوزك حلوفة .. " الخ..

وبين حين وآخر يتملّى خلسة من امرأة ملتحفة جالسة جنب رهط ورفلة .. يبدو أنها تستمتع جيدا بغنّاوته.. فتجيبه بهزهزات جانبية لرأسها المغطى بلفافة حمراء ينحدر منها إلى جانب خدها مجموعة صوالح فضيّة مشدودة إلى بعضها بخيط ضفيرة أسود معطر بالمحلب والقرنفل .. كل مسافر وحكايته وآماله .. الكل توّاق للسعادة والابتهاج مشكلا مرفأ وصوله على ذائقته .. متخيّلا كيف ستسير الأمور معه وماذا سيحدث له في رحلة المجهول هذه .. هل ستمنحه المدينة أمومتها أم تتركه يتصعلك فيها كلقيط سيئ الحظ .. أكثرهم يطمح للحصول على حقل قمح أو شعير يحرثه ويبذره ويحصده ويدرسه أو وظيفة خفير في إحدى مباني الحكومة أو شركات المقاولات أو كنّاس في معسكر الجيش الإنكليزي المسمّى الديقودوستا (الإمداد) أو عتّال في الميناء أو ذبّاح وسلاخ في السلخانة أو بوليس في المتحركة أو زوج لعانس أو أرملة أو مطلقة لإحدى بدويات سلوق أو الرجمة أو فرزوغة أو أي عمل زراعي أو حرفي يقتات منه ويستبقي منه بضع جنيهات يرسلها إلى أهله في الغرب لشراء قطعة أرض زراعية أو يدخرها لزواجه من بنت العم أو الخالة ومنهم من يُمنّى النفس بالانخراط في زاوية صوفية عيساوية أو أسمرية .. أو قادرية .. أو غيرها .. يجدب ويُبندر ويرشق المشفة في شدقه والسكين في بطنه ويلحس معولا متجمرا مقابل كسوة دافئة وعشاء زاخرا باللحم وفلفل المسيّر الحار .. المهم لكل رأس في الشاحنة أمانيها الصغيرة أو الكبيرة .. الخيّرة أو الشرّيرة .. ولكل رأس أفكارها المتواضعة والمغرورة .. معظم الرؤوس مغطّاة بالمعارق البيضاء المصفرّة المغبّرة المسودة الحواف وكل الأجساد مكتسية بعباءات و جرود الصوف .. الكل يبتسم للسماء كلما تشرق أو تـُقمر ومنهم من أعياه الجلوس والقرفصة فوقف مُتثائبا ماطاً قوامه الهزيل .. لكن السائق يرى وقوفه في المرآة فيصرخ فيه : *اقعد مقعد .. أقعد مرض .. اللى يجي من الغربْ ما يفرح قلبْ* ". ويضيف متمتما كان يشوفني الترافكو (شرطي المرور ذو الدراجة النارية) يحجز منى الكريهبة والرخصة .. ويدفـّعـُني مخالفة جنيه وقرش ..

فيقعد سريعا ممتعضا .. الطريق ضيق واسفلته متطاير محفـّر في أجزاء كثيرة.. والناس الراكبة مفترشة الورق المقوّى وبعض صرر ملابسها البالية .. كلٌ كيّف جسده على جلسة مريحة تتلائم

جيدا مع اهتزازات وانتفاضات الشاحنة الفجائية .. رائحة حنون تعبق الشاحنة غير المسقوفة والشبيهة ببيوت العائلات الليبية في الريف والمدينة .. ذات الفناء الواسع المشرح للقلب .. والذي تفتح فيه حجرات الجدّ والأبناء والمطبخ والمطهرة وفي حاشيته بئر الماء أو فحل السانية وبجانب مدخله عريشة العنب وشجرة الحنّاء أما مربوعة الضيوف فبابها يفتح خارج البيت .. داخل صندوق الشاحنة تجد كل شيء من الجَدّ إلى الجدّات إلى الأمهات والأباء والأبناء والأحفاد .. لكن لا توجد عريشة عنب ولا شجرة حنّاء .. الحنّاء في الأرجل والأكف والرؤوس الشائبة .. والعنب في فياشكات زجاجية مغلقة بالسعف اليابس مخفيّة بعناية داخل العفش .. حياة مصغّرة متحركة تتفاعل في رحلة صوب الشرق .. أراها وأعيشها .. خاصة عندما يحلّ الظلام ويخجلُ القمر وراء كثبان السحاب ويزداد الهمس واللمس وتلاعبات الأخيلة والمحاورات الصامتة جريئة الخجل بين هذا وتلك وذاك وهذه وهم وهؤلاء وأولئك والسماء .. وتتلاشى حكايات الجدّات .. وأبو زيد الهلالي ينطمس .. وعنترة وسيف بن ذي يزن يشخران في ظلمات الغمد .. وألف ليلة وليلة .. وكل الخرافات .. تصمت تضمحل .. تهرب منها الألسن والأبجدية تتنكر لها .. الشاحنة تتهادى كجمل في صحراء رخوَى.. في الفضاء نجوم .. وفي جانبي الطريق بضع نخلات .. وبضع زيتونات .. وبضع كلاب وذئاب شاردة .. أختلط نباحها بعوائها بهدير محرك الشاحنة الصاخب في ظلام الليل .

وبين اليقظة والمنام ازداد بطئ الشاحنة .. ويصلني الآن صوت مسجل مقصورة السائق الذي رفع معدله بأغنية شعبية نسوية تصرخ :

يا ليل ياعين .. بين البركة وسيدي حسين ..
ياليل ياعين طول السلك يودر يبرة ..
يا ليل يا عين يلعن جد سواني تيكا ..
يا ليل يا عين واللي حج مع الدوكالي ..
يا ليل يا عين يا رقاصة حوشك وين ..
يا ليل يا عين بين البركة وسيدي حسين .

همست لأمي سيدي حسين الذي في الأغنية هو عمي حسين فقرصتني في ذراعي لأقفل فمي وأخجل .. لا أدري كيف دخلنا بنغازي .. وجدتني أعيشُ أياما وشهورا متتالية في براكة صفيح مثقبة ككسكاس في حي رأس أعبيده البحري .. البراريك متراصة جنب بعضها .. شوارع عشوائية .. منها يفضي إلى مخرج ومنها ينغلق إلى زقاق.. خلفنا سبخة في حاشيتها قبر صغير لولي صالح اسمه *سيدي شاهر روحه* تلتف على قبّة روضته البيضاء الصغيرة الكثير من الخرق الملونة وعقّاديات السعف الأخضر واليابس بينما داخل الروضة يجثم جبل مُطفأ من مصهور الشموع .. أمامنا مرتفع حي رأس أعبيده القبلي .. المسجد والمدرسة والمخبز والمقهى والطاحونة والفحّام والقصّاب والمطعم والحلاق ومصوّب الدراجات ومرقّع الإطارات .. ومركز البوليس ومساحة واسعة مسيّجة بالأسلاك الشائكة مليئة بنبات الديس والقصبة يرتفع وسطها سلّم عال مُعلقة في جوانب قمته بضع قصعات مُغطّاة بجلد أبيض تظهر من بعيد كطبول فزّان وغدامس .. يُسمّون هذه الجهة الإذاعة.. كنتُ أظن أنّ المطرب الكبير علي الشعالية يصعد إلى أعلى السلم ويضرب الطبول ويغني :" *نور عيون اليوم قابلني عضا .. شاطت نار الحب ما ينفع دواء ..* " فيسمعه كل أهل المدينة في المذياع .. دائما أنظر إلى أعلى السلم حيث القصعات البيضاء فلا أرى أي شخوص .. فقط بعض الطيور الراحلة ناحية الشمال .. فأقنع فضولي بأنهم يغنّون في الليل فقط .

.. كل صباح ترسلني أمي إلى دكان الحاج التائب أشترى منه قطعة جبن باردة وعلبة حليب كورنيشن .. أقضم من الجبنة أثناء الطريق .. جبنة الرأس الكروي المغلقة بغشاء أحمر.. واللذيذة

جدا .. أمي تؤنبني ألا أكرر الأمر فأعتذر وأعاهد وأخلف .. أمرُّ من جانب جنان سي عوض تيكا .. أتأمل الطيور والبط والأرانب .. أشاكس بعضها بالزلط .. أحيانا يتفطّن سي عوض ويراني من بين فروع الأشجار .. فينهرني بصوته المزمجر الجهوري .. *إهمد يا شرشور ياولد الغرباوي* .. فأهرب إلى تحت حيث حلاليقنا الزينقو المحاطة بماء السبخة الآسن.. تقول لي أمي: خيرك من يجري في جرتك ؟.. أقول لها: لا أحد .. ولّيت بسرعة بس .. مش ديمة تقوليلي كرعيك في غمرك ماتعطلش يا وليدي .

هناك في رأس أعبيده البحرى بعض البيوتات المشيّدة بالبلاط والمسقوفة بالخشب والزينقو وقليل منها ما كان سقفها صوليتا (خرسانة مُسلحة) .. سي عوض تيكة يملك كوشتين .. كوشة جبس وجير وكوشة خبز .. أغلب سكان الحي يُنضجون خبزهم وكعكهم ومعجناتهم عنده .. الأولاد والبنات يحملون عجينهم في أطباق السعف وسفر الألمنيوم .. كل المواعين مملوءة بأرغفة العجين الموسومة بحبيبات الحمص والفول السوداني أو بخطوط أو ثقوب أو قرصات إبهام وسبابة أو وخزات وسطى أو رسومات .. كل بيت أو حلاق له علاماته الخاصة .. أرغفة العجين تختلط داخل الفرن وعند النضج يوزعها الكوّاش على القفف والمقاطف والأكياس .. معظم الأسر تحرص على صنع رغيف خبز صغير يسمى قنـّـان .. يكون من نصيب الطفل الذي يحمل العجين إلى المخبز ويعود به .. كثيرا ما سقط هذا القنّان الصغير داخل عين النار .. أو أغرى الكوّاش الزنجي بصغره واستدارته ونضجه وتفحّم حواشيه فالتهمه مغموسا في زيت الزيتون وهريس الفلفل وادّعى أنّه سقط في عين الحطب المتجمّر.. فيعود الطفل إلى بيته حزينا .. أمّه تعرف الحكاية من وجهه الكئيب فتقول له *: كنك طايرتلك .. القنـّان طاح في العين آهْ .. ياخذ سوّك* .. وتعوّضه حفنة لوز أو قطعة مقروض أو قرشا يشتري به طرف مستكة سبع أو تصاوير ذات رائحة عطرية شبيهة بالبلاستيك الذائب .

في رأس أعبيده القبلي يوجد قصر عبد الله عابد المقاول الكبير وابن عم الملك إدريس السنوسي والمتّهم بلهف أثنين مليون جنيه ثمنا لإنشاء طريق فزان من خزينة الدولة .. وقامت ضجة في دوائر الحكومة ومجلس النوّاب حول ذلك .. لكن النقود لم تعد والعقاب لم يتقرر.. فهذا العابد بنى بجانب القصر جامعا للمصلين مازالت دعواته ترتفع حتى الآن .. أمام الجامع طريق معبّدة تُفضي إلى محطة الفندق البلدي مارّة بكناسة الإنجليز ومحطات الشيشمة وشمسه وضريح عمر المختار المحاط بحديقة زاخرة بغرسات عباد الشمس .. هذه الطريق ترتادها السيارات والحافلات والكاروات التي تجرّها البغال والحمير والخيول محملة بالركاب والبضائع .. النساء تتحولق في منتصف الكارو.. قربهن الأطفال أما الرجال فجلوسهم على الجوانب .. حيث يستلذون بتدلية أرجلهم إلى تحت .. كثيرا ما طلب أحد الركاب من الحوذي أنْ يتوقف لأنّ شبشبه أو مِداسه سقط أثناء تدلية رجليه المستمر فيجذب الحوذي اللجام وتتوقف أصوات وقع نعال الحصان على الإسفلت المتشقق .. يقفز الراكب إلى تحت سريعا يلتقط حذاءه ويركب من جديد .. بينما الحوذي يصيح : فكونا من تطييح السّعدْ والكنادر والصبابيط .. مش كل مرّة نبي انصبي .. مانيش قاعد على احسابكم .. اللى مش عاجبه ينزل ويأخذ قرشينا .

وكثيرا ما يسبق كارو محملا بالركاب كارو أمامه فيصيح الأطفال الذين يركبون الكارو المجتاز متباهين : *كارونا غلب كارّوكم .. جيبو الشيمة ونكرّوكم* .

فينزل حوذي الكارو المسبوق بالسوط السوداني على ظهر الحصان المسكين وسط تشجيع ركابه وتصفيقهم فيكون هناك سباق تلقائي يتابعه ويتمتع به الراجلون وأصحاب الدكاكين والسيارات القليلة الواقفة والماشية .. لكن سرعان ما تـُجذب اللُجم ويتوقف هذا السباق وترتفع دقات قلبي الحوذيين وينخفض لهاث الحصانين وتخمد وتيرة الحماس فورما يقترب الموكب من

مفترق الطرق وإشاراته الضوئية ورجل الترافكو الشنب السمين الواقف حِذاء دراجته النارية ذات الأربع كاتمات ممتشقا مسدسه وهراوته.. ينفث سجائر سبورت ويـحملق في المارة من مركبات وبشر ودواب .. وبين حين وآخر يبصق على التراب ويسحق بصقته بمشط نعله طويل العنق .

وعندما يصل الكارو إلى الفندق البلدي يقفز الجميع منه .. ينتشرون في ميدانه التجاري حيث تباع الخضراوات والفواكه والحبوب والبقول واللحوم والنعاج والخيول والأبقار والإبل والدواجن والفحم والقش وغيره وتنتشر حوله المقاهي والمطاعم الشعبية وتفضي إليه العديد من الشوارع والأزقة وتحاذيه أسواق الملابس والأحذية والذهب والفـُجْرَة والنحاس والألمنيوم . في محطة الفندق البلدي يتفرق ركاب الكارو .. كلٌ إلى مبتغاه .. من أرادَ المقاهي دخلها ومن أرادَ المساجد دخلها .. ومن أرادَ السوق دخلها .. ومن أرادَ الوقوف في طوابير مواخير شارعي الشطشاط وبالة وقف وأمسك بعشر قروشه أو خمسة قروشه بين إصبعيه .. فاركا عضوه بيده الأخرى متململا كلما تأخر الداخل في الخروج .. المتأخر إذْ يخرج ينظر إليه الجميع شزراً وسخرية ينعتونه ضمنيا بضعيف الفحولة .. أرافق أمي إلى المستشفى الكبير تحقنني الممرضة الرومية بالمصل في ذراعي وتبتسم لي فأكتم بكائي .. نمرُّ على الفندق البلدي تشتري أمي كوم طماطم وكوم بصل وكوم بطاطس وفرخ بكيوة صغير (يقطين - قرع أحمر) ومن القصّاب نصف كيلو لحم قعود منفوحا بشريحة طولية من شحم السنام وطبعا زغدة أو دنفير أو علبة بسكويت كريمة لي .. نعود بواسطة الكارو إلى رأس أعبيدة .. تطبخ أمي على لحم الجمل وجبة كسكسي نتغدى بها ونذوّق الجيران وتستبقي منها قصعة صغيرة مليئة بالكسكسي ورؤوس الفلفل الأخضر ولحمة كبيرة أكبر من التي تناولتها حصتّة لأبي .. فورما يصل أبي بعد المغرب من الميناء تسخـِّنها وتقدمها له صحبة ابتسامة .. أتأمل لحمة أبي ولا أحتجّ وألقف قطعة صغيرة من شحم سنام الجمل أذوّب صلابتها بلذة متخيلا أنْ أكون أباً بشنب مبروم يعمل في الميناء ويعود إلى البراكة مساء ليجد زوجته وقد جهّزتْ له قصعة كسكسي لحمتها كبيرة جدا وفي طرفها عظم مليء بالنخاع .. في تلك الليلة وبعد عودة أبي بكيس البرتقال والموز والتفاح .. وبعد أنْ تناولتُ حصتّي من الفواكه والكاكاوية والبسبوسة نمتُ هنيئا مريئا وحلمتُ بأشياء أحبُّها .. حلمتُ بأنني أنحرُ جملا وأخرجُ قلبه وأشويه نصف نضج ثم ألتهمه ساخنا لترتفع عضلات ذراعي وصدري وأصير مثل شمشون وعنترة وماشيستا وهرقل وطرزان أرسل للملأ نظرة ازدراء وتحدٍ وأهجم على طوابير شارعي الشطشاط وبالة أضربهم وأركلهم وأبعدهم عن الأبواب ثم أدخل لأعرف ما يوجد في الداخل .. وهل هناك بضاعة رخيصة جدا في الداخل كما أخبرني أستاذي المصري دسوقي عندما رأيته مصطفا معهم وسألته .. سأنهبُ منهم النقود وأشتري كافة البضائع .. أوزّعها عليهم كل حسب ماله وأطردهم من أمام هذه الأبواب صارخا : لماذا الزحمة وربّك موسّعها ..

وعندما حققتُ حلمي هذا وانتصرتُ عليهم جميعا دخلتُ إلى أول هذه البيوتات مندفعا حتى عثرت بزير ماء .. لم أجدْ بضاعة تـُشترى .. وجدت امرأة خلاسية تـُغني بغنج : "*اسملـّه مرود عيني طاح .. اسملـّه تلقـّوه الصلاح* .." وترقص وتتعرى وتناديني مشيرة براحتيها الضخمتين بالاقتراب .. أقتربت مني .. أوقفتني من عثرتي البدائية .. وقادتني إلى غرفة شبه مظلمة ثم طوقتني وطرحتني على الفراش واقتربت بفمها ذي القاطعة الذهبية والموشوم الذقن تمتمط شفتيها الغليظتين المسوّكتين تحاولُ أنْ تلامسهما لشفتي الغضتين .. تملصتُ في آخر لحظة وشرعت أقاوم صهد أنفاسها ونفاذة بخورها وعَرَقها بكل قواي العقلية والجنونية .. لكنها جذبتني عنوة ناحيتها فصرختُ مستيقظا من النوم لأرى أمي تطوّق أبي فلا يصرخ .

حاولت أنْ أعودَ إلى النوم لأعتذر لها وأجذبها ناحيتي برقـّة فلم أستطع .. حاولت ليالٍ كثيرة فلم يأتِ ذاك الحلم اللعين.. عندما شممتُ صِناني ونبت بعض ريش الحرام أسفل بطني ذهبت إلى المكان في اليقظة .

لكن لم أجد شيئا فقد قامت ثورة الفاتح من سبتمبر وأقفلته .. إذ ذات صباح وجدنا عسكريا ببندقيته FN رابضا في قلب حلاليقنا يأمرنا بالتزام الهدوء وعدم مغادرة مآوينا بعد غروب الشمس ويعلمنا بأنه رئيس هذا الحي .. وصار يرتقي تبّة عالية ويخطب فينا معلنا أنّ الثورة المجيدة قامت وطردت الملك وأزالت النظام الرجعي البائد العميل للاستعمار واليهود.. كل هنيهة يهب واقفا يصرخ فينا .. يا أبناء الحلاليق .. لا مظلوم بعد اليوم .. لا بردان أو جوعان بعد اليوم ..لا .. لا .. لا .. أنا الرئيس هنا .. هنا .. مفهوم .. بعدها يمسح تحته جيدا ويتقرفص غارزا بندقيته بين رجليه.. وانبهر السكان بخطب العسكري المتتالية وكلامه الملحون ذي النبرة الحماسية فأحضروا له فراشا ونطعا وأكرموه بالشاي والقهوة والسحلب والشرمولا والعصيدة والزمّيتة والمكارين القراجيط والسباقيتي والمبكبكة والعويجة والمحمصة بالقديد والسجائر وجلود الصوف والبطاطين والوسائد.. كان سعيدا معنا وكنا سعداء معه .. نتحولق حوله .. نلعب ببندقيته منزوعة المشط فلا يتكلم .. يحكي لنا عن صيده للجرابيع في الرجمة وسلوق ودريانة والأبيار .. كان يقول: الرئيس يصبّ الماء في الحفرة وأنت - ويشير لصغير منا - تنتظر خروج الجربوع في الحفرة المجاورة وتمسكه من ظهره فيقول له الصغير :

(وَعّوْ) وإن كان يعضّني يا عمي الرئيس.. أنا أصبّ الماء وأنت كبير وعندك بندقية تمسك الجربوع فيضحك ونضحك ونسأله عن صيد الأسود والنمور والذئاب والتماسيح والصقور فيقول صيدهن بالمدافع والصواريخ وليس بالبندقية أو بسكب الماء .. ولا يصطادها الأطفال إنما الرؤساء .. وينفش صدره وكتفه ذا الخط اليتيم .. لكن كنّا أمهر منه في صيد العصافير والحمام بفخاخ التل المعدني .. نجرفُ كوم قمامة عفن ونمسك بثلاثة أو أربعة من دوده الأبيض المتراقص .. نربطها بسلك نحاس رقيق ونثبّتها على شفا الفخ المتوتر رادمين الفخ بالتراب ليبزغ منه الدود فقط .. فيأتي أول طائر ليأكل الدود المتألم من القيد فينطبق عليه الفخ فنجري إليه ونخلّصه ثم نُقصّبه كي لا يطير مرّة أخرى ونضعه في علبة أو كيس حتى نقرّر مصيره ..

ذات مرّة زار فخنا رخٌ كبير.. كان الفخ قد فخخناه بدودة خضراوات خضراء فنقب الرخٌ الدودة وانطبقَ عليه الفخ الصغير .. لم يعبأ به وواصل ازدراد الدودة .. عندما اقتربنا منه لنمسكه طار بالفخ .. صرنا نبكي وصممنا أنْ ننتقم فشرّكنا له بفخ مستطيل مشرشر خاص بالفئران والجرذان وخوزقنا له بدل حارة الدود صرصورا بنيّا سمينا بجناحين لكنه لم يأت .. ربما الطيور لا تأكل الصراصير.. كنا لا نصطاد بوعبعاب (الهدهد) لأنّ سيدي الفقيه قال لنا حرام.. وإنْ وقع مصادفة في الفخ خلصناه وطببناه بالقهوة والتنتورة (ميكروكروم) وأطعمناه القصب وسقيناه ماء المطر ثم أطلقنا سراحه أمام قبر سيدي شاهر روحه .

مكث الرئيس في شارعنا أياما ثم اختفى وبعد أشهر عاد صحبة أمه العجوز وتزوّج من جارتنا مبروكة .. تلك الفتاة القمحية الطويلة المتينة كالنخلة والتي كانت تبعث معنا إلى الرئيس الشاي والسفنز الساخن والفتات والعجّة الفائحة ووريقات صغيرة معطرة مطويّة كالأحجبة مزدانة بالخربشات والرسوم .. ذات مرّة بعثت معي حُلية فضّة على هيئة خميسة وقرين وأوصتني أنْ يعلقها الرئيس في بندقية قلبه .. رددتُ وراءها بندقية قلبه خمس مرات وعندما تيقّنتْ من حفظي للكلمتين وإجادتي لنطقهما لأنني (أقرج) وضعتْ كفيها تحت إبطي ورفعتني ورقّصتني كرضيع هامسة في أذني :

نجّك لي نجّك لي .. تستاهل مليون جنيْ (جُنيه) ..

ذات مرّة بعثتني أمي لأحضر منهم غربالنا الأعمى .. فدخلت حلاقهم وناديتها خالتي مبروكة خويلتي مبروكة فأجابتني: تعال أدخل مافيش حد براني .. دخلت البراكة وجدتها مستلقية على جنبها عارية تتأوه فهربت.

مازالت صورة عريّها ماثلة وسط ذهني .. تلازمني إلى الآن .. شقـّها المحمر المدموغ المغفف .. نهداها الصغيران المستديران النافران ذات الحلمتين البُنيْـتين .. فخذاها المكتـنزتان المترجرجتان .. عيناها الواسعتان الكحيلتان .. وجنتاها المحمرتـان كتفـاح لبنـان.. وفمهـا الكرزي الصغير ذو الأسنان البيضاء المنتظمة .. هذه المبروكة شعرها طويل يضرب إلى وركيها .. نصفها العلوي نحيف والسفلي سمين .. خصرها كخصر رضيع وقدماها صغيرتان نسبيا وعندما تلبس صندل الجلد وتمشي في الزنقة تحدث إيقاعا رنانا .. طق .. طق .. طق .. يجعل بعض الفتيان الأكبر سنـّا يغنـّون لها :

" بوصندل يزّاوى .. بوصندل يزّاوى .. بوصندل يزّاوى .. خذيت العقل بقولة لا " .

في أيام الثورة الأولى كان أبي وبعض رجال الحلاليق يذهبون إلى المدينة ويعودون منهكين وقد عرقت أجسامهم وتلطخت قمصانهم وسراويلهم وبُحّت أصواتهم .. قبل أنْ يدخلوا حلاليقهم يهتفون بصوت مشروخ : *بالروح بالدم نفديك يا ثورتنا .. ويغنون :" تغيرنا من حال لحال .. وسبحان مغير لحوال .."* ويخبرنا أبي في البراكة والريح تعصف أنه سيتحصّل لنا على بيت صحي جديد من الطوب والأسمنت وبه ماء عذب .. ساخن وبارد .. وبه أضواء مثل أضواء مركز البوليس والمدرسة ومدينة الملاهي .. ثم يهزهز فنار الكيروسين حتى ينطفئ اللهب .

بعد شهور انتقلنا من رأس اعبيدة إلى وطات المحيشي أو حي المحيشي .. منحونا قطعة أرض مسوّرة محفور بها خزان لنتبرز وصنبور ماء لنشرب .. نقل داخلها أبي زينقوا حلاقنا إليها.. قلت له أين الماء الساخن يا أبي ومصباح الكهرباء فصفعني بشدة وصار يبكي .. ثم صرخ فينا بأعلى صوته : *خلاص ماتزيدونيش همّ .. معاش نبي حيشان .. الزعيم جمال عبد الناصر عطاكم عمره .. مات .. مات .*

بعد مُدة مررت من شارعي الشطشاط وبالة قلت ربما رجعوا في رأيهم وأعادوا فتح هذه البيوتات .. وعادت الطوابير الطويلة للاصطفاف دون مشاكل أو دفع وركل فلم أجد طوابيرا .. الرواشن الواطئة مقفلة .. والأبواب تغبّرت وأنتفخ خشبها من ماء المطر والبالوعات .. حاولتُ استجلاء الأمر فلم أجد من أسأل .. بصعوبة وجدت شرطيا قصيرا في الناصية سألته عن الأمر فصفعني على وجهي كائلا لي رزمة شتائم مبهرّة باللعاب .. ابتعدت أبكي وعندما وصلت قرب الفندق البلدي نسيت الأمر واشتريت شطيرة فاصوليا بالكرشة من مطعم سي مفتاح قريتشا قرشتها سريعا ودخلت دار عرض هايتي أشاهد شريط سبارتاكوز .. لم أكمله .. لم أجد بُغيتي .. كله حروب سيوف رماح سواطير دم .. خيول تجري .. مصارعة رجال وأسود .. ضف إلى ذلك البطل يقبض عليه ويموت .. لا أحبّ حياة بطلها يموت .. تركته قبل أضواء النهاية وحجزت تذكرة أخرى في دار عرض الاستقلال.. كان الشريط يختلف .. شريط مصري تهزهز وترجرج فيه الراقصة سهير زكي ردفيها ببطء وتضحك بميوعة .. وبه أغنية *أما نعيمة نعمي .. خلي اعليوه يدلعني* .. والبطل فريد شوقي يضرب رئيس العصابة محمود المليجي طريحة ربّاش القبور ويصفع مساعده الهمبكة توفيق الدقن ويفكك منهما البطلة التي اختطفاها من قطار الصعيد ثم يحلف لها بشرف أمه أنه يحبها ويقبّلها بغجرية في شفتيها فيصفـّر كل من في دار العرض .. أنا لم أصفـّر .. لقد صرخت .

أيام جميلة أتذكرها .. الذكرى تعجبني كأبنائي الشرعيين أو اللا شرعيين.. ربما كانت تعيسة آنذاك وربما أيامنا الآنيّة والتي نحكم مؤكدين على تعاستها جميلة إنْ غطسناها في جُبّ الذكرى كفايتها وتذكرناها بعد أمد .. الذكرى قدّيد الحياة الطري .. الذكرى حسنة الحسنات .. الذكرى ليست ماضٍ ذاهب إنما ماضٍ آتٍ .. هل هذا يعني أنّ المستقبل دائما أسوأ ..؟ والجديد

دائما أوهن.. لكن هناك حلاوة ما .. في كل دقيقة فرح وحزن .. حياة كاملة بكامل تفاصيلها .. في الدقيقة عقل وقلب ونفس وفم وأنف وأذن وعيون ودماغ وأطراف وأعضاء تناسلية وشرج وأحلام .. الزمن مخلوق مثلنا له كيانه .. يعيش فينا كما نعيش فيه .. هو يعتبرنا مكانا ونحن نعتبره زمانا .. والمكان يعتبرنا حياته الحيّة المتحركة ولا يعتبرنا ذاكرة لأنّه ينسى .. ويتقيأ ما علق به من سناج مزمن .

لن أسرد كيف مارست الجنس أول مرّة وكيف أحببت أول مرّة وكيف سافرت أول مرة وكيف دخلت المدرسة وكيف سُجنت .. الخ .. فأنا ليس أنا !! .. أنا هو .. أنتم .. هي .. هم .. أنت .. أعتبر ذلك تقليعات قديمة ملّها الكتّاب والقراء والمدوّنات أيضا .. لذلك سآتي من الآخر .. لأريح وأستريح .. فأنا إنسان قد نسى بداياته .. تنكّر لها .. سأزيح الزمن جانبا .. أنفضه .. وأنشره على حبل مرتخٍ .. وأجذب بمساعدة الجاذبية السفلية بعض تلابيبه .. أعتبرُ ما نلته في المنتصف أروع وأنضج .. يكفي ما حكيته عن بداية ختاننا فهي تلخّص كل البدايات .. علينا أنْ نكونَ حريصين كي لا نختن ثانية ونتألم .. لن أترك مقص عقرب يلدغني مرّة أخرى .. أفرغت رأسي من المفاهيم والمسلمات .. رميت ضيقه في قمامة شاسعة .. القمامة مرضتْ .. ونظرتْ إليّ لائمة وبكت .. دموع القمامة طهارة ملوثة .. تنظف بصرنا .. وتسرّح أنوفنا .. وتهرش جربنا المتكلس .. وتمنح مصل صدق لرياء بكائنا .. أودعتُ إيماني في مقبرة عامة .. أودعته ولم أرمه .. قد أحتاجه عند الضرورة .. فأفتح مقابر روحي وألتحف مومياءات تُدثرني .. تبعد الضرورات عني .. أفرغت رأسي وقلبي ونفسي وروحي وبيضتي وكل مسمى في داخلي قابل للامتلاء .. أفرغت كأس ذاتي من كل شيء .. كسرت قارورة روحي في مصهر زجاج .. أحبّ أنْ أعيش هكذا فارغا لا أتأثر بشيء .. أنهل هذا الوجود على هواي .. أحاولُ تخليق إيماني الخاص .. العقيم من العراجين .. إيماني الذي لا يطمع في أنْ يؤمن به أحد .. إيمان ناقص كامل لا يهم .. إيمان دون كتب أو رسل أو حساب أو مؤسسات .. إيمان حرٌ فارغٌ.. أخلدُ للنوم أنّى أشاء وأستيقظ أنّى أشاء .. أصلي .. أشرب .. أسافر.. ألعب .. أنطط الكلمات بمضرب فطرتي .. وأقذف بنطفي التائهة في أرحام خصبة .. نحن طغاة .. نحن ملوك .. نحن زناة .. لنا نطف تتسكع في أنحاء العالم .. تتسكع عبر الهواء والماء والتراب والنار .. تحاول أنْ تعود إلينا .. تكابد في سبيل ذلك كثيرا .. تنغرز في القبور باحثة عنا .. هي تائهة في ربوع الأرض .. في الصين والمغرب .. في مصر وتركيا .. في البرازيل واسكندنافيا .. في البلطيق وأستراليا وأنغولا .. في درنة وبنغازي .. في صنعاء ومسقط ورام الله .. في البحر والجو .. تكابد كثيرا .. وتنخل ذريرات التراب كثيرا .. فلا تجدنا في أجداث الماضي .. ولا في فَـنَاء الحاضر .. هي لا تدري الغبيّة أنّ نهايتها مرتبطة بنا .. وأنها حيّة بفضل أنفاسنا .. وأننا ما قذفناها سُدى .. وأننا نحاول أنْ نتلاحقها ونعيدها إلى صلبنا .. لنسكبها متجددة وقد اكتسبت مزايا جديدة من طوفانها المستمر .. نسكبها بلذة جديدة .. لذة واهية .. لذة تتعالى معها صرخاتي متوعدة هذا الوجود بإنجاب عُقامة ما .. لا تقتل الحياء والحياة .. لا تُنضب الآبار .. لا تَجتث الأخضر واليابس .. لا تـُعتم الشفاف .. عُقامة صادقة فارغة من الأطماع والأقماع والأصباغ والأوضاع .. ترمي سنابلها الطيبة في أفواه الفطرة .. فتزيدها نُضجا.. ذهبا.. ألقا .. ألق ماسي يضيء دفئنا بالبريق الهادئ.. فأتبين على نور الدفء دربا فاغرا .. يجعلني أفرّ إليه .. بروحي وجلدي ونطفي الباقية في قناني اللذة .

أهرب من المجهول الذي يلدني ..
أبحث عن المجهول الذي يرضعني ..
وإنْ عثرت عليه ..
لا أصدّق أنّه مجهول ..
فالمجهول غير قابل للقبض أو الانثناء أو الاحتواء ..
شيء غير محدد .. غير معروف ..

أعيش على هذا الألم وهذا الأمل وهذا العِلِم منتظرا جحيمي .

العالم يشتري ذاكرته
وأنا أشتري نسياني ..
العالم يبيع نسيانه وأنا أبيع هذياني ..
والذكرى بالنسبة لي ليست الزمن ..
الذكرى أنْ أتطاول إلى جهالات أعرّفها بدون ألـ أو إضافة أو ضمير أو أي من المعرفات المألوفة ..
أتطاول لأمسك حزمة ضوء أو حزمة نار أو كتلة ثلج تشتعل وتفور ..

في مستقبلي الهارب الكثير من الذكريات .. عندما تصلني أو أصلها تعيشني وتتذكر أنها في ذات زمن مرسولة إليَّ ولا أتذكر أنني مرسل إليها .. الذكري في رأسي أنْ أكتب ولا ألتفت ورائي .. ورائي مستقبل أبله يستجديني .. لا أكترث له .. لا أعيره ذريرة اهتمام .. فلن أؤمن بمستقبل يركض خلف رعاياه .

رأسي تتحرك بين الكتب .. تلقف زادها وتمنح الكلمات الجائعة بعض رضى .. هناك الملايين من الكتب الكامنة والمرصوصة في المكتبات .. هناك ما لا يُحصى من الحروف التي يمحوها الزمن .. هناك شيء يبهت كل دقيقة .. شيء يتلاشى .. حبر يذوب .. ورق يتمزق ويتفتت وينتحب .. أركض وراء الكلمات أسعفها بروحي .. أقرأها وأصرخ في آذانها أنّها عراجين ذات تمر وأنّها مُهمّة مُقدّسة معوّلٌ عليها .. وذات رسالة ينوء النخيل بل الكون بحملها .. وأنّها شيء غير قابل للنسيان أو المقايضة .. في الكلمات عمر .. في الكلمات روح .. دم .. نفس .. عقل .. قلب .. جروح .. كبرياء ..
لا تتبخّري أيتها الكلمات ..
أريد أنْ أكتبك هكذا ..
كما تحضرين ..
أحبّ أنْ أخرجك كما تولدين ..
عارية .. حافية .. ظامئة .. جائعة ..
كنخلة على قمة جبل ..
الماء يتركها إلى السهل ..
لكنها تُرى من بعيد ..
كنجمة إنسانية رائعة .

النصوص تقتلني .. أقرأها وأعيد قراءتها عبر معاشي .. أمنحها موتي المؤجل وآخذ منها قرض دقّات .. أتوكأ عليها كلما هدّني الضياع .. أترنّم بها في خلوتي القصيرة .. أرحلُ على مطاياها إلى بقاع وأعماق سحيقة .. كل منا سيضع شيء منه في كتاب .. وسيدور هذا الكتاب .. بين المكتبات والأرصفة والبلدان والعقول والقلوب والنفوس والجوّانيّات .. وربما يحترق في ميدان عام .. أو يُرمَى بمتنه في زبالة نتنة .. ونرى مصيرنا نحن الموشومين ضمن كلمة .. نحن الحرفُ المنقوش في ضمير المعنى .. لا نتبخّر أو نترك دفئنا .. لا نهرب ولو احترق الكتاب .. لا نبتعد ونترك الدفتين تتألمان على فراغهما وتندمان على زمن احتوائهما لنا .. هما صحيح أغلظ من فراش أوراقنا .. هما صحيح العمق المباشر للألم .. غير أننا لنا رمادنا ووسمنا ولطختنا في دوامة الصمت .

لا .. لن أهرب .. لن يرهبني ظلام الظلام .. فنحن النور والتنـوّر .. سأظل منقوشا في ورقة .. تاركا مصيري للأزمان.. سأحكي .. سأبوح .. سأعترف بأشياء أحبّها وأكرهها .. سأحكي عن نادٍ عشقته .. يجعلني أبكي كلما دخل فيه هدف .. أشعر أنّ الأهداف الداخلة إلى مرمانا أيور تضاجعني .. لم أفهم الرياضة بموضوعية .. منذ صغري تربيت على أنّ الصراع حياة أو موت .. جنة أو نار .. أبيض أو أسود .. الوطن لن يُحتل أو يُهزم ولو هوجم من يأجوج ومأجوج وبقنبلة المسيخ الدجال الجهنمية .. الشعب المسلح غير قابل للحصار للتجويع للهزيمة .. ثلث قرن وإعلامنا لا يزغرد إلا عن الحرية والاستقلال والعزة والكرامة والإباء .. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة .. لا مستحيل .. المهم الإيمان والعزيمة والإرادة والإصرار والتصميم والصمود والاقتحام والنضال وتسكير الرأس .. ولا نخاف من الأكبر سنا أو الأقوياء .. وإيه يعني فريق البرازيل أو فرنسا أو أمريكا .. طز .. طز .. طززززززززز.. وأنتِ وأمك زيطي في الرز .. إحنا قلنا لأمريكا طز .. والهزيمة دائما في ملعب الغير .. نحن فرسان أبطال صناديد مغاوير .. نحن منتصرون على كل ريح وبيش ما يـبّوها .. وعمرها ما تبات فينا .. نحن ما فيش منـّا .. والآخرون مش قدنا صقع عليهم .. حدث مرّة أن ابن الجيران شجّ رأسي بحجر دون قصد فمنعني أبي من دخول البيت حتى أشجّ رأس ذاك الولد .. لم يقتنع بالعفوية والقضاء والقدر وبأنني سامحته ولن أغدر به .. قال لي: الدم .. الدم .. لازم تسيّل دمّه .. وتربّصت به وغافلته ورميته بالمقلاع .. المسمار لم يُصِبْ رأسه أصاب جبهته وكادت عينه تعور.. منذ صغري تربيت على هكذا مفاهيم .. نحن الكل في الكل أبدا .. نحن الحق وغيرنا الباطل .. نحن الصح .. نحن الفائزون أبدا ودائما وإلى أبد الأبد .. حتى عندما فتشت وراء أبد الأبد وجدت فوزا مختبئا فأخرجته نكاية في أحلامنا الطوباوية..

عندما تدربت في فريق كرة قدم قال لنا مدربنا البدوي أبو شنـّة .. أي لاعب من الفريق الخصم يدخل منطقة الجزاء.. أريده في مستشفى الجلاء .. دقدقوه .. ريّشوه .. دوسوه .. افرموه .. اعتبروه مجرما قفز داخل بيتكم يريد أنْ يغتصب أخواتكم .. كنا نهرّس ونكسّر ونبصق ونركل ونلكم كل من سوّلت له رشاقته وسرعته وقوته ومهارته الاقتراب من منطقة الـ ١٦ ياردة .. بل الطوارئ يبدأ من دائرة المنتصف .. وحكم المباراة يجب أنْ يخاف ويُتوعد ويُصفع ويُلعن ويُذكّر بأطفاله وزوجته وسيارته الجديدة .. دائما هذا المدرّب طريقة لعبه كطريقة أمريكا .. ميكافيليّة لا تتغيّر أبدا *.. اللي تفوز بَه العب بَه ..* أهم شيء نقطتا المباراة .. أهم شيء الزبدة .. البترول .. الأخلاق في المدرسة والبيت والجامع وليس في الملعب مفهوم .. الكرة حرب لا أخلاق ولا شرف فيها .. ونـُطرد بالبطاقة الحمراء وننسحب من الملعب إنْ احتسبت ضدنا ركلة جزاء .. ونعتبر البطاقة الحمراء والانسحاب أوسمة شجاعة وشرف .. هكذا هي كرة القدم كما أرضِعت وغـُرّتْ لي .. حرب ضروس شرسة لا هوادة فيها .. ذات مباراة كنت احتياطيا لأنني تغيبت عن التمارين وكان في فريق الخصم لاعب خطير في قمة تألقه اسمه ماشاالله .. شكـّل خطورة كبيرة على مرمانا .. بل تجرأ ومرّر الكرة (دحيّة) من بين قدمي قلب الدفاع الحاج مراجع صهر المدرب مضحكا عليه الجمهور .. صفـَقَ بوشنة يديه وبصق ولفّ خرطوم النرجيلة حول الزجاجة ثم رقص حاجبيه قائلا صبّي سخـّن يا بطل .. ماشاالله هذا أريده لا حول الله .. في الحكيّة مباشرة .. ماذا أفعل له .. من أول التحام تركت الكرة ورفست بقاع حذائي في علبة ركبته .. صرخ عاليا ونـقلته سيارة الإسعاف.. بعد المباراة دعا الحاج مراجع الفريق للعشاء علي جدي أسود مبقع وصندوق بيبسي كولا.. وخصّني بالخصيتين وحبّة القلب مشويّات على فحم البطوم البائلة عليه ذئبة ..

النادي الذي أشجّعه .. أريده أنْ يفوز .. لا أريد لأي فريق أنْ يضاجعه .. شبكة مرماه سروالي .. ألبس ألوانه وأعلـّق شعاراته في غرفتي وعلى كراريسي وأختار لونه لسيارتي وحقيبتي ولروب زوجتي ومصباح غرفتي وشمعتي ولباب بيتي وقلامة أظافري .. أعتـز بلاعبيه ولا أحتمل فيهم

شيئا .. أقارنهم بل أعتبرهم أفضل من ماردونا وزيكو ورونالدو وزيدان وبيليه .. أحبّ كرة القدم .. أحبّ هذا النادي العريق .. أحبّ أنْ أمنحه كلَّ شيء .. أحبّ أنْ أتبرع له ولا أتبرع للجامع .. أحبّ أنْ أتزوّج انتصاراته ولو كانت مومسات.. أحبّ أنْ أشرب في كؤوسه رحيق الهناء .. وألبس قلائده في ليلة عرسي .. أحبّ ابن صويد والمكي والعفاس والبشاري ومرسال وونيس خير ومحبوب والبرناوي والزاوي والحشاني وحنطوشا والفزاني والخطيطي وبن صريتي وخميس الفلاح ومفتاح هولة ومفتاح الفسي وبن عيسى بالرزق ورمضان الفرجاني وفتحي قريرة .. لا أحبّ الفيتوري لأنه غادر للنصر .. لا أحبّ حسين العرج لأنه غادر للتحدي .. لا أحبّ عبده صالح الوحش لأنه غادر إلى قناة $\tau - \rho - \alpha$ .. لا أحبّ أحدا يترك ناديّي حتى وإنْ لم يشركه المدرب في المباراة .. حتى وإنْ وضعوه خفيرا على باب النادي أو بستانيا يسقي ويشذب نجيل الملعب .. أنا جزّار وفيّ مُدمن مهوّوس بحبّ أهلي بنغازي الموقوف عن اللعب حاليا.

* * * * *

أبصق على هذا العالم الجميل .. أبصق عليه بألواني البيضاء اللزجة .. أدهن يباسه .. أطرّيه لأتمكن من التفاهم معه .. لأجعله يولدني من جديد .. أريد أنْ أرى الشمس .. والقمر .. والنجوم .. والبحر .. والناس .. والدواب والحشرات .. والجنون .. كل تلك الأشياء رأيتها قديما .. شبعتُ منها رؤية .. لكن .. لا أذكر أول رؤية .. لا أذكر أول لمسة .. لا أذكر بكارة حواسي .. ذاكرتي أين .. أعصرها وأجدُ عطشا .. مُحِيتْ من خلاف .. بقت نسيانا متمردا .. أتألم فقط .. وتكوِي نيران الذاكرة أصابعي .. فلا ألمس .. لا أكتب .. لا أصكك ولا أحكك .. لا أفعل شيئا .. أجول في شوارع المحيشي المحفرّة المكتظة بالنفايات والغدران والذباب الهارب من البعوض .. على رأسي قفّة سعف مليئة بالمواعين .. أصيح آيي امواعين امّواعين .. سفر .. صواني .. تباسي .. براريد .. محابس .. غرابيل .. اشترى بضاعتي البسيطة من دكاكين سوق الجريد أو شارع بوغولة .. الحاج رمضان قصيبات يبيعنا البضاعة نقدا وبالآجل .. وكلما نعود والقفة خالية يبتسم ويسبح الله .. ويملأ لي القفة من جديد .. أنطلق إلى شوارع المحيشي .. كل البيوت متشابهة .. قطعة أرض مسوّرة بها مرآب بباب حصيرة حديد وباب البيت خشب ومن الداخل لا بناء .. كل أسرة بنت براريكها بالزينقو واللوح .. البيت الكبير أعلاه أربع مستطيلات من المشربيات والصغير به ثلاثة فقط .. البيوت من نفس اللون الطيني .. نفس المساحة .. نفس خزان المياه السوداء وصنبور المياه الشفافة .. قبل أنْ تمد البلدية أنابيب المياه إلى البيوت خصصوا في كل ناصية صنبورا غليظا يملأ منه الناس براميلهم وقللهم وجالوناتهم وبانقاتهم ومنهم من يمدد منه أنبوبا بلاستيكيا حتى البيت .. كثيرا ما وقعت المشاجرات بسبب الماء .. كثيرا ما انقطعت المياه عن الصنبور .. لكن كل المشاكل تُحلُّ بطريقة وديّة .. شيخ كبير يصرخ صلـّوا على النبي يا عرب .. فيصمت الجميع .. فيقول كلمته السيف التي ترضى كل الأطراف..

الأعراس كانت بهيجة .. الأرز والكسكسي فيهما وفيران واللحم مازالت رائحته عالقة في ذائقتي .. والعصبان الكروي الفائح الملفوف بشبكة من الأسلاك يقدم مع وجبة العشاء .. كنت أستلذ بتفكيك السلك عن العصبانة .. أفككه بطريقة تجعله منتظما .. غير متشابك في بعضه .. ومن ثمّ أتركه في الشمس يجفّ من الدهن ثم ألففه حول بكرة خالية .. هذا السلك المطبوخ يكون قويا جدا .. وعندما استخدمه في طيارتي الورقية .. يجعل الطائرة ثابتة غير جائعة تصلها أحلام الدهن ودسامة السلالات .. فتقاوم الرياح والدوّامات وترقص بانسيابية في رشاقة الفضاء .. فأتخيـّلها عروسي .. عروس ذاك العرس الذي حضرته وشبعت من أرزه ولحمه وعصبانه ..

عرس فتاتنا الصغيرة .. التي تزوجها فقيه معمم متخرج من معهد البيضاء الديني .. والتي غنينا عليها" *نور العين قالوا زوجوها .. لبدوي من البيضاء عطوها* " .. كانت فطيمة مازالت صغيرة .. تلعب معنا .. تقاسمنا لُبانها وكعكها .. جسمها سمينا بعض الشيء .. نهداها لم يبرزا كفاية .. تجالسنا طويلا على مصطبة بيتهم وفي ناصية الشارع .. نصحبها حتى المخبز والبقال .. تحكي لنا حكايات شيقة سمعتْها من جدتها في البر عندما مكثوا هناك لحصد الزرع .. أجمل حكاية تهمس لنا بها هي حكاية عريس وعروس .. لعبتها مع ابن خالتها في البر ولم تتم اللعبة حتى النهاية لأنّ جدتها نادتها في لحظة الصفر وحذرتها وأخبرت أمها بالأمر فهددتها بحك الفلفل وقلّة السماح وها هي ستلعبها في الواقع.. وتحت مرأى الجميع.. ومباركة كل الشرائع والأعراف وطناجر الأرز وكساكيس الكسكسي وقدور الأرز.. في يومين تمّ كل شيء .. نصبوا خيمة مزركشة .. بيت قماشي ظهره أبيض كقبة ولي وأروقته رقاقيع غير منتظمة ذات ألوان فاقعة.. وتصاعدت اللعبة .. وعند المغيب تعشينا العشاء الأخير .. قديستنا البريئة ستغادر الليلة .. طهارتنا ستدنس .. شرايينا ستراق .. بعد صلاة العشاء حضر رتل من سيارات الأجرة ذات اللون الأبيض والأسود تبوّق بإزعاج وعلى جوانبها عُلقت بالونات صغيرة ملونة هاجمها الصغار مفرقعين معظمها .. اقتادوا فطيمة إلى سيارة المقدمة .. أخرِجَت من البيت ملفوفة في فرّاشية بيضاء .. تصحبها الزغاريد والدعوات والبكاء ولعناتنا .. أركبوها في الكرسي الخلفي المستورة نوافذه ببطانية حمراء بمربعات صفراء وزرقاء تسمّى أكليم .. والآن من أصَاحب ؟.. بكيتُ كثيرا بعد أنْ غادرت .. ومع الأيام سكت البكاء ونسيتها .. لم أرها إلا بعد سنوات .. التقينا صدفة في مستشفى الأطفال .. طفلان يصحبانها .. ولد وبنت .. تباسمنا .. تصافحنا بحرارة وحاولتُ مداعبة الطفلين .. أدم وحواء .. لكنها تأخرتْ خطوتين وغمزتني فزوجها المعمم لاح في أقصى الدهليز .

أبي فتح دكانا للملابس والأحذية .. يجلب البضائع من تجار سوق الجريد .. يبيعها للجيران .. أكثرها بالآجل .. آخر الشهر يسددون .. ومنهم من لا يسدد .. فيتشاجر معه أبي بالكلام والقبضات .. ولا يمنحه بضاعة مرّة أخرى .. ويشكوه لوجهاء الجيران .. حتى يدفع دفعة من حسابه في الشهر القادم .. أحيانا يأخذني معه إلى سوق الجريد وشارع بوغولة وسوق الظلام .. نتجوّل داخل شارعه الطويل المبتدئ من الفندق البلدي والمنتهي في ميدان البلدية .. عالم جميل من المتعة البصرية والسمعية .. أتمتع بمشاهدة الناس بسحناتهم وملابسهم التي لا تتشابه .. أستمتع بضجيجهم ولكناتهم خاصة عندما يختلفون ويتخاصمون .. السوق مزدحم .. ليبيون من البادية والمدينة .. سودانيون .. مصريون .. أوروبيون .. أسيويون .. باكستانيون وهنود يلففون على رؤوسهم لفافة كثيرة الطيّات في وسطها جوهرة فالصو لامعة .. المحلات تبهرني .. محلات فاخرة جديدة تبيع بنطلونات الدجين والبلّوتي والتريقال وقمصان الصوف والكتان وأحذية الكعب العالي .. تضع على واجهاتها لوحات مضيئة خطها الخطاطون الهايف والعمامي والمقصبي.. محلات تربح .. البراني .. بوجازية .. بالتمر.. بووذن .. لنقي .. شبش .. مخلوف .. البيرة .. بن كاطو .. العصاوي .. الطرابلسي .. محلات ومغازات كبيرة تبيع كل شيء .. ملابس أحذية بطاطين أقمشة ذهب فضة .. مطاعم مقاهي ورش تصليح ساعات .. معاهد لتعليم الضرب على الآلة الكاتبة بطريقة اللمس .. كان أبي يشتري لي الباقلاوة من حلواني بوعشرين .. ويتركني بجانب صناديق البضاعة أحرسها من اللصوص وعساكر سوسة .. نهاية النهار يكون أبي قد جمّع كل بضاعته فنكتري كارو بحصان أو سيارة بيجو خيمة نصف نقل تنقلنا إلى المحيشي حيث البيت ومرآبه المحوّر إلى دكان .. كثير من أصدقائي أدرس معهم في مدرسة بورحيل الابتدائية .. خطاب الدهماني.. صالح التاورغي.. مصطفى العقوري.. سعد المهدوي .. علي العمامي.. رافع بوصاع .. محمد بوعزّة .. مفتاح الطويل .. خليل بالراس علي .. أحمد بريك .. مصطفى المهدوي .. مفتاح الزاوي .. عوض بالأشهر .. عبدالله النايلي .. طاهر الورفلي .. أحمد الدقلي ..عبدالهادي بالراس علي .. محمد المستر .. عوض .. إبراهيم .. رمضان .. كنا صغارا في الصف الثالث الابتدائي نبني ذكرياتنا بطوب لا يبهت .. ذات عشية كنت عائدا وأحمد الدقلي من المدرسة ..

عرجنا على بيت جدته الهرمة .. بيت صغير تتوسطه براكة واحدة .. وجدناها تطبخ رأس خروف .. منحتنا حنكي الخروف والدماغ .. بعد أن التهمنا لحم الحنكين واقتسمنا الدماغ .. كل واحد احتفظ بعظمة الفك الشبيهة بالمسدس .. وقفنا أمام السينما وصوّبنا مسدسي العظم إلى ملصق الفيلم والذي كان فيلم رعاة بقر بعنوان *رينقو لا يرحم* .. صرخ أحمد : "*الدقلي لا يرحم لا يرحم* " .. وشرع يفرّغ مصدرا أصوات طلقات من فمه طاف طاف وفجأة لاح أستاذنا المصراتي الملقب بالعضيض فرمينا الفكين في برميل القمامة وهربنا .. هذا الأستاذ لا يعاقب التلاميذ بالعصا إنما بعضّة عصبية في الكتف أو الأذن أو الورك .. في اليوم الثاني خفنا من العض فعكّسناها (غبنا) مختفين في جبانة سيدي يونس .. وفي اليوم الثالث بدأت إجازة نصف السنة .. بعد الإجازة لم يعضنا ربما نسينا وربما شبع عضا في بيته أثناء العطلة .

بعد الدوام نشاهد المباريات التي ينظمها المدرسون مع الطلاب الكبار .. كان فريق أستاذ الحساب العصبي جدا علي الحوري من الفرق القوية .. كذلك فريق الأستاذ علي الكاديكي ذي القاطعتين الذهبيتين والطول الفارع والجسم النحيف .. بعد الحصة السادسة تقام المباراة في الحديقة القريبة من المدرسة والمقابلة لسوق العبيد .. مكان الملعب الآن مكب زبالة .. ينظفه الإنسان عبد الوهاب كل أسبوع.. ولعبد الوهاب هذا حكاية متخيّلة سنتناولها إنْ ألحّت كثيرا .. وها هي تلح .. عبدالوهاب من سكان المحيشي القدماء .. لا أحد يعرف قصته بالتحديد .. شخصية طيبة جمعت حولها الكثير من الغرابة والغموض .. ليس مثل بوسعدية أو أم قطمبوا أو شاراوبّي أو شركة أو غيره من شخصيات بنغازي التراثية.. عبد الوهاب له خصوصيته .. له علاقة بالحبال الأفقية .. والتنظيف والتعرّي والتجفيف والكي .. إنسان بسيط محبوب من الصغار والكبار .. لا يتكلم مع أحد .. بني آدم في حاله.. ككل بشري غارق في إنسانية لا تخنقه .. حكايته المتخيلة تقول : قبالة مدرسة البنات بيت صغير ، تتراكم أمامه الأحجار وأكوام الخردة ، بابه لا يكاد يرى من اكتظاظ النفايات ، كثيرا ما شوهد عبد الوهاب وهو يربط برميل أو طنجرة على كرسي دراجته الخلفي . وما أنْ يصل حتى ينزل الحمولة برفق ويركنها جانبي البيت .

مع الأيام تضخمت الأكوام ، وتقدمت تضيق الطريق ، وإذ لاحظ نظرات العتاب من الجيران صار يركنها فوق سطح البيت ، فارتفعت تنافس ارتفاع المباني المجاورة !!..
البيت غير موصول بالكهرباء ..غير أنّ الماء واصلة بلا شك .. فإبان كل خروج كان يرش عتبة الباب من إبريق معدني مطعج .

مذ كنت تلميذا في الثالث الابتدائي وأنا أراه ممتطياً دراجته .. يمخرُ الأزقة والشوارع جامعاً ما يصادفه من خردة .. الفعل الذي ما توقف عنه قط هو رحلته شبه اليومية إلى سوق الغلال لجلب أربع حزم برسيم .. أحياناً راكباً دراجته وأُخر ماشياً بجانبها وراحته اليسرى تربت على كرسيها وكأنه ظهر جواد .

أسبوعياً يقوم بحملة لوحده ، فينظف الشارع من أدناه إلى أقصاه مكوماً جبل نفايات يحرقه في مكب الحديقة القريب من الجامع . وما إنْ ترتفع ألسنة النيران حتى يشعل منها لفافته ويظل ينفث مراقباً المشهد إلى حين خمود النار .. آنذاك فقط يلتقط عرجونه وجاروفه ثم يعطس ويدخل جاذباً مصراع الباب خلفه .. ثلة من المعلمات يتشمسن أمام مدخل الإدارة .. يراقبن السيارات المارة في الشارع ببطء .. بين الفينة والأخرى يخرج عبد الوهاب من بيته يجول ببصره في الأرجاء .. يتأمل الركام .. يزيح حجراً مغيراً مكانه الاعتيادي .. بعد هنيهة يتراجع .. فيعيده حيث كان ..
المعلمات ساكنات المنطقة لم يعرن الأمر أهمية ، تعودن على عبد الوهاب وتصرفاته ، كثيراً ما تطرقن إلى حياته الخاصة ، وحاولن سبرها وفلسفتها ، لا أحد يدخل أو يخرج إلى ومن بيته غيره . !

طرحن آلاف التساؤلات وافترضن ملايين الأجوبة ، في هذا اليوم اقترحت فاطمة على حليمة المنقولة حديثاً إلى المدرسة ، والتي فاتها القطار وبأعجوبة تزوّجت من سباك لكنه غرق بعد أسبوعين في بالوعة قرب البحر .

- لو لمِمتِي هذا الإنسان لكسبت أجره .
- اسكتي أنا المحتاجة إلى لَملمة يا فاطمة .

قرع جرس نهاية الإفطار وانفض الملم وبدأت الحصة الرابعة وحليمة تبيض يسار السبورة بالطابشير الرديء ، عيناها تحملقان عبر النافذة إلى تحت ، حيث عبد الوهاب جالساً على حجر يصلح زنجير دراجته المرتخي كتكة جائع .

أنهت حليمة كتابة الدرس وطلبت من التلميذات قراءته في السر ! وحاذت النافذة المشبكة بشباك (عين الزرزور) مطلقة أعنّة بصرها وخيالها على كل عبد الوهاب القالب دراجته على ظهرها ، كرسيها ومقودها على الأرض ، عجلتها إلى الأعلى ، صار يجرب جودة الزنجير مدوراً الدواسة بيده عدة مرات ، العجلة الخلفية تدور بسرعة حتى ما تكاد ترى ، عبد الوهاب يبتسم للعجلة ويسكب من المزيتة قطرات على ترس الزنجير ، حليمة تبتسم لعبد الوهاب عبر النافذة المشبكة بعين الزرزور . رذاذ مطر بدأ يتناثر على الشباك ، عصافير طارت من المكب اتقاء وثبة قط .
حليمة ما برحت النافذة حتى رش عبد الوهاب العتبة بإبريقه المطعج واعتلى دراجته منطلقاً لإحضار حزم البرسيم الأربعة من سوق الغلال .
فجأة ودون مقدمات اختفى عبد الوهاب .. يومان .. ثلاثة .. أسبوع .. لا رائحة تفوح من البيت .. كثرت الأقاويل بين الناس .. يقولون .. جرذ كبير عضّه .. عقرب متوحشة لدغته .. شد الرحال إلى مكة على ظهر عفريت .. نزيل في مستشفى المجانين .. استعانت به الجامعة العربية لحل قضية فلسطين .. يزور سيدي عبد السلام الأسمر تستور .. إلخ .

ذات صباح حضر أناس فتحوا باب البيت وأخرجوا ما بداخله من أشياء .. كتب .. خرائط .. أواني .. تماثيل .. جرار .. براميل .. علب مملوءة بعملة معدنية ملغاة .. صور لفنانات معتزلات ومقبورات .. صور لزعماء ورؤساء وملوك وسلاطين وأمراء أكل عليهم الدهر وشرب .. أشرطة كاسيت .. اسطوانات غنائية وغازية .. حملوا ثلاث شاحنات وجاءت رابعة لتحميل محتويات السطح .. وجرفوا الركام من أمام البيت بواسطة جرافة ثقيلة .

صار البيت نظيفاً والشارع اتسع ، والباب يُرى دون صعوبة ، أين عبد الوهاب ، أين ؟ أين .. أين؟! لماذا لم يرافق القوم؟! نظرت فاطمة القلقة إلى حليمة الحزينة .. منذ سنين لم يحدث هذا الأمر .. ولا أتذكر أنه حدث أبداً .. أليس أنتِ منْ دبّرَ سرّ الاختفاء؟ .. أنت الجديدة في المدرسة ؟! .. أليس أنتِ منْ قالت لو تزوجته سأرمي كل الخردة بعيداً .. حليمة .. اعترفي أين عبد الوهاب ؟

- أنا .. أنا .. لا تسيئي بي الظن .

وانتهى الخلاف إذ ظهر هذا التو عبد الوهاب ، يمشي مطأطأ الرأس ، دراجته مفشوشة الإطار ، لم يتجرأ أحد ويسأله ، ربما يكون مراقباً فيتورط سائله .. اكتفى الجميع بالمتابعة البصرية .. كان حزيناً وكأنه فقد عزيزاً غالياً .. أوَليس ركام العمر عزيزاً غالياً .. ما تجمعه النملة في عام يحمله الجمل في خُفّه ! ..
دخل وأدخل دراجته معه .. بعد قليل شوهد فوق السطح يصفق يديه حسرة ويتأمل المباني المجاورة عديدة الطوابق .
يرتفع الآن آذان الظهر ، يرن جرس نهاية الحصة ، يخرج التلاميذ والتلميذات مرحين ، يزدحم الشارع بالخلق ، يفتح عبد الوهاب بابه ، يرش عتبته من إبريقه المطعج ثم ينطلق على دراجته ..

كل نصف ساعة يعود محملاً ببرميل أو طنجرة أو منضدة عرجاء أو شق رحى .. يركن الحمولة جانبي البيت ويعيد الكرّة .. فعل ذلك عدة مرات .. بعد شهرين تقريباً أعاد البيت كما كان ..

قالت فاطمة : الذين داهموا البيت رجال شرطة سريون .

قالت حليمة : بل رجال نظافة علنيون .

قالت فاطمة : وهل البلاد نظيفة حتى يشغلهم بيت عبد الوهاب ؟!

قالت حليمة : عموماً اخفضي صوتك فللهواء آذان .. المهم أن أوهيبة عاد وقلدتها فاطمة بخبث : المهم أنَّ أوهيبة عاد !

تسارعت وتيرة الأحداث .

حليمة صارحت فاطمة .. فاطمة صارحت المدير .. المدير كلّم شيخ الجامع .. الشيخ كلّم الخباز .. الخباز كلّم الحرس البلدي .. الحرس البلدي كلّم مختار المحلة .. مختار المحلة كلّم شرطي المرور .. شرطي المرور كلّم شرطي المطافئ .. شرطي المطافئ كلّم وزير الزراعة .. وزير الزراعة كلّم بائع البرسيم .. بائع البرسيم صارح عبد الوهاب .. عبد الوهاب سكت .. أهل حليمة سكتوا .. حليمة زغردت .. البيت مقابل للمدرسة .. سأوفر ثمن المواصلات .. سأمنع عنه البحر والاقتراب من البالوعات .. سأحممه بنفسي في طست أمام ناظري .. سأوقف حملته الأسبوعية لتنظيف الشارع من أقصاه إلى أدناه .. سأمنعه من التدخين والعطس .. لن أسمح له بجمع الخردة والنفايات .. لا .. لن .. لن .. لم .. ليس .. ما .. لا يجوز .. قالت فاطمة على رسلك .. على رسلك .. أنا فرحانة لك .. أحبك أن تسعدي مع زوجك مثلي .. لكن لا تندفعي .. لا تسبقي الأحداث ..
زُفت حليمة إلى عبد الوهاب .. في الضحى رش العتبة بماء من إبريقه المطعج ثم استوى على متن دراجته قاصداً سوق الغلال .. هذه المرة عاد ومعه خمس حزم برسيم !!

نترك الآن ومكب زبالته ونعود إلى أيام زمان حيث الحديقة كانت ملعب كرة .. تتبارى فيه فرق المدرسين والطلبة .. كل ظهر يلعبون بكرة نطاطة .. كلما تبتعد خارج الملعب نركض وراءها ونعيدها إلى الملعب .. نسلمها للاستاذ على الحوري بالذات حتى لا يشلطنا على سيقاننا في طابور الصباح .. الكرة ليست من جلد .. من مطاط بلون الطين .. ثمنها عشرين قرش .. لا يستطيع أي تاجر أنْ يرفع ثمنها فوق العشرين .. ألعاب جميلة يقدمها اللاعبون .. اللاعب الماهر فتحي الزليتني والذي غرق في بحيرة المجدوب وبكاه كل أهل المحيشي.. المتألق المراوغ خليفة العمامي شرندا .. والمبدع ذو الخُلق عياد الترهوني المدهدش .. وحارسا المرمى الرشيقان إبراهيم قاجوم وخليل العبيدي .. مباريات جميلة استمتعنا بها .. ومشاجرات بين الأساتذة والطلاب .. وبين الأساتذة مع بعض .. أستاذ بشير القداري يعاتب أستاذ الحساب سليمان لأنه يضيّع الفرص .. وأستاذ الجغرافيا عاشور يترك الملعب محتجا على الحكم .. بينما أستاذ التاريخ حمودة نجم يطلب الهدوء من لاعبي فريقه ويواصل المباراة بأعصاب هادئة .. كنت أذهب مع رفاقي للزردة في مغارة الجخ ونتجاوزها لبحيرة المجدوب العميقة الخطرة ذات الماء العذب الثقيل الممزوج بسافي بُنيٌّ يحجب الرؤية .. هناك الكثير من الصغار يُجيدون السباحة .. عمر جحا يقفز من أعلى جرف في البحيرة إلى قاع المجدوب ويغيب تحت الماء زمنا حتى نقلق ونظنه غرق فيطل نافضا شعره الملتوي الكث مواصلا عبور البحيرة إلى الضفة الأخرى .. يقول لنا لن تأكلوا الأرز واللحم في مأتمي .. أنا لي سبع أرواح .. أنا ضد الموت .. أنا ضد الفناء .. أنا بقاء ضاحك .. باق على قلوبكم يا لئام .

ذات عشية انقلبت شاحنة وقود في شارع رئيسي بالمحيشي .. وكان السائق وقريبته الشابة محصورين في قمرة القيادة .. والوقود يسيح من خزان وأنابيب الشاحنة .. كل الناس تتفرج .. تخاف الأقتراب من الشاحنة وانقاذ من في القمرة .. فالنار قد تشب في أي لحظة .. وحده عمر جحا خاطر بحياته .. أعتبر الشاحنة قاع بحيرة المجدوب .. قاع مبلل لن يحرقه .. لأنه يقوم بعمل إنساني نبيل .. غامر .. وبصعوبة زحف إلى جوف القمرة وأخرج كل من فيها من مصابين وأوراق ونقود .. عمر هذا قصته طويلة .. يحتاج إلى كتاب لوحده .. تعلم السباحة على شاطئ الكبترانية قرب الميناء .. يراهن أولاد الفويهات في الغطس .. أحيانا يخسر وآنذاك يفتعل معهم أي مشكلة فيلوّث لهم ملابسهم الفاخرة بالقطران .. وعندما يشتكون لأول شرطي أو رجل كبير .. يهرب جحا إلى جهة شوارع فياتارينوا والعقيب وقصر حمد وسوق الحشيش ليجد نفسه بعدها داخل مملكته الفندق البلدي ونواحيه حيث لا يجرأ أحد على ملاحقته في زحام البؤس..

بعض حسّاده يقولون أنّه بدأ حياته العملية بالسطو على فترينات دكاكين سوق الجريد وقت القيلولة حيث أصحابها يتغدّون ويقيلّون .. يكسر الزجاج ويلم الملابس أو الأحذية المعروضة في جوال بوخط ثم يغيب في زحام الفندق البلدي .. وبعد أيام يفرّش بالبضاعة على بسطة في سوق التركة القريب من الفندق البلدي - والذي احترق فيما بعد - ليروّجها بثمن بخس .. عمر جحا متأثر بعروة بن الورد .. يقول عن تجار السوق أنهم يربحون كثيرا ولا يحمدون الله ولا يدفعون ضرائب لدولتنا الفتيّة أو يخرجون زكاة .. وعندما ينقص شاب راقد ريح ربع جنيه من ثمن السروال يرفض التاجر التنازل عنه ويركل الشاب المسكين خارجا فهل من المعقول أنْ يظل شبابنا الذين ينقصهم ربع جنيه عُراة حفاة .. هذا ظلم .. هذا استغلال .. ما قالش بيه ربي .. تريبيشهم حلال .. حلال .. أفعل ذلك كلما أتِيحَت الفرصة .. أنا لا أسرق بالمفهوم التقليدي .. أنا أوزّع .. أخذ من الذي عنده وأعطي من ليس عنده .. أبيع البضاعة بثلث الثمن .. وما تبقى بالربع فقط .. يلا يا عويلة بوّجنا .. بضاعة رخيصة .. بلاش .. بيش ما تقول تاخذ .. حتى بالآجل تفضلوا .. فرصة .. أكازيون .. آخر قطعة .. آخر كندرة .. آخر سروال .. آخر قميص .. آخر كلوت .. آخر حزام .. آخر شيشة.. وأحيانا يقوم صحبة أصحابه بغارات على دكاكين ورحبات الخضروات والفواكه داخل الفندق البلدي وما يجمعونه يبيعونه ليتمكنوا من دخول السينما في المساء أو الزردة على شاطئ بحر توريللي .. حيث يعدون (الشرمولا) ويأكلون بعدها الدلاع والبطيخ .. أحد أصدقائه متدين قليلا يقول لا آكل الحرام ويرفض الأكل .. فيضعون له جلف الدلاع في فمه بالقوة حتى يكاد يختنق .. وعندما يتذوق حلاوة الدلاع والبطيخ يقنعه جحا بتكملة الوجبة لأن الحرام مثل النار قليله حارق وكثيره حارق .. وتنتهي الجلسة بالضحكات .. ولجحا أصدقاء كثيرين من الحواتة الذين يصطادون بواسطة الجولاطين (مفرقعات) .. دائما يستعينون به في حراسة معداتهم وتنبيههم إن اقترب شرطي أو بصاص .. وعندما يفرقعون الوجه ويجمعون حوتهم يتركون له الحوت الرقيق من سردين ومرجان وبوري يضعه في بروبطته الحديدية ويبيعه لأحد مطاعم الحرايمي أو الفندق البلدي الكيلو بخمسين قرش والذي لا يباع يعود به إلى البيت تطبخ منه أمه وتوزع بعضا منه على الجيران .. أيام جميلة عاشها جحا على شواطئ بنغازي صحبة أصدقائه .. أكل وشرب ولعب ومغامرات وخاصة عندما يجتمعون على شاطئ المنقار الكبير الخاص بشباب حي المحيشي يثرثرون ويتبادلون وجهات النظر حول كرة القدم والحياة وآخر العشية يعودون إلى حي المحيشي مشيا على الاقدام مخترقين رمال اللثامة وسبخة سيدي عبيد وحي السلام وسيدي يونس ليجدوا أنفسهم في وسط حى الحيشي حرف سين يمرون على صديقهم بطل الأثقال جمعة الديجاوي وصديقهم الطيب مصطفى القميستا يغسلون أطرافهم ورؤوسهم على صنبور الماء أمام البيت ويشربون بعض الشاي المنكه بالنعناع ثم يواصلون طريق عودتهم إلى المحيشي خلف سينما الفردوس .. أحيانا يواصلون يومهم في حرف سين إن كان هناك عرسا لأحد الأصدقاء فيمكثون فيه يتعشون ويغنون ويرقصون ويفرفشون ويبيتون وصباحا يعودون إلى وكر الشقاء الفندق البلدي وبحر الشابي وتوريللي وهكذا هي حياتهم طيلة شهور الصيف البنغازي

الجميل .. أحيان لا يذهبون إلى البحر في العشية ويذهبون لحضور تدريبات فريق السواعد أو حضور مباراة لإحدى فرق بنغازي ضد فريق من طرابلس أو من إفريقيا .. وفي الملعب يشجعون ويغنون بجنون ويرقصون واقفين على حافة المدرجات عراة من ملابسهم العلوية .. وذات مرة صعد جحا إلى قمة عمود الإضاءة الكهربائية في الملعب وعلق هناك علم ليبيا .. فعل ذلك عندما سجل اللاعب فوزي العيساوي هدف الفوز في مرمي فريق اليفن وايز الغاني .

يقولون أيضا أنه سافر إلى هنقاريا وتأرجح طويلا هناك بين ضفتي بودا وبست وباع فحولته لعدة سائحات غربيات وخليجيات مستغلا وسامته وشبهه باللاعب الارجنتيني ديوجو مارادونا ثم تركهن بعد أنْ التهم نقودهن وحُليّهن .. إحدى اليابانيات عرضت عليه الهجرة إلى طوكيو ووعدته بأن تفتح له مصنع تلفزيونات لكنه رفض .. قال لها ليبيا هي ليبيا .. وحى المحيشي هو حي المحيشي .. ملح بنغازي ما يتبدل أبدا .. في المجر اشتغل كل شيء .. تصريف دولارات .. بيع .. شراء .. تهريب .. تزوير .. تأجير .. بلطجة .. كان مافيا لذاته .. شيء واحد لم ينجرّ إليه .. هو التعامل في السياسة .. مبدؤه .. تجارة بمليار أدخل يدي فيها .. زقوم ببركان أغطس فيه .. سياسة بنصف قرش كندرتك وخوذ الخلاء .. مكث هناك مدة طويلة .. ومارس عدة رياضات .. اشترك في مسابقات السباحة المحلية .. فتحصل على بعض الجوائز التى مكنته من توفير مصروفه وأجرة غرفته .. برز في السباحة نتيجة التدريبات المستمرة التي يقوم بها داخل الأحواض المغلقة هناك .. ونتيجة خبرته التى اكتسبها من السباحة في بحر توريللي والكبترانية والمنقار الكبير .. دائما يتذكر نصائح أصدقائه الحواتين جماعة الجولاطينا .. البحر غدار .. انتبه دائما .. وأصنع قيمة للزمن تحت الماء .. لم ينقطع عن التدريبات أبدا .. كان يرهن لدى مشرف الحوض حذاءه أو ملابسه أو ساعته أو نظارته الريبان الثمينة .. وبعد أنْ ملّ من المجر والنمسا ودول البلقان والسفر بدون أوراق بالقطارات والحافلات والمراكب عبر المنافذ الحدودية في جبال الألب وسهول أوربا الوسطى عاد إلى ليبيا بعقلية جديدة وبرغبة جامحة في العمل والإستثمار الحلال .. ليستهل نشاطه في تجارة الإلكترونات والمواد المنزلية .. يهرّبها من طرابلس ومصراتة إلى بنغازي .. ويتعامل بمصداقية كبيرة مع تجار الكونترا في قصر اخيار .. وعندما تعب من الهروب والرشاوي ومغافلة بوابات سيدي عبدالعاطي وعين الغزالة وبوقرين ساعة المنيسة الفجرية .. فشّ العجلات وارتاح وتزوّج من إحدى جاراته الطيبات وفتح دكانا في سوق العرب يتعامل في المواد الغذائية بالجملة والمفرق .. ذات مرة سُجن في مصر .. ضبط في جيبه قرش حشيش .. كان ضبطه نتيجة وشاية من أحد الذين يظنهم أصدقاء .. دخل المخبر حافلة السوبر جيت المغادرة إلى ليبيا .. تأمل في كل الركاب وكأنه يوحى توقف عند جحا وقال له أنزل .. وأحضر له الكلب .. فقال له جحا لا داع للسلوقي هذا الذي معي .. وأخرج من شعره الكث لفافة قصدير صغيرة .. ثم تلفن لأخيه العزيز ميلاد الذي استنفر كل مجهوداته واتصل بأصدقاء يُعزّون عمر جحا وسبق لعمر أن وقف معهم فى محنهم وقفة رجال .. كثيرا من حساده شمتوا وضحكوا وقالوا سيأخذ في هذه القضية تأبيدة .. لكن جحا عومل في السجن معاملة البارونات وضع في غرفة نظيفة وقدم له الطعام والشراب وشيشة المعسل وكل شيء .. لم يمكث في السجن شهرا .. سويت القضية وعاد سعيدا إلى أحبائه في المنقار والمحيشي وأزقة بنغازي العتيقة . مذ ذاك الموقف صار يردد دائما الثقة في محمد ومحمد مات .. عمر جحا شخصية ظريفة يمتزج فيها الخير بالشر .. العلم بالجهل .. الحكمة بالسذاجة .. المكر بالطيبة .. الكرم المسرف بالبخل الشديد .. كوكتيل آدمي.. قُرعة بشرية .. كل من يخالطه يربح كثيرا وقد يتأذى كثيرا وربما يموت .. وجُحا دائما حي .. يكسب .. يضحك .. يشرب .. يدخن .. يتذوّق جميع الأصناف .. يعتلي كل المطايا .. يلهو.. يتنزه .. يسبح في بحر المنقار وعين زيّانة وبئر الكلبة .. لا يغرق .. لا يُقبض عليه .. لا تنقلب به السيارة .. لا يفقد الوعي .. دائما بريء .. دائما لديه نقود - قولوا ما شاء - .. عمر جحا ليس كجُحا صاحب المُلح والطرائف والفكاهة .. جُحا المحيشي ليس كجُحا الكتب والرسوم المتحركة .. جُحا المحيشي شيء آخر .. إنسان لا مسمار له .. إنسان بسيط عادي راقد ريح مغمور وجد نفسه غريقا في هذا

العالم يحاول في وقته القليل الممنوح له من الله أنْ لا يموت اختناقا .. يريد أنْ يشم حراجيم الهواء .. أنْ يغني .. أنْ يحيا .. أنْ يجلس في الظل أمام مصوراتي الأهلي بشارع عبدالمنعم رياض صحبة صديق العمر المصوّر الرياضي محمد الوسيع يحتسي قهوة النسكافيه ويغازل جميلات الإعلام والإذاعة المارات على الرصيف بكلمات رقيقة ناعمة حالمة ومُحتشمة .. إنسان شهلولي يهمّه أنْ يستمتع على طريقته العبثية التي اختارها بإرادته .. يمارس ضياعه واستقامته وجنونه ومسرّاته محققا أمانيه التي يُمليها عليه رأسه المولود - حسب وجهة نظره - في الزمن الغلط ..

هناك سباحين آخرين مهرة .. عبدالسميع الفرجاني .. فتحي الجروشي .. فتحي القزم .. معتوق الجهاني .. مصباح المكاوي .. جبريل المعداني .. والرجل المائي بن يزّى الحول الذي يغطس تحت الماء فاتحا عينا واحدة مما يجعله في حالة تصويب دائم .. وبن يزّة هذا قصته قصة .. خاصة قصته مع تجارة الصقور والشواهين والحباري و التى أوصلته إلى قصور أمراء الخليج العربي وإلى أقسام الأمن عندما عاد إلى الوطن .. ومختصرها أنه باع طيورا حرّة لأحد أمراء الخليج ومكث في قصر الأمير عدة شهور لأن الأمير سافر إلى إحدى محضياته في جزر الكناري ونساه .. بقى في القصر مرتاحا يأكل ويملّس ويشرب ويدخن ويتفرج على التلفاز .. لكن البقاء في شبه الجزيرة العربية مدة طويلة بالنسبة لشخص كيّيف مثل بن يزّة أمر صعب .. بل غير محتمل .. كان يلعن الأمير في السر .. وينتظره بفارغ الصبر .. وعندما عاد طرق الأمير جبهته براحة يده وأعطى بن يزّة حقه من الريالات الكثيرة .. لكن الرُب في أعقابه كما يقول التوانسة .. لم يقتنع رجال الأمن بتجارة صقور تستبقي ليبياً من حي المحيشي عدة شهور في الحجاز.. ربما الصقور هذه حمام زاجل يستخدم في إيصال رسائل للزنادقة والإرهابيين والكلاب الضالة .. حاول بشتى الطرق إقناعهم ببراءته وأنه لا علاقة له بالسياسة أو الدين أو المخدرات أو السلاح أو حتى أعواد الثقاب و بارود خط ولوّح .. وطالت التحقيقات وفي النهاية اقتنعوا بعد أنْ ألتحق مخبرا لصالح الأمن العام في إحدى فنادق المومسات ..

ولكل شاب من المحيشي حكاية مختلفة .. المحيشي منجم الإبداع .. ومحرقة الفن والبؤس .. وصهريج الشقاء والحنين والعبث والأمل والنجاح والسقوط إلى المهاوي .. هناك الكثير .. الكثير من الأحداث التى لم تروَ .. بَلاغا .. عُرابي .. قاليلا .. وناسة .. شيلة .. مارينا .. حمير .. ماكاوة .. قاباجا .. زلبيبا .. مرعوش .. كريميسة .. جليم .. لوديْ .. لودا .. براكا .. بوفا .. طواجين .. الحصان .. العدولي .. خنينة .. المكاوي .. ستيريو .. صديق .. بوعويّة .. الورّ .. العموري .. الطيّب .. بورأسين .. القاز .. رطيبة .. الطاووس .. التوبو .. والرومانسي الولهان أحمد المديني وحكايات لا حصر لها عن فتيان المحيشي الطيبين الأشقياء الشجعان المحبوبين الصائرين مادة خصبة لشعراء قصائد النثر الحديثة .. وها هو الشاعر عمر الكدي ينشدنا :

أحبّ شبابك الضائعين
الواقفين أبدا عند مفترق الطرقات
الصاخبين الضاجين الضاحكين
الغاضبين دون سبب
المتبرمين بكل شيء
الذين يبيعونني خمر المساء
في الأزقة المظلمةْ .
الذين يدخنون الحشيش
ويراقبون شوارعك من خلف النظارات القاتمة

وفي السيارات البطيئة المسالمة
شبابك المتشنّجين المتزمتين
الذين يؤمنون بالعنز حين تطير
الذين ينخرهم الفراغ
وتطردهم شيخوخة مبكرة .

كانت سينما الفردوس قد افتتحت أبوابها حديثا بعرض خاص لأعيان المنطقة لفيلم الشيطان امرأة بطولة كريمة مختار .. وبعد أيام صارت تعرض الأفلام المصرية والهندية والامريكية بصورة يومية وكان الزحام على أشدّه خاصة في أيام الجمع والأعياد .. داخل السينما الجمهور جالس يتمتع بالفيلم .. ومشرف القاعة سالم الدوبادي يلف بين الصفوف .. في يده مصباحه اليدوي .. يضيئه كلما حدث هرج أو مَرج .. الدوبادي من سكان حلاليق الرويسات .. انتقل مع أهله للمحيشي .. كان محل إعجاب الصغار .. يعتبرونه بطلا كأبطال الفيلم .. كطرزان وسوبرمان ورينقو وسبارتاكوس .. لا يُهزم أبدا .. طويل ومفتول العضلات ولديه شنب خفيف ويدخن سجائر سبورت بواسطة مبسم قصير وفي يده عصا وفي جيبه سكين بوخوصة بُنّي المقبض يستخدمه لرشم الدلاع وفتح علب السردين والسلموني .. ملامحه جديّة .. لا يمضغ العلكة ومشهور أنه من فتوّات المنطقة .. ما أنْ يصرخ : أسكتوا يا شباب .. اعطونا خمسة هدوء .. حتى يصمت الجميع احتراما له .. ذات عرض حضر إلى السينما أحد صيّاع الصابري .. أسمر سمين مؤخرته بارزة كمخدة ورأسه ضخمة كدلو .. الجميع يتابع الفيلم بهدؤ وعندما طعن بخنجره رئيس العصابة البطل في كتفه قفز هذا الأسمر وحيدا يصفّر ويصفق ويقهقه .. فأسرع له الدوبادي ونطحه في جبهته العريضة فوقع أرضا وصفّر وصفّق الجمهور للنطحة الدوبادية .. حاول أنْ يقف .. لكن الدوبادي خنقه من رقبته وجرّه بمساعدة الشاب شليمة عبر باب فرعي إلى خارج السينما ليسلمه للشرطة لولا توسط عجوز ضئيل الجسم تبيع السجائر والولاعات و الخلالات والقلامات وشفرات الحلاقة وقراطيس البخور وخلافه ..

أمام السينما يباع أيضا خبز التنور والبيض المسلوق والحلويات والكاكاوية (الفول السوداني) والزرِّيعة (اللب) ومناديل الورق و الحلقوم و(البرّد تبرد يا عطشان) ذاك العصير الأحمر أو الأصفر و الذي تطفح فيه شرائح ليمون وغيرها .. ومحاذ لمدخل السينما مكتب كاتب عمومي للمرحوم على الترهوني ومقهى سي امبارك الفرجاني الذي تحوّل فيما بعد إلى جمعية تعاونية استهلاكية .. وحلاقان واحد يمين السينما لسي علي بن دردف والآخر يسارها لا أتذكر إسم صاحبه ولو أنني أعرف أنّه حلاق عسكري متخصص في حلاقة المستجدّين صفر .. وعلى جوانب السينما عدة محلات صغيرة محل العريبي للخضراوات والذي اشتراه فيما بعد المصراتي الفالح عبدالسلام بوجازية بجانبه محل قصاب تحول لورشة تبريد وتكييف ومصنع سخانات للمهندس حسين البرغثي وإخوته والمحل المميّز في مبنى سينما الفردوس هو حلاق زياد .. هذا الشاب الأبيض السوري الذي وصل إلى المحيشي صغيرا وتعلق بالمنطقة وصار كل شباب المنطقة يعرفونه .. يحلق لهم ذقونهم وشعورهم بمبالغ رمزية أو بالآجل وأحيانا بالمجاّن .. المحل محلهم يعدّون فيه الشاي ويتعطرون ويمشطون ويتبودرون دون حرج .. دائما يدعونه إلى مناسباتهم السعيدة وفي مآتمهم وأمراضهم يكون أول المواسين .. سرعان ما أجاد اللهجة البنغازية أفضل من الليبيين العائدين من المهجر ذوو اللكنة المصرية .. بدأ هذا الحلاق من الصفر واستطاع أنْ يكوّن نفسه ويشترى بيتا كبيرا في شارع سوريا ويتزوّج من إحدى فتيات المحيشي ينجبُ منها أولادا وبناتا فائحين ويفتتح حلاقا خاصا به في مرآب بيته .. كل شباب المحيشي يحبّونه .. وعندما يتزوّجون وتهل ليلة الدخلة ليلة العمر يرفضون الحلق في صالونات أخرى فخمة ملحقة بفندق عمر الخيام أو قصر الجزيرة أو في صالونات حلاقة فاخرة بالفويهات

وميدان الشجرة والبركة .. المحيشي هو المحيشي .. وزياد هو زياد .. ذات مرة حلق أحد الأصدقاء في مكان آخر .. عندما قابل حبيبته في الموعد قالت له :

" كنـّك شن داير في روحك .. من هالحمار اللي جلـّمك " .. فكفـّر عن خطأه وعاد سريعا إلى زياد ليحلقه على (الزيرو) مبتدئا صفحة شَعرٍ جديدة .

بعد مدة وضعوا أمام السينما بيوتات خشبية جاهزة (تريلات) أتخذها النادي الرياضي مقرا مؤقتا له .. ذات ليلة كنتُ عائدا من المدينة على قدمي وعندما وصلتُ قرب النادي الخشبي توقفتْ سيارة جيب ونزل منها شاب شعره طويل مصبوغ بالأصفر سكب من قارورة لدائن بعض الوقود على جدار وأبواب ونوافذ النادي واضرم فيها النار .. واصلت طريقي في الظلام ولم أش به .. اعتليت الجدار وقفزت إلى بيتنا ..اندسست في فراشي و نمت سريعا أحلم بالنار الملتهبة في خشب النادي وأحلم بالصور التى ستترمد وتسقط من الجدران والكور التى ستنفجر بفعل النار ولعبة الجتّوني وكيف صينصهر لاعبوها البلاستيكيين ومكتب رئيس النادي والقهوة والتلفزيون الابيض والاسود وطاولة التنس الزيتونية ومضاربها وأخال النادى كوما من رماد .. وأعضاءه منذهلين وحزانى لشبوب النار في خشبه المطلي .. وزحم الناس حوله بجرادل الماء والشرطة حضرتْ وسيارة الاطفاء بدأت عملها الروتيني والولد الاشعل مرتكب الفعلة جالس على مصطبة السينما يتفرج مبتسما بشماتة وانا واقف بجانبه أقول له لا تخف لقد رأيتك لكنني لست قوادا فليحترق العالم ولتحترق كل المؤسسات ولتحترق اعصابنا واشعر بصهد وببعض اختناق وبخدر وبأبي يكح في البراكة الأخرى وصوت باب الزينقوا يفتح يحدث خرخشة معدنية وباب براكتى يفتح وأبي يهزهزني بعنف خيرك تعيّط شنو فيه واستيقظ واقول له ألحق ألحق .. نار نار .. نار فى النادي الآن .. أبي يصعد فوق البرّاكة يرى الدخان مرتفعا فيخرج و يدق على باب جارنا بشير الأقطع فيخرج فورا ويأخذان معهما جارنا الحاج كريّم التاورغي وجارنا سي محمد الحفيان ويذهبوا لاستطلاع الامر ثم يعودون بعد نصف ساعة تقريبا .. أطمئن المطافيء أطفأت الحريق والشرطة تحقق في الأسباب .. والنار لم تأكل كل النادي.. المطر طول النهار يهطل .. وانهمرت السماء تبكي وتقول اللوح المبلل للنار كالعظم للانسان .. أكله ليس هيناً .. لكن ليس مستحيلا .

فيما بعد عرفت أنّ هذا الشاب على خلاف مع مسؤولي النادي فرج الرعيض (الياباني) وابراهيم بورزيزة و مفتاح خلف الله .. لأنهم شاهدوه صباحا يلعب مباراة في ملعب ترابي مع إصدقائه وفي العشية كانت مباراة النادي الرسمية المهمة مع غريمه نادي النجمة والذي يدربه المخضرم المحنّك عثمان زغبية .. و بناء على رغبة الإداري الرعيض لم يشركه المدرب في التشكيل .. وأصرّ رئيس النادي بورزيزة على عدم إدراجه في قائمة البدلاء .. بينما عاقبه مراقب النادي خلف الله بالحرمان من غداء المباراة الشهي المتكون من الدجاج المحمر وأرز الخلطة بالصنوبر والتفاح وماء البن غشير .. لم يحتمل المسكين العقاب الثلاثي فصرخ عليّ وعلى أعدائي وأضرم النار ..

وتوالت مساعي شباب المنطقة عبر مسمى لجنة التوعية الشعبية فخصصت المحافظة مساحة كبيرة مسوّرة بها ملعب (كاولينة) مقرا للنادي واقيمت فيها عدة مسابقات جماهيرية على مستوى بنغازي وضواحيها خاصة في شهر رمضان الكريم .. إلا أنّ هذا المكان تمّ تخصيصه فيما بعد لسماسرة الرابش والخردة والعاديات والروبابيكيا .. وامتلأ الملعب بالسيارات القديمة والخشب والحديد والنضائد المستهلكة ومعامل الخمور وغيرها من الممنوعات .. وكافح شباب النادي طويلا لإزالة هذه الموبقات وهذا الهمّ المعدني الصدأ من قلب المنطقة وتحقق لهم ذلك بعد سنوات .. وفرح كثيرا فرج ابراهيم وونيس جاب الله ومحمد زايد ومفتاح التاجوري ومحمد الهبري والزروق عقيلة ومحمد الرملي ومفتاح بن غزي والشريف العاشق وجواد الورفلي وأحمد

عبدالحفيظ والشيخ الفيتوري وعلى العماري وصالح العقوري وعبدالجليل عبدالقادر وفرنّج وغيرهم من روّاد النادي ومحبيه الصادقين .. لكن الملعب ظل مليئا بالمسامير والصواميل .. ظل ملوثا إلى مدّة طويلة .. وواصل الشباب مجهوداتهم فتحصلوا على ترخيص رسمي للنادي وبدلا من اسم نادي نجوم الجمهورية تم تسميته نادى السواعد الرياضي الثقافي الاجتماعي وشعاره ثلاثة سواعد تتعالى إلى أعلى ولونه هو البرتقالي لأنّ طريقة لعبه تتماهى مع طريقة لعب الفريق الهولندي في عصره الذهبي الكرة الشاملة ..وتنافس اللاعبون على الغلالة رقم ١٤ غلالة النجم يوهان كرويف إلا أنْ المدرب محمد الهبري حسم الأمر ومنح الغلالة للاعب خط الوسط الموهوب عبدالرازق العشيبي .. وزعل سعد نجم ونوري التاجوري ومحمد الكلوة ومصطفى المجدوب وكادت أن تحدث أزمة في النادي تؤدي إلى إغلاقه وسحب ترخيصه لولا تدخل حارس المرمى الأسمراني ريكو الذي امتص زعل الجميع بنكتة من وزن الريشة أبطالها محمدالنمرود وحمد بلاغا و رافع أرصص .. المدرب الهبري واكب النادي منذ بدايته .. درب لاعبيه في ملاعب المدارس وملاعب الطين خارج المنطقة .. يأتيهم يوميا من بيت أهله البعيد بواسطة دراجته النارية البيجو .. وبفضل جهوده المتواصلة أسس قاعدة عريضة وأسلوب لعب ومونولوج رياضي داخلي ظل مستمرا ومؤثرا في أداء الفريق حتى بعد أنْ تغيّر المدرب عشرات المرّات .. فالسواعد لعبه معروف ..

تمريرات قصيرة أرضية .. تسديدات فجائية من خارج المنطقة .. أهداف بالرأس .. إحتفاظ دائم بالكرة .. وإهدار مفرط للفرص السانحة .. ويسعدهم جدا ارتطام الكرة في القائم أو العارضة أكثر من معانقتها للشباك .. فريق يبحث عن الفن داخل غوغائية اللعبة ولا تهمّه النتيجة اطلاقا .. يلعب خارج أرضه افضل من داخلها .. ولا يتأثر ببريق وجمهور الأندية المشهورة .. ومع هذه الأندية بالذات تنمرد وحقق أفضل نتائجه ..

هذا النادي له أفراحه و أحزانه .. انتصاراته وهزائمه .. في داخله تذوّق أعضاؤه مرارة الأحزان .. وفاة لاعب الوسط سعد اقليل.. وفاة اللاعب الخلوق مفتاح الكلوة .. وفاة اللاعب الأسمر الصغير صالح حمدو .. وفاة الظهير القشاش المتألق عبدالمولى نوح وفاة رئيس النادي الإنسان العطوف فرج إبراهيم وكذلك وفاة بعض رواده الأوفياء – عليهم الفاتحة - .. عندما رحل كل واحد من اولئك بكى الجميع .. واستمر الحزن في القلوب إلى الآن .. وأطفئت أنوار النادي حدادا لعدة أيام .. بل لعب النادي مبارياته تلك الأيام بغلالات نادي التحدي السوداء .. النادي مثل البلاد .. مثل الحياة .. مجموعات .. مجموعات .. وشوشات ودسائس .. وتربيطات في أوقات التصعيد (الانتخابات) .. ومشاكل كثيرة عصفت به على مر تاريخه .. مشاكل مؤثرة تنخر في صميم بنيانه .. مشاكل مستعصية لا حلّ لها وخاصة مشكلة الولاء .. حيث تجد لاعبيه ومشجعيه لا يلعبون له وحده أو يشجعونه وحده .. إنما لهم مع نادى السواعد نوادِ أخرى .. لكل فرد محسوب على السواعد ناد قديم من النوادي العتيقة .. كالأهلى .. والنصر .. والتحدي .. والهلال .. والإتحاد .. وأهلي طرابلس .. وغيرها .. فترى مشجّع السواعد يشجع السواعد لكن عندما يخسر نادى الهلال يخيّم الحزن الكئيب على وجهه .. فلكل مشجّع فى السواعد نادي محلي ونادي عالمي ومنتخب عالمي .. السواعد دائما معه ضرّة أخرى .. وإذا لعب السواعد مع ناديه القديم شجعه ظاهرا وباطنا يتمنى له الهزيمة النكراء .. كثيرا ما تلوعب في النتائج على هذا الأساس .. في النادي أيضا مجموعة رواد .. شباب وكهول يطلقون على أنفسهم فريق الفنون .. أو نجوم الفنون .. هم يشجعون النادي ..وإدارة النادي رئيسها منهم .. لكن لديهم فريقهم الخاص .. المطعّم بعدّة لاعبين مهرة بعضهم دوليين كبار كعمر ماماش ومحمد فرج وحسين منصور وعبدالواحد الحاسي وعمر ميمون وفوزي العيساوي وعلي البشاري ومحمد العاشق وونيس خير وفوزي الدرّاجي ومحمد كشبور و يوسف صدقي وطه الساحلي و المرحوم عبدالمولى نوح و حافظ العقوري وابراهيم السراوي وطاهر سويكر .. دائما يحجزون ملعب النجيل .. أو ملعب كرة اليد الخرساني

وينظمون المباريات فيما بينهم أو مع فرق من مناطق أخرى ودائما يفوزون .. لا أعرف كيف يفوزون رغم أنّهم كبار السن .. ولياقتهم ضعيفة .. ويدخّنون بشراهة .. وبعضهم يركض نحو الجنة بصيام الإثنين والخميس وصلاة الفجر اليومية في الجامع المحاط بمياه الامطار والبالوعات .. وبعضهم متزوج بزوجتين .. ؟! لكن عندما يدخلون الملعب تتصاعد وتيرة اللعب .. والحماس يرتقي إلى أعلى مستوياته .. تتقمصهم روح شريرة وتشتعل في أقدامهم شعلة نشاط .. واللاعب الدولي الذي يطعّمون به فريقهم يلعب أجمل مبارياته ويسجل أهدافا جميلة ما حَلِم قط بتسجيلها في ذروة تألقه مع فريقه أو مع المنتخب الليبي .. في فريق الفنون عدة لاعبين هم أعمدة الفريق .. الكابتن علي العماري وهومحارب قديم تجاوز الخمسين عام ولعب في شبابه في فريق جماهيري إسمه الحرية .. طويل القامة .. رشيق رغم وزنه الزائد

.. يلعب قلب دفاع ظهير قشاش يبني الهجمات من الخلف كفرانز بيكنباور.. لا يتكلم أثناء المباراة .. ولا يحتك بالخصوم .. لكن بعد نهاية المباراة تكون لأرائه درجة الرجاحة والفصل .. اللاعب معتوق النايلي .. ضابط كبير في الحرس البلدي .. عندما ينطلق خلف سمسار يحمل صندوق زيت أو طماطم لا يتوقف إلا وهو منقض عليه ورامي الصندوق في مؤخرة السيارة دون أنْ يتمزق .. قصير ضئيل الجسم قمحي اللون ذو شعر أسود ناعم يتخلله بعض البياض .. دائما يبتسم وفي المباراة يكشر إنْ لم يسجل هدفا أو يُمنح ركلة جزاء .. يمتاز بالمراوغة في المناطق الحسّاسة والتمريرات الذكية غير المتوقعة الشبيهة بتمريرات لاعب النصر على الغبش .. لا يضيّع أي فرصة سانحة للتسجيل .. عندما يسجّل هدفا يجري دون وعي خالعا غلالته ملوحاً بها في الهواء عدّة مرات .. لا يلبسها إلا عندما يصرخا فيه ممرضا الفريق محمد الورشفاني ومحمد التاجوري إلبس الغلالة يا بطل لتُصاب بأنفلونزا الطيور .. اللاعب الحاج حمد العشيبي المتحدّي الدائم لمعتوق .. يلعب دائما في جهة اليمين .. يراوغ ويرفع الكرات على طريقة جارنيشا و بيكهام ويسجل اهدافا جميلة برأسه رغم قصر قامته وضيق مرمي كرة اليد وطول قامة المدافعين .. اللاعب عبدالله الفولكس ظهير أيمن .. يتنافس على المركز مع لاعب آخر إسمه الحاج جمعة النائلي .. لكن دائما الفولكس هو الأساسي وجمعة هو الإحتياط .. كثيرا ما تمنى جمعة أنْ يمرض أو يُكسر أو يحجّ هذا الفولكس ليحلل مكانه .. لكن الفولكس كسيارات الفولكس الفكرونة صخرة غير قابلة للكسر .. كل صباح يفطر على سحلب القصب الخاثر.. وكل مساء يبتلع حبيبات زيت كبد الحوت و يتعشى على تمر جالو ولبن دار العريبات وربع برطمان عسل حنّون .. ويبقى اللاعب البارز في منطقة المحيشي عامة وفي فريق

الفنون خاصة المتألق عبدالسلام شويّب .. اللاعب الطويل الشامل المتجوّل في كل أرجاء الملعب باحثا عن الكرة أينما تدحرجت وحيثما نطت .. يستحوذ عليها وإنْ فقدها - وهذا إحتمال مستحيل الحدوث - فيمنع الخصوم من الانطلاق نحو مرماه بكل الطرق .. يلعب بأسلوب الكرة الألمانية .. لا يُقدم على أي مغامرة مهارية .. الكرة إلى رجل زميله أو بين قدميه أو يرفعها عاليا إلى حلق مرمى الخصم ليركلها داخل الشباك القناص الخطير أحمد جيجي أو الجناح الأصلع عمران لامين وإن إرتدت من القائم أو العارضة يسجلها رأس الحربة محمد حسين رحمة الله عليه .. أحيانا يستعين فريق الفنون بلاعب ذي نزعة هجومية سكسونية إسمه حمزة .. لكن بعد أنْ تدخّل ذات مرّة في أمور غير رياضية وألقى خطبة في جامع المنطقة نصرة لشعب العراق تمّ استبعاده فورا من الفريق .. فجماعة الفنون نشاطها رياضي بحت واللاعب الذي يُسيّس أو يديّن الرياضة يُستبعد ويحرم من اللعب خمس سنوات .. أوقف حمزة عن اللعب في فريق الفنون وأوقف أيضا لدى الأمن ثم أفرج عنه ليترك الرياضة والوعظ وكل شيء ويفتح مطعما رائجا في قلب المدينة يبيع شطائر الفاصوليا بالكرشة و الحرايمي والقلايا بالثوم والمفروم بالهريسة الوطنية .. أقفل على كل شيء .. حتى شريكه في دكان المواد الغذائية فصلها معه وتركه .. خبزة الشركة ما تطيبش .. وألعب بروحك ما تشكش .. تفرّغ للأموال التي تذرها عليه الفاصوليا والعصير .. ولم يعد يتفرج

علـى قـناة الجزيـرة حتـى بعد أنْ تحجبت المذيعـة خديجـة قـنـة .. .. ماعـاد العـالم يعنيـه .. وبينـي وبينـك كـلام حمزة صـحيح .. فمـا عـاد العـالم يعنينـي .. كـل الزعامـات أثبتت فشلها .. ووضـحت مباشرة قضية متاجرتها فـي الشعوب .. لمـاذا أصـرخ فـي جـامع أو فـي شـارع ؟.. لمـاذا أصـرخ أساسا ؟.. لماذا لا أغنّي

وأرقص وأصلّـي في الجامع صامتا أردد آمين وراء أي إمام ولو كـان اكترونيا أو يقرأ من ورقـة وألعب الكرة في فريق الفنون أو عجيلات مكسيكو أو حتى في طليعة منصور امداوي حبيب محمد الهنداوي أو بركان خميس البقرماوي .. وبعد المباراة أستحم و أناقش في نطاق المباراة ثم أذهب إلـى أي مـأتم أو عـرس فـي منطقتنـا العريقـة حـي المحيشي أتنـاول الأرز واللحم وارتـشف الـشاي الأخضر .. بعدها أتـابع الـدوري الإيطـالي والأنجليزي والأسباني لأستفيد علـى حـالي فـي المبـاراة القادمة وفي آخر الليل أتلمس زوجتي أو أي عشيقة أقذف في مرماها هدفا وأنام..

فريق الفنون نادي آخر موازٍ لنادي السواعد بيد أنّه بدون ترخيص .. لكن لديه ملاعبه داخل نـادي الـسواعد ولديـه جمهـوره ونفوذه الثقيل .. وإنْ لعـب الـسواعد مبـاراة مهمـة فـي المدينـة الرياضـية والفنون لعب مباراة في ملاعب النادي فكل الجمهور يحضر مبـاراة الفنـون .. ودائمـا الفنـون يجدد دماءه وقلوبه وكتوفه ورئاته وركبه ويستقطب اللاعبين الشباب .. شروطه الثابتة هو توفر الموهبة والقتال طـوال وقت المبـاراة فاللاعب الواقف لا ينفعهم ولا يتمشّى مـع أسلوب لعبهم (المـا بعد رجـولي) وإنْ قبـل لمجاملـة مـا فشويّب لـن يتركـه دون تـوبيخ ونظـرات إزدراء .. أسـمع يـا شـاب داعك علـى الكـرة راك تلعـب فـي الفنـون مش فـي نـوادي المستكة والحلقوم والبنكيك .. يقـدمون للمستقطب غلالة نظيفة مكويّة يختار رقمها وحذاء ملمعا ويخيّرونـه أي مركـز يُحبُّ أنْ يلعب فيـه .. كـل النـاس تحبُّ أنْ تتفـرج علـيهم .. وكـل النـاس تحـبُّ أنْ تلعـب معهـم .. حتـى رئـيس النـادي يدعونـه ويـشركونه قلـب هجـوم .. وعـندما يتحـصل الفريـق علـى ركلـة جـزاء يقـدمون الـضيف لتسديدها علـى المرمـى وهـم وراءه لتكملـة الركلـة إنْ أفلتت مـن الحـارس أو رجعت مـن القـائم .. ويأخـذ لـه مصـورهم الـدائم رافـع الجمـل صـورة للذكرى .. يرفعونـه علـى الأعنـاق إنْ سـجلها وإنْ أهدرها _ حيه على أمه _ يتوعدونه بطبق صاخب من نميمة الليل .

فريـق الفنـون لـيس الرياضـة نـشاطه فقط .. ففجـأة يتحـول بكاملـه إلـى فرقـة فنيـة فلـه مطربيـه مثل عبدالجليل الهتش وله عازفيه مثل الشيخ الفيتوري واحمد عبدالحفيظ وعادل الورفلي .. وله حكامـه الكرويين أمثال سليمان إبراهيم و جمعة المغربي وشعبان الصادق ومحمد الزلاوي وابراهيم راف الله وصحفييه وكناسيه وأطبائه وبصاصيه ودراويشه وبوليسه ووعاظه الدينيين والتجاريين وفجـأة يتحول إلى فريق سباحة وترى الكابتن ونيس جاب الله المزنة ببندقيتة البحريـة الفيزقا يشق عبـاب بحر المنقار متقلبا بطولـه الفـارع بين صـخور الأعمـاق وفي ديـاجير الـشعاب المرجانيـة مخـاطرا بحياتـه بحثـا عـن سـمك الفـروج .. لأنّ نجم الفريـق عبدالـسلام شـويّب يـرفض أنْ يلعـب المبـاراة القادمة إنْ لم يقدّم له رئيس الفريق على العماري مكرونـة قراجيط بصلـصة الـسيبيا وشـرائح سمك الفـروج.. وتـرى ونـيس يغـوص عـدة مـرات وعلـى رأسـه تـتلألأ قبعـة الفنـون الـصفراء المرقمـة ويستعين أحيانـا بالـدولي محمد المجدوب فينجده بفيزقـته الأوتـامتيك أو يـستعين بعنـصر البحريـة المتخصص فرج البقرماوي الـذي يشير لـه بالخطـة الجديدة لإقتنـاص الفـراريج إنْ أخطـأت الفيزقـا هدفها.. وفجأة ينتصب عبدالسلام شويّب واقفا وتبدو علـى وجهـه علامـات الغضب والاضطراب ولا يخفض بصره عن الجهة الأخرى من الـشاطيء .. داتـسون بلـو بيرد خضراء توقفت ونـزل منها النمرود يمط جسده بتكاسل كفهد برّي ويتلمس كرشـه وصدره وجنبيـه .. مشى خطـوات و وقف حيث المنط ماسحا شاطئ البحر بنظرة استكشاف .. هذا النمرود كان لاعبا قديما في فريـق الـسواعد مـشهور بالخشونة والقسوة فـي اللعـب أو مـا يـسمّى باللعـب الرجـولي .. قسم الآشـعة فـي مستشفى الجلاء يميّزون بين الكسر النمرودي والكسر القضاء قدري .. ونـادرا ماعاد لاعب كسره

النمرود إلى الملاعب مجددا .. يشتهر أيضا بالمزح في الولائم واقتناص اللحم من القصاعي دون خجل أو تقدير لمن يجلسون معه من كبار السن أو صغارهم .. ازداد قلق اشويب.. والنمرود مازال يحملق في صفحة الماء ويقلب نظره في خيام وعشش ومظلات المصطافين باحثا عن معارف .. سالم العشيبي وهو مدرب كرة مختص بالأشبال أو أحميده العاشق أو على قمينس أو مفتاح بوخة أو محمد الربع .. أو أي مصطاف يبيّن أسنانه لتضيع وجبته .. فهم العمّاري الأمر .. فغمز أحد أعوانه كي يلهى النمرود ويبعده عن المنطقة ريثما يتغدى نجمه اشويّب بهدوء .. ركض إبراهيم ناحية النمرود وبالمناسبة ابراهيم الفزاني هو لاعب منشق عن فريق العجيلات الملقب بمكسيكو والمنافس لفريق الفنون في دوري شهر رمضان وانظم مؤخرا للفنون بعد اجتيازه بنجاح اختبارات اللياقة والولاء واللعب الما بعد رجولي .. كذلك جار لعبدالسلام أشويب وصهر لمحمد النمرود .. أحتوى النمرود سريعا وقاده بعيدا عن البحر .. قال له : نسيت ملابس البحر في البيت وكذلك محفظة النقود .. أوصلني لإحضارهما .. لا يوجد شيء في البحر .. والطنجرة لم نضعها على النار بعد .. سنمر على شارع الكبدة جهة ميدان الشجرة .. إبتسم النمرود وقال إلى بيتك ثم إلى كبدتك يا صهري العزيز رغم أنّ أنفي الأفطس المقاوم لغبار مصنع الإسمنت لا يخطيء يقول لي حصانك جراي إبق في المنقار .. أحرنْ فقد جئت في الوقت المناسب .. وتارة يتحول الفنون إلى فريق إجتماعي ينظف الشوارع والحدائق ويشارك في أفراح و مآتم الفقراء ويشرف على أنشطة نادي السواعد الإحتفالية ..

الجميل في جماعة الفنون أنهم دائما متواجدون في النادي صباحا ومساء .. عيدا وعاشوراء .. فلا فنون بدون سواعد ولا سواعد بدون فنون .. لكن أعود في النهاية لأقول لو السواعد يصير فنونا أو الفنون يصير سواعدا .. لتتوحد القلوب .. فما خلق الله إنسانا به قلبين وكرة القدم آفة شقية كالحب .. كرة القدم دكتاتورية مشاعر .. لاتقبل آخرا .. وإنْ قبلت آخر تهاوت امبراطورية السعادة .

نادى السواعد يربط كثيرا من شباب المحيشي إلى بعض .. هذه المنطقة سميت عدّة أسماء .. حى المختار .. حى السلاوي .. حى العروبة .. حي لوحيشي .. لكن المحيشي مازال هو الأسم المعروف .. خاصة إذا أقترن بلقبها القديم (المدينة الدائخة) .. حي المحيشي به جهة سوانى عصمان حيث كان شاعر الوطن احمد رفيق المهدوي صحبة أصدقائه في الأيام الخوالي يقضون سهراتهم وزرداتهم قربها .. تلك السهرات التي يتجلى فيها رفيق خاصة عندما يستفزّه شيطان الشعر فيبهجهم بأشعاره الوطنية والغزلية والغلمانية بالفصحة والدارجة :

" ظلموك يا غصن الندى .. إذ جعلوك في العسكرية ..
ألبست أخشن ملبس .. مؤذٍ لبشرتك الطريّة .."

" غزال لريلي كنّا مواطي عينه .. وقارن حجاجه ما يبهّت فينا ..
مواطي راسه ..
خايف من النقّار والبصاصة ..
اللي حجّره مولاي عطيه رصاصة ..
تجيه ماكنة بالقيس فوق جبينه .. "

كذلك أشعاره الوطنية قويّة العاطفة صادقتها :

" تبقّى على خير يا وطنا بالسلامة .. ورانا ندامة .. ويا عون من فيك كمّل أيامه ..
" يا عون من فيك كمّل أوقاته ..
ومضّى حياته ..

في عز لا قهر لا صغا لا شماته ..
حتى مع الفقر والقلّ والشحاته ..
تطيب المقامه .. لولا العدو فيك ناصب علامه .. "
" لولا العدو اللي فيك حاكم ..
ودايِر محاكم ..
بالشنق والنفي فينا يحاكم ..
سوا حال مظلوم منا وظالم ..
قليل السلامة ..
بلا بيّنة من يجي ف الدهامه .. "

منطقة المحيشي تاريخها فسيفساء متبعثرة .. في الماضي كانت سهلا للحرث وربيعا للزردة .. ومكانا قصيّا لالتقاء العشاق والشواذ .. ومرعى للأغنام .. ومحاجرا للزلط والحصى .. وكقدر كل المدن عندما تتورم وتزحف على بطنها .. زحفت بنغازي على كل ما يحيطها .. كل شهر تتقدم شبرا .. الاسمنت يزحف على التراب .. والبيوت تتعالى .. والآن .. أين جهة سوانى عصمان .. أين السدرة .. أين الكسّارة .. أين الجخ .. أين بحيرة المجدوب .. الكل أحيط به .. ما تعد تراه .. صارت الطريق إليه ملتوية ومتشعبة جدا .. بيوت في طور البناء يسكنها افارقة ومصريون يعملون في كل شيء .. وفيلات ممسوخة مسورة محروسة بالكلاب .. منذ أنْ سكنا المحيشي إشتهرت المنطقة بتصنيع وبيع الخمر المحلي .. اقرابا .. بوزا .. مريسا .. وصدحت أغنيات ..

"*قلوني من خويا بنقه .. خلاني نلعب في الزنقة ..*"

وأشتهر بفتواته الكبار والصغار .. عبدالرسول .. بوفاخرة .. الدوبادي .. السم .. جونّي .. العجل .. القبائلي .. وغيرهم .. كانوا فتواتا شرفاء ليسوا بلطجية .. لا يظلمون أحدا .. لكن إنْ جاءهم الشر حتى بابهم فلا يتراجعون .. ويضربون على طريقة .. *" دير الصوب وقيمه وإلا دير خطا يصعب تسقيمه "* .. ذات ليلة قالت الحاجة فلانة لإبنها عبدالنبي .. "*لا تخرج يا وليدي في هالليل .. الدنيا فيها طرا وجرا فأجابها عبدالنبي الطرا وجرا هو أنا ..*" هذا الحي المبهج .. كم أحبّه .. كم أعشقه بكل تناقضاته .. هو حبيبتي المتمردة .. أحتمل قاذوراته وحفره .. ومتاجرات ومزايدات الساسة والمسؤولين به .. دائما يقولون لنا أنّ حي المحيشي هو حي الطبقة الكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة .. لكن أين هي المصلحة الحقيقية ؟! .. منذ ثلاثين عاما ولم ترصف شوارعه أو تحفر له مجاري للمياه السوداء .. وأكثر المسؤولين الذين تولوا إداراته المختلفة ليسوا من سكان المنطقة .. بل من مناطق بعيدة عن حي المحيشي .. بل من مناطق غنيّة وليست فقيرة .. عين من الليثي .. سين من حي الدولار .. صاد من طابلينوا .. قاف من الفويهات الغربية .. المحيشي لا يهمهم أبدا بقدر ما يهمهم بستنة حدائق قصورهم وإغراقها بطيور الكناري وأسماك الزينة والشغالات المغربيات ! .. لقد بددوا ميزانيته .. وحولوا نقودا خصصت له إلى أرصدتهم وإلى مناطق أخرى فارهة في بنغازي وضواحيها .. الشيء الوحيد الذي جلبوه للمنطقة هو جهاز مكافحة المخدرات والزندقة (أمن داخلي مخابرات) .. جلبوا للحي الشعبي سجنا كبيرا .. أسواره عالية .. كان فيما قبل بناء تشغله تشاركية تصوير وتحميض أفلام تابعة للدولة .. هذا الحي المداوم على حضور جلسات المؤتمرات الشعبية الأساسية والذي يناقش بجرأة وفاعلية ولا يخشى في الحق لومة لائم ويعارض سياسات وتعليمات جاءت مطبوعة في أوراق لتمريرها .. ويتساءل كل دورة عن قراراته في الدورات السابقة .. مازلت أذكر الأستاذ جويدة وهو يرفض أمام الجماهير التعليمات والأوراق العلوية وينحاز في كل القضايا لرأيه الشخصي وليس إلى وجهة نظر الإعلام .. هذا المواطن أرى إيمانه متوهجا عبر كلماته الشجاعة .. هذا المواطن تعامل مع الأمر بجديّة .. وصدّق ككل المؤمنين في قرارة نفسه أنه توجد سلطة شعب وحرية حقا .. وعلى

كل إنسان أنْ يمارسها بفاعلية ويستلمها ويُفعّلها في ذاته قبل أنْ يصدح بها إلى خارجها .. كذلك السيد سالم الدوبادي الجالس دائما في الصفوف الأمامية والواقف بشجاعة يبدي رأيه العفوي البسيط الصادق في كل قضية تعرض للنقاش ويعترض ويساءل ويستفسر بإلحاح عن القرارات المتخذة في الدورات السابقة .. ولماذا لم تنفذ .. ومن المسؤول .. يريده بالإسم الشخصي وليس بالإسم الإعتباري .. حتى بعد أنْ فقد بصره في السنوات الأخيرة ما غاب عن أي جلسة .. يقوده إبنه الصغير أو أخيه عوض وينتظراه حتى تنتهي الجلسة .. دائما يذكرهم أنه ليبي حر .. ولم يأت إلى ليبيا على لوحة من البحر أو من شارع فرعي .. زليطني أصيل ولد شيخ جسمه نمى من حليب وتمر وشعير هذه البلاد .. وأجداده جاهدوا ضد الطليان .. استشهدوا ولم يستسلموا .. شعارهم الأبدي الشهادة أو النصر .. ومن حقه أنْ يعيش عيشة كريمة .. دائما يتساءل عن أموال البترول ولماذا لا يصرف قليل منها من أجلنا ؟ خذوا من تحت الأرض وضعوا فوق الأرض فالحياة ليست جرامات دقيق وأرز ومكرونة وزيت وسكر وشاي وطماطم وخبز ودجاج وثلاجتين وغسالة وفرن وبطانية نزاحم ونقترع عليهن في الجمعية الاستهلاكية نهاية كل شهر أو عام ..

نريد صحة جيدة نريد ملابس جيدة نريد موسيقى جيدة نريد رياضة جيدة نريد تعليم جيد نريد حدائق جيدة نتنسّم ورودها صباحا ومساء .

هذا الحي العتيق كم أحبّه .. سأعتبره عتيقا ولو أنه تكوّن في بداية السبعينات .. ففي حي المحيشي صبّت خبرات انسانية من كل أحياء بنغازي العتيقة .. كل سكان الصفيح انتقلوا إليه .. سكان زرائب العبيد بالصابري من السمر الطيبين .. سكان راس عبيدة والكيش والسبّالة والحميّضة والرويسات وغيرها .. كل فقراء بلادي .. غرابة وشراقة .. شماليين وجنوبيين وعائدين من المهجر .. جاءوا إلى المحيشي .. وانبجست أغاني المرسكاوي العميقة البلاغة والشعبية الكلمات من شوارعه الترابية المظلمة .. حميده درنة يترنم ..

"سيدي الفقي لو ريت بوتكليلا .. يصعب عليك الدرس ما تمشيلا " ..
" أنا بوي من فزان وأمي خادم .. واللي طرالي ما طرا لبنادم " ..
وعبدالجليل عبدالقادر يترنم
"يا طير سلملي على غاليا .. سلاما أيرد الروح ترجع فيّا " ..
"عليه بروحا ..
على قد ما خط الفقي في لوحا ..
قلنا الخاطر ناقضات جروحا ..
عامين والطبا ادّاوي فيا "..
والعندليب سعد الوس ..
" قلبي نهار وليل توقد نارا .. حاير دليلي دايخات افكاره "

"ما عرفت نعبّر ..

لا عرفت ندوي لا عرفت نخبّر ..
يا صاحبي دونك عليا دبّر ..
نعطيك سرّي وانت تصون اسراره ."
والموهوب عادل الورفلي ..
" ياصاحبي ما نحسبك تنساني .. كلامك اللي مقبول كله جاني "
" ما نحسبكش ا تهونة ..
عزّ الرفق تنهيه بفعل الخونه
الصاحب اللي يبيك دافع دونه

وما تتركه في هَمْ فيه يـعـانـي "

والمطرب الشاب الذي يعتمر ويحج كل عام ويمتنع عن الغناء خلال شهر رمضان إبن أخت المخضرم احميده درنـة المطرب الفنان برهوم الصافي صاحب الصوت النقي الحنون الشجي الممتزج بالدفء الخالط للقديم بالجديد .. في أغانيه روح الماضي ونبض الحاضر وأحلام المستقبل :

" سمرا طويلة كيف حارس غانا .. خذا كاسنا وانتِ غلاك خذانا .."
" فاكر كل اللى جرا .. بينى وبينك في الغلاء ..
صارن ذكريات معانا .. والله ما تـنـتسى .. والله ما تـنـتسى.."
صارن ذكريات الغيّة .. مع لريل سود ميامية ..
قضينا الايام هنيّة .. وقلنا الدنيا فانية .. "

ولا ننسى طبعا الفنان المبدع وعازف المزمار الشجي مطرب العجيلات وبنغازي مفتاح الفهري :

" عزيز خاني ياناس بيدا بيدا .. أريد نتركه مدعى غلاه نـحـيدا .. "

" خان الغيّـة ..
خان الغلاء ومانيش داير سـيّـة ..
اريد نـتركه مدعاه نكوي ايديا ..
قليل خير ما تنفع معاه عقيدا.. "

وكثيرا ما شارك في افراح المحيشي وحفلاته الخاصة مطربين شعبيين من سوق الحشيش وخريبيش والبركة ومن عمارات السرتي والصابري وشارع السكة أمثال الفنان الكبير الحاج علي الجهاني عليويكة والفنان سيف النصر و فنان الموّال بشون وحميد الكيلاني وحميده زواوه والمرحوم ادريس الدرسي وعبدالهادي اسكابا .. وبرز الملحنون الموهوبون أمثال الشيخ الفيتوري اقليل .. والفنان خليفة العرج ونوري السراوي وفرج بزّع ومهيدي التاورغي والشاب عادل الورفلي .. والمؤلفون المبدعون أمثال الزلاوي صاحب الكلمات الخصبة المسحوبة من نسغ التراث .. عندما تـزوّجتْ افطيمة كنت أغنى دائما "*درت المحيشي مالقيتا ريدي .. روحت نمسح في دموعي بيدي ..*" وكنت فعلا أمسح دموعي بيدي كلما تذكرتها أو رأيت سمينة تشبهها .. لكن الزمان كفيل بتضميد الجراح .. شفيت رغم أنها باقية .. والنساء مثل الأيام تتراكم على بعضها .. عرق تعس .. إنْ جرى في دم جديد غسل الذي قبله .. صرت أغنّى نفس الأغنية لكن في كل مرّة أغيّر المنطقة .. كل مناطق العالم بكيتها .. سكبتُ فيها من دموعي الحرّى .. فنبتت على ترابها زهرة ذكرى .. لم يخلق الحب ليبقى .. خلق ليسافر .. الحب فراشة .. طائرة ورقية .. مجلة ثقافية .. نكهة ربيع .. طلة صباحية .. ندى .. ضباب .. سراب موشوم على جدارية لا تعلق .. الحب كنبضة القلب .. متوالية لا تتوقف .. لا تبقى .. لا تستقر .. غنّيتُ نفس الأغنية درت المحيشي ما لقيتا ريدي لأنها هي الأصل .. قبل المحيشي لم أغنِها .. .. في راس اعبيدة لم أحبْ .. أو بالأحرى أحببتُ فراشات السبخة وطيور الشجر ودود القمامة والقمر .. وشمس الصباح .. والغدران .. والمطر .. وأرانب جنان عوض تيكا .. وترقيصات مبروكة صحبة اغنيتها نجك لي تستاهل مليون جني .. وسحلب قهوة سي عمر .. وسندوتشات فاصوليا مطعم عبدالعظيم .. ولذعات سوط مباشر مدرستنا في راس اعبيده الحاج إبراهيم طريّنة .. كذلك القنان الذي تعده لي أمي كل رمية خبز .. وفي الظهرة أحببتُ آمال لكنني لم اتعلم آنذاك الغناء .. والحب دون غناء كالطعام دون ملح .. كالبياض الباهت .. أريدُ حبا يجعلني أغني وأرقص وأضيئ .. الآن لا أفعل شيئا ولا أفكر .. لا أقدّم أي مواعظ .. أحكي فقط وأضحك .. وإنْ بكيت فليس من أجل الفراق الذي تعودتْ عليه روحي حتى تفرقعت نفخا .. لكن من أجل الكذب الذي يطوّقني

ويطرق مسامعي وأردّه صدى لكل الذوات التي أقابلها في هذه الضائقة السحيقة .. لقد ضاعت فطيمة في القريب .. وضاعت مبروكة التى تزوجها العسكري الرئيس وكانت مشروع شهوة لي .. فورما خرجت من براكتها ندمت .. مثلما حدث لي مع عاهرة شارع الشطشاط الشوكلاطية بالضبط .. الخروج ندم .. ندم .. very ندم .. فلتسقط أسفار الخروج وحيٌّ على الدخول الدائم .

مبروكة صارت زوجة لرتبة متورمة و العاهرة الشوكلاطية انسحبت من الماخور سريعا وانهمكت في أعمال استثمارية جعلتها شخصية معتبرة يشار إليها بالبنان .. وأنا وأنت أيضا مثلما ترون .. ليتنا ضاجعنا ونسينا .

الشمس تشرق ولا تتردد .. أنا أرفض .. ثم أوافق .. الحمار يركب ولا يتردد وأنا أرفض .. أنا نادم .. نادم .. ظامئ إلى كلمة تعال أو خذ .. لكن كلمة تعال حظ لا يمنح نفسه مرتين .

آلام كثيرة تجرعتها في هذا الحي .. كثير من أصحابي سافروا ولم يعودوا .. بعضهم مرضوا وماتوا بؤساء .. بعضهم أدمنوا .. بعضهم سُجنوا إلى مساء اليوم .. بعضهم ضاعوا في الحروب .. بعضهم شنقوا .. وبعضهم عجزوا عن تكوين مستقبلهم .. فلم يتزوّجوا ولم يقتنوا سيارات ولم يبنوا بيوتا .. ولم يتحسّن وضعهم المادي أو المعنوي .. والذي آلمني كثيرا هو إنسان بسيط أميٌّ ماهر في لعب الدومينو والداما والجتّوني وكرة الطاولة .. كثيرا ما تابعت مبارياته مع مفتاح بوخا وحمد بلاغا وصلاح تاتاويا وجبريل ابليشا وصلاح بن سعود.. وخالد زيكو .. وفتحي اسماعيل ومحمد الزاوي .. هذا الصديق إسمه الهمالي .. شاب متوسط الطول .. شعره أجعد طويل مسحوب إلى الوراء كتسريحة فولتير وبتهوفن .. هادىء .. يلبس بنطلون دجين ازرق باهت ذي جيوب أمامية وشبشب اصبع بلاستيك وتي شرت نصف كم فوقه معطف جلد قصير يعلقه خلفه على الكرسي كلما جلس للعب .. لا يتشاجر مع أحد .. قليل الكلام .. قليل الابتسام .. إنسان في حاله .. كان يكبرني قليلا .. وكنت منبهرا بانتصاراته المتتالية وذكائه الفطري وهدوءه أثنا ء اللعب .. هذا الإنسان قـُتل ذات ليلة بجانب سور مدرسة .. أشاعوا أنهم ضبطوه في الظلام يخط على سور المدرسة عبارات محرّضة ومعادية .

للظهرة عليّ حق .. ولبنغازي عليّ حق .. ولحي المحيشي أيضا علي حق .. لا أريد أنْ أحوّل نصي هذا إلى مُدوّنة سيرة فالسيرة تقول ما تقوله الحياة .. وأنا أقول ما يقوله الموت .. لا أريد أن أحوّل نصي هذا إلى إنموذج إلى قالب خاضع لمشارط الفقهاء .. لكن في عجالة تحدثت قليلا عن منطقة شعبية عشقتها حتى الثمالة وعشت فيها ومازلت وسأظل أعيش فيها إلى آخر يوم من حياتي وعند مماتي أعرف أنها ستتحول إلى مقبرة أدفن فيها ..

الحبال تهتز
ولاعب السرك لا يسقط
وخيوط العنكبوت تهتز
وحشرة العنكبوت لا تسقط
والرأس تهتز
والمترنح يسقط
والملاكم الخائر القوى يسقط .. والعالم يسقط .. والمجهول يسقط .. والجاهل يسقط .. والعابث بكلام الروح يسقط .. والسقوط يحبو وينهض .. والحضيض يتكلم ويرتفع .. ويسقط .. والعولمة والحضارة والثقافة واللعنـــــة والمطر والتاريخ والمحتوى .. وطوابير الخبز .. وطوابير العجّة .. وطوابير الحاجة .. وطوابير النظام .. وطوابير البرج الخامس .. تسقط .. يسقط .. يسقط .. ي .. س .. ق .. ط ... والمعاني العميقة تسقط على المدارك .. فتتجاهلها

المدارك لأنها عميقة .. تتركها تعيش .. تضمحل .. تتركها تسقط في الأرض كبذرة جافة مستعدة للارتواء والصعود إلى أعلى .. إلى أعلى القاعدة .. باحثة عن مصير سهل ومن العلو السهل ترى قبرها الحي .. ترى عمقه وتبتسم لأنه ضحل وتافه وكسيح .

الأفكار المُلحّة أهرام أنانية .. ناقصة جافة .. تحبّ الظهور والانبثاق من مكامن النور .. تلج هذا العالم بليله ونهاره .. تصيب من تصيب .. تترك من تترك .. تخطئ من تخطئ .. تُستهلك كرغيف ساخن أو كعمر كائن ولد ورحلَ وجاء بعده خلقٌ كثير .. همْ مثل الأفكار لا يصمدون في مَحكّ الحيّاة المولودة مرّة واحدة وغير القابلة للموت أو الإزالة أو الإزاحة أو التجزيء وحتى وإنْ حدث فنحن لا ندري ولا الأفكار التي ندركها ولا التي لا ندركها أي الهائمة في أرواحنا .. الأفكار الفطرية الطريّة المفكّرة المتواضعة غير المُعيّرة أو المُتجهة وغير الموصوفة بالشيطانية أو الملائكية أو الوسطوية.. تلك المجاهيل الغارقة في لا وعينا .. نحسّها داخليا ولا يُمكننا ترجمتها .. نقتات على رذاذ فتاتها اللذيذ .. في عالمنا الخاص اللا متناه واللا متشابه مع أحد .. أضع رأسي على الوسادة .. الشعر الأسود والأبيض يضغط حشوة الوسادة المتكوّنة من الصوف والقطن .. رُفات النبات والحيوان أنا شاهِدَتُها .. حرارة رأسي تنقل دفئها لما تلامس .. الوسادة مطعوجة من المنتصف .. منتصبة من الجانبين .. وسطها غارق في العرق .. كلما انتقلت رأسي إلى الجهة الأخرى أخذتُ بعض نفس .. الفراش تحتي ينعم بدفئي .. فراش الإسفنج الصناعي المغلف بقماش البوبلين الرخيص الذي اشتريته من سوق دينارين ذات عشية صيفية .. حيث تنخفض الأسعار إلي تخوم المجانيّة .. كل صباح أنشر الفراش على حبلٍ أفقي .. وسط بيتنا العربي العاري السقف .. يتهوّى مثلما نتهوّى .. تطهرّه الشمس من رطوبة الأرض والجسد والأثقال .. في المساء أنفضه .. أفترشه .. أنطرح عليه وأنام ..

كان جسدي منهكا
وعقلي لا تسألوا ..
ارتميت بملابسي
وحذائي الضيّق ..
ما أجمل الارتماء إذ تكون حائرا ويلقاك صديق ..
رحلتُ عبر النوم
والمصباح مُضاء ..

والمروحة تدور كرحَى

لا ينتهي شعيرها ..
دموعي دقيق
ودقات قلبي حُبيْبَات ناجية ..
أشعر بالخوف .. بالخوف ..
من عجوز تغربل ..
وتعيد كل حبّة ناجية إلي قلب الرحى ..

*(* حين صعدنا الـ ٣١٠٠ درجة المؤديّة من سفح الجبل إلى قمته مـررنا ببابٍ منخفض مقوس محفور في الصخور .*
في الأزمنة التي كان الناسُ يخافون فيها لمس القمّة كان يجلسُ هنا مَنْ يتلقى اعترافاتهم .
كل مَن يتسلق جبل الرَّب يجبُ أنْ تكون لديه يدان نظيفتان وقلب طاهر ، وإلا قتلته القمّة .
اليوم يبدو الباب مهجوراً ، تستطيع الأيدي الملطخة والقلوب الخاطئة أنْ تمرَّ دون خوف .
فالقمّة لم تعدْ تـقـتـل .)

* من الطريق إلى غريكو لـنيكوس كازنـتـزاكي

الـصور القديمـة المعلقة علـى الجدران بهـا أنـاس وعمـران .. الأنـاس ذهبـوا إلـى الـريح .. والعمران ذهب أكثره .. وما تبقى فمتصدّع متخم بالدعامات ..

أنا خرجت من صورة لم تـلتـقط ..

لم تـُرسم أو تـُنـقـش ..
اختبأت في موت حي ..
أراقب الآن ..
الأنهار البشرية ..
الكتل الصالدة ..
المغرورات الشامخة ..
المهاوي المتواضعة ..
البشر يموتون ..
العمائر والأبراج تـتعالى ..
وذات اختلال تهاوت وجثمت على الموت الماضي ..
الموت الحاضر يـئـن ..
نـبـتـته الغضّة تجاهد لرفع صلادة ثـقيلة ..
في البداية عـجـزت ..

وبعد البداية قـدرت ..

فمثلما الأحـياء تـتـحـجّـر ..
فالصلادات تـتـلـيّـن ..
في متحف القسوة ورود حـجـرية مُتطريّة ..
كلّ من لامسها من بني جلدتها سقط بعض جلده ..
بعـض مـلامحـه ..
بعض خـزازه ومستقبله ..
في زمن غـابر كنتُ يـانـعـا ..
اسـوحُ مـع السـوّاح ..
أتـمـتـعُ بـمـا يـروقَ لـي ..
لا أظـلـمُ أحـدا ..
كـنـتُ كـريـمـاً ..
أنـفـحُ النــادل إكـرامـيّـة بـاذخـة ..
والآن ..

وأنـا فـي زمـنٍ أغـبـر ..

أبـحـثُ عـن الـنــادل ..
فـلا أجـده ..
أبـحـثُ عـن مـراكش ..
فـلا أجـدُ بـغـداد ..

أعرف أنه ليس شعرا لكن وأنا أكتب الرواية في هذا الموضع كنت في مقهى انترنيت وحدث خلل في الجهاز صارت السطور قصيرة .. المتن قصير والهامش متسع .. كلمت الموظفة لتعدل لي الورقة فما عرفت .. استغرقت تقرأ وقالت لي جميل .. كانت واقفة خلفي وتعبث بأصابعها في أزرار الحاسوب وكنت أفكر آنذاك في بعض الأمور والقضايا الجانبية .. صديقة قالت لي اشطب اسمي من الرواية .. عليّ أن أخن إلهامي .. شطبتها .. أخرى أيضا قالت إن وجود اسمي يسيء إلي .. وما المناسبة أن تضع اسمي .. قلت لها أحببتك لمدة نصف سعة لأنك تحككين مؤخرتك على الكرسي كثيرا ولي ثلاثة أيام في صيام بسبب وحم زوجتي اللعين .. قالت لي بلاش سماطة .. أشطبه يا محمد فأنا كاتبة فضيلة اشتغل على نصي .. أريد لكلماتي أن تحصد الجوائز وتدرس في الجامعات وأن تقام لي حفلات التكريم البدوية وأن يدعوني الأدباء المحترمين الملتزمين إلى ولائم كلاب البحر والزمرين .. أنا كاتبة غادة سمانية جبرانية نزارية منفلوطية عبارية فاخرية تليسية نجمية محفوظية بلزاكية تكلسية جامعية أكاديمية وأنت يا محمد تلبس جلباب محمد شكري إن وجد اسمي في روايتك فلن أتزوج ثانية قلت لها سأتزوجك أنا لا تخافي .. تعجبني فيك النظارة والمزراب اللطيف بين أنفك وشفتك العليا .. لكنها رفضت فشطبتها وأفهمتها أنه لا علاقة لي بمحمد شكري في الكتابة فهو كاتب عالمي قرأته مثلما قرأت بقية الكتاب العالميين وبيني وبينه إعجاب شخصي لا علاقة له بالأدب أي أنني لو دخلت مقهى ووجدت طاولة يجلس إليها أو عليها محمد شكري وأخرى يجلس إليها أو عليها دكتورنا أحمد إبراهيم الفقيه فسوف أجلس لطاولة شكري لأن شكري حديثه شيق وغير مفيد وإن دفعت عنه الحساب فلن أندم وإن دفع هو فلن أشعر بذرة مَنٍ .. وإن وجدت معه فتاتين فسيمنحني واحدة ولن يدخرها للعمر الثاني .. و من يربط الجنس والتسكع والخمر والحشيش بأدب شكري فمفهومه ضيق وشيخوخي .. فأدب شكري معظمه فلسفي يرتكز على الفلسفة الوجودية وشكرى دائما همّه النجاح والرقي والتميز عن مجايليه وسابقيه وانا يهمني الفشل والحضيض والرسوب والابتعاد عن الظلام المشع .. وقبل أن تذهب هذه الفتاة قالت لي هل صحيح أنك وشيت في الشاعر التونسي منصف المزغني وأخبرت السلطات أنه صافح السفير الاسرائيلي في إحدى محافل هولندا الثقافية .. لقد قرأت ذلك في روايتك تقودني نجمة قلت لها ليس أنا يا صديقتي ولكن الذي قام بالفعلة وأخرج القصاصة ناقد معروف يدعوا إلى الحرية والى المساواة لكن عندما دونت الحادثة ووضعت اسمه ثار وجاءني أكثر من أديب صديق .. الأستاذ زعلان .. عيب .. أحذف اسمه .. شن درت فيه .. معاش يشرب في الحليب .. تو اتجيك امه تطلق عليك لسانها .. وزنه يتناقص .. نبضه يشتد .. تداهمه دوخة كلما صعد سلم العمارة ..ونظرا لأن الرواية تحت الطبع حذفت اسمه ووضعت اسمي مكانه .. فلا تتخذ مني موقفا أيها المنصف المزغني وأنصفني .. فأنا لا أسعى لأن أكون بطلا

إعلاميا تشكرني السلطات في ملفاتها وتشفع لي بهذا العمل البطولي إن تورطت يوما ما . . وفجأة هرب النور عن مقهى الانترنت فاحتضنتها وقبلتها عنوة .لأريها الفرق بين محمد شكري ومحمد الأصفر. . حاولت أنْ تتملص وتعضني لكن لمسة لنهدها العاهر أرختها وتركتها تتأوه ومع حضور عاملة النظافة بعدة شموع خرجت من المبنى برمته أتوغل في شوارع بنغازي المجنونة الظامئة لمضاجعة شوارع لذيذة في مدن مليئة بالشبق الطري الفتي الذي لا يدعي الفضيلة مع أبناء البلد أصحاب الحق المشروع في الجسد والروح واللزوجة .. لقد قال لي صديقي

شيطاني الباطن.. أكتب على الجسد ولا تكتب على المرأة .. وفعلا في بلادنا وجدت الجسد ولو أجد المرأة .. فالمرأة هي التى لا تعضني ماديا أو معنويا واقعيا معلش ..

كلما توغلّت .. أظلمت الدنيا في وجهي .. دائما البدايات لذيذة .. أول ملعقة طعام .. أول رشفة ماء .. أول مصّة حليب .. أول صرخة .. أول موجة بحر .. أول قطرة مطر .. أول دمعة .. أول نقطة دم .. الزمن يجري .. نجري خلفه .. يجذبنا خلفه .. ندفعه أمامنا .. هو يريدُ أنْ يولد في الموت .. الزمن ميلاده في نهايته .. الثورة ميلادها في نهايتها .. العكوس بداية والمكوس بداية .. والبداية نهاية .. والمنحُ نهاية .. المدونة ميلادها في نهايتها .. وأين نهايتها ؟.. لا أدري .. لا مخطط لي .. نهايتي لا أراها .. لا أشعر بها أو أعلمها .. نحن مخلوقات الفُجاءة .. نأتي فجأة .. ونختفي فجأة .. ونُبعثُ ربما فجأة .. أعبثُ بالكلمات .. ألصقها وأمحوها .. أحرقها في حطبٍ مجنون ..أغسلها في بركان مهرطق .. أنشر رمادها على حبال لا أراها .. وعندما تجف وتتعطر ألبسها على عريِّي فأجدها ضيقة .. ولا حائك جريء يلائمها لجسدي وروحي ونفسي الأمّارة بالديمقراطية ..

أظل في هذا الصقيع أكتب .. في مدينة قوريني العريقة .. على حواشي قبر باتوس أذرف دمعي .. أتشبّع بأنفاس فلاسفة الأسلاف .. ليبيين وأغريق .. تماثيلهم تخاطبني .. مسارحهم تراقص مقابرهم .. سواقيهم تسقي أشجارهم .. تطعم رفاتهم الممزوجة بخصب الجبال الخضراء .. كل أشيائهم تنزف ذكراها في مداركي .. أستمع .. أتشرّب .. لا أعرف أسماءهم .. أعرف وجوههم الجميلة .. أتأمل رشاقة نسائهم .. لماذا رحلوا ؟.. لماذا لم يبقوا هنا ؟.. الأرض لمن يعمرها .. لمن يملأها تماثيلا ومسارحا وحدائقا وغناء .. من طرد مخلوقات عالمة راقية كهؤلاء ؟ الفاعل يجب أنْ يحاكم .. يطرد هو .. لا أعرف أسماء مبدعي قوريني ليبيين وأغريق .. أقرأ عنهم في الكتب .. لكن لم أدرسهم لأفهم .. لا أحبّ الأساتذة والدكاترة والمدارس والجامعات .. كرهتُ هذه الأمكنة عندما رأيت الشهادات تُمنح بالمحاباة أو عن طريق الغش .. أكثر أطباء ومهندسي ليبيا من عائلات رأسمالية وبرجوازية أو نافذة أوما تسمى بالراقية أو الواصلة إلى أيور أو جيوب المسؤولين .. أكثر تجار السوق وأبناء الأكابر والنافذين لديهم بطاقات غير لائق للخدمة العسكرية بينما هم أصح من خنزير .. وإذهب أنت يا راقد الريح إلى الجنوب .. وتبهذل أنت يا راقد الريح بين ثكنات البلاد .. أي أحرس الأوباش المتسكعين المرفهين .. اللعنة وجمّ اللعنة على المتميزين بالتدليس .. لا أحبّ أصحاب الشهادات والبطاقات والكتيبات .. لا أحبّ المهمّين .. أحبّ الناس العاديين .. الحقراء الذين لم يلوثهم الورق المغشوش .. الذين يغسلون رؤوسهم بالماء فقط .. والذين يزيحون كسرة الخبز من الطريق بعد أنْ يقبلوها .. أحب الحضيض المحضض الصاعد في أحلامه دون ريح تسانده.

لا أعرف بالضبط أسماء مبدعي الأغريق .. أحبهم لجرسهم الموسيقي في أذني .. لو كان سقراط إسمه فلان أو فلتان ما أحببته .. لكن سكراتس أي سكر قراطيس كما أفسره على مزاجي .. ارسطو طاليس .. افلاطون .. فيتاغورث .. ديوجينس .. ستوكوفل .. ارشميدس .. كاليمخوس .. باتوس .. آه ما أروع هذه الأجراس .. أحبّ سقراط كثيرا .. أشفق عليه لأنّ زوجته تتعبه كثيرا .. تجعله يتفلسف كلما جادلته في توافه .. أحبّ سقراط ولا أفهم ما يقول .. ولا داعٍ لأفهم كلاما جميلا .. الكلام الجميل أتجرعه دون فهم .. لو حاولت فهمه سيتميّع .. لا داعٍ للذكاء في مسائل الوجدان .. أحببته كثيرا ولحبي هذا سبب بسيط .. في ثمانينات القرن العشرين ظهر لاعب كرة قدم برازيلي اسمه سقراط .. طويلا رشيقا كغزال .. ملتح .. يلعب بمهارة نقّاش ماس وبذكاء شطرنجي وبدون تعقيد أو تقعّر .. سهل ممتنع .. اللاعب الوحيد في العالم الذي يمرر الكرة بكعبه بحرفنة دون أنْ يلتفت للوراء .. لاعب فنان .. لو كان في كرة القدم شعرا فسقراط شاعر الكرة .. هذا اللاعب لازمني في لحظات الضيق .. في الضيق واستتي كرة القدم .. وقفت

معي .. دافعت عني بدحرجاتها الزاحفة وبهوائها المحبوس خلف الثقب .. ذات ليلة وأنا أسكن حي المحيشي طرق عناصر الأمن بابنا وعندما خرجت اعتُقلت على طول .. تعال خمسة يا شاب .. أركب اركب خمس دقائق ونعود بك .. خمس دقائق وليس خمس سنوات .. كنك مريّب .. لا تخف كلام رجالة .. واعتقل والدي الكفيف معي .. وطوال الطريق أدعو أنْ لا تتحول الخمس دقائق إلى خمس قرون .. وصلنا إلى مبنى تابع للمخابرات في إحدى أحياء بنغازي الراقية .. واستجوبني المحقق وكان السبب هو أخي الذي لم يجدوه آنذاك .. ولم نجده حتى الآن .. والذي كتبت عنه فيما بعد متأثرا هذا السريد .. كنت قلقاً أحملق في جدران الغرفة ذات الستائر الغامقة .. كان أبي مستلقياً على السرير .. يحملق في السقف بعينيه الكفيفتين ويتلمس بيده الوسادة التي بجانبه .. ولمّا لم يجد رأسي عليها همس ينادين فتركت الحملقة في الجدران وهُرعت إليه ، استلقيت قربه فضمّني بذراعيه وبكينا !.

في الصباح أسرّ لي : لم ننم في سرير واحد مذ بلغ عمرك أربعين يوماً .

دون نبس أمدّني الحجّاز بكوبي شاي ونصف رغيف قمح وكان أبي يصلي الصبح مفترشاً وجه الوسادة . بعد نصف ساعة أدخلنا على المحقق ، انقضت الجلسة في تعبئة وثيقتي التعارف .. وبما أننا أُخذنا كرهينتين فقد تمَّ إطلاق سراحنا في قيلولة اليوم التالي دون أنْ نعلم هل تمَّ القبض على أخي ؟ أم أنَّ قلبه رقّ لاحتجاز والده الضرير فسلّم نفسه .

مرّ زمان ولم ندرِ عن أخي شيئاً .. أحيٌّ .. أميت .. أسجين .. أم طليق ..؟! .. كل أصيل أُجالس أبي في المربوعة . كان يبدأ حكايته كعادته بجملته الشهيرة : لم ننم في سرير واحد مذ بلغ عمرك أربعين يوماً ! وإذ بي أستغل السياق واستدرجه إلى شَرَك السرد .

- وبعد الأربعين يوم يا حاج .. ماذا حدث ؟

كان يبتسم ويستغرق في الحكي بحماس الشيوخ الرزين .

- في الواحد والأربعين اشتريت لك مهداً خشبياً ، مقضَّب الجانبين ، مجدّر المقدمة والمؤخرة ، فرشته أمك بجلد خروف العيد وبعد أنْ أتمت إرضاعك جشأتك وقمّطتك ولفّتك في عباءة صوف ثم أرقدتك فيه .. ما أجمل هيئتك وأنت تطل شبعانا ، وجهك وردي ، عيناك ناعستان ، شفتاك بين حين وآخر تفاجئاننا بابتسامة ساحرة .. كنَّا لا نملُّ من التملّي فيك حتى خشينا أنْ نعينك ! لم تزعجنا البتّة ، فلا تستيقظ باكياً إلاّ عند الفجر إذ نكون قد نلنا كفايتنا من النوم الهادئ اللذيذ !

وتدخل أمي بخلبة نعناع طريّة فنبتسم وتبتسم قائلة :

- أثناء قطفي للنعناع فاجأني الفُوَاق ، أكيد كنتما تتحدثان عني .

- لا نتحدث عنك إلاّ بالخير .

- أعرف .. ولكنك تحب قلب الكلام وإلباسه ! أنت ليس (على نيتك) كأخيك .. واغرورقت عيناها بالدموع وشاركها أبي الحزن غير أنْ أبي لم يجارها في البكاء .. لا أذكر أنني رأيته يبكي جهاراً سوى ليلة حجزنا عندما طوّقني بذراعيه وضمّني إلى صدره بحنو فلم يتمالك نفسه وانهار معولاً ..

تركتهما وخرجت إلى وسط المدينة ، في الطريق تخيلتهما متعانقين ، يحتسيان شاي الأصيل المنعنع ويتهامسان بالذكرى فاطمأننت عليهما ، وحالما وصلت تهالكت على كرسي في مقهى رصيف أرشف قهوة (الإكسبريس) المرّة وأدخن مكلماً نفسي : وهل الحزن سيعيده ؟ وهل الفرح ؟ وهل النسيان ؟ وهل .. ؟ وهل ... سيعيده ؟ وتسمّرت زمناً أتابع أخبار العالم حتى مللت فقفلت عائداً حيث وجدتهما هادئين . أبي يسبّح بمسبحة العقيق وأمي تقشّر فصوص الثوم وتهرسها في المهراس ثم تكشط الهريس بملعقة إلى داخل الطنجرة الفائرة .

هامست أبي : لم ننم في سرير واحد مذ كان عمرك أربعين يوماً !

- وبعد عام ولد أخوك ونقلناك إلى سرير أكبر في الغرفة المجاورة ، وكبرت وكبر أخوك وكبرنا معكما في طاعة الله ، وتزّوجت أخواتك الواحدة تلو الأخرى .. وتركت الغرفة المجاورة إلى المربوعة إلى شقتك في الطابق الثاني ، وانتقل أخوك من الحجرة المجاورة إلى المربوعة حيث صار يقرأ ويتعبّد !.. وها أنا ذا في المربوعة وحيداً أحكي لك ما أنت قارئه على تغضّنات جبيني .

كان البخار الشهي يتصاعد من وعاء الحساء المنكّه بالصعتر والحلبة ، وكنت أسكب الماء الدافئ على يديّ أبي ثم أناوله المنشفة النظيفة بينما أمي منهمكة في تفتيت رغيف التنور المتفحم الحواف .

لا شيء يشغل بالي الآن ، وحتى وإن كان فقد عوَّدتني الأيام على إرجاء المنغصات إلى ما بعد الانتهاء من المسرَّات ..

- هيَّا تفضلا العشاء جاهز .

تعودت أمي على الأكل بمفردها ، مذ صرت أعي لم تسجل ذاكرتي أي منظر لطبق واحد جمعنا ، حتى في عيد الأضحى كانت تقدم لنا الشواء مع أبي بينما تتناول حصتها مع أخواتي أو الجارات .. هذه الليلة جربت اختراق الناموس ودعوتها لمشاركتنا إلا أنها اعتذرت بلطف :

- كّلاّ ولا تهتما بي .. أبقيت حصتي في الطنجرة سأتناولها فيما بعد .

آنذاك توقف أبي عن اللوك والازدراد وهمس لي :

قد لا تتناولَها .. ألحح عليها أرجوك .. أشعر أنها بدأت تضعف وتيبس عن ذي قبل ، ما عدت أسمع دندناتها وهي تعجن أو تنقّي أو تكنس . المرأة إنْ صمتت فذاك عين الخطر !.

وقبلّت جبينها هامساً في أذنها (علشان خاطري) وعاهدتني أنْ تأكل فور ما تنتهي من صلاة الشفع والوتر .

آه من حياة كهذه ... الهدوء يقتلني والسكينة ترمي بي في جُبٍّ من سعير . والصبر جاثم على توقي للارتعاش .. والرتابة تفزعني تجعل جنوني مفروغاً منه .. مللت العيش في الانتظار .. قطعة مني تائهة .. مجتثّة قبل ذبحي ..جرحي غائر .. متمرد على الاندمال .. النسيان أثبت فشله .. غض الطرف صار عملة نادرة .. الذاكرة لبلاب يرشف روح المطر .. يتساقط جدار متى .. فتنتعش متى وتتطاول .. جذرها يوخز العصب .. أبي يتألم .. أمي تتألم .. كيف سيرحلان دون زوَّادة . قد يجداه هناك في انتظارهما .. وإنْ لم يجداه .. كيف يمكنهما العودة إلى هنا ؟ وهل أبقى بعدهما ؟.. حسناً سألحقهما .. ولكن قد لا أجدهما هناك .. ولا أجده أيضاً هنا .. ولا يجدنا إنْ هو خلسة عاد !. فنتوه .. ونتوه .. ونتوه جميعنا في متاهة سرمدية ..

تلك الليلة كنت ارتدي جلابية بيضاء ولحيتي طويلة بعض الشيء وعندما سألني المحقق .. نعرف أنك لست مطلوبا .. ولكن لماذا أنت هكذا ؟! .. جلابية بيضاء و لحيتك طويلة مثل الزنادقة .. قلت له الجلابية البيضاء أنام فيها دائما وأنتم أخذتموني من فراشي واللحية أقلّد كابتن البرازيل سقراط .. وفعلا كنت أقلد سقراط في لحيته فقط .. أما في لعبه فأعجز دائما .. وإنْ حاولت تمرير كرة بالكعب جاءت خطأ وبناها الفريق الخصم هجمة عكسية خطيرة على مرمانا .. ويتم لعني من المدرب والجمهور وزملائي المدافعين .. لعنة حب وليس لعنة كره .. نسميها دعوة غلاء ما فيها داء .. يا سطا كسرتنا ظهرنا عطك كسرة في كرعيك القبج ..

عندما عُدت في اليوم الثاني وجدت زوجتي مريم وأمها وأمي عند الباب .. رأيت الفرح في عيونهم .. عانقتهم جميعا .. وعانقت ابني الرضيع وتشممت رائحته ورائحة اللبن حول شفتيه ثم رقصته حتى ضحك .. وخرجت للجيران أعانقهم .. حتى من كنت على خلاف معهم عانقتهم .. كلهم يسألون .. ما المشكلة ؟.. وكانت إجابتي كما لقنت .. (صك الأزرق) لا أدري ..لا أدري .. قالوا لي عليك بالبحث عن أخيك .. معرفة مكانه .. وإنْ استطعت القبض عليه فذلك يعني أنك ثوري مناضل وأنك تقدم خدمة كبيرة للثورة وللشعب .. في أول يوم كانت سيارة بيجو تتبعني .. استعرت سيارة فولكس فكرونة زرقاء من صديقي زيكو .. درت بها في شوارع المحيشي المحفرة .. وفي الفضاء الذي أمام بيتنا .. ذهبت إلى غور الجخ .. وبحيرة المجدوب .. وسواني عصمان .. والسدرة .. أعرف جيدا أنْ أخي لن أجده هنا .. فقد تجاوز مرحلة التسكع والضياع .. قرب الكسارة القديمة لمحت شابا جالسا .. فورما اقتربت منه بالسيارة فرّ هاربا .. لم ألاحقه .. ولم أتبيّن ملامح وجهه وجدت حيث يجلس مصحفا شريفا مغلفا بورق لمّاع نظيف بجانبه بعض التمر وقنينة ماء .. تركت الأشياء مكانها وغادرت ..

في اليوم الثاني سلمت الفولكس لزيكو .. وواصلت تدريباتي في نادي السواعد .. لم يتصل بي أحد .. ربما قبضوا على أخي .. أو أنهم يئسوا من البحث .. أو أنّه غير مهم بالنسبة لهم .. فالرؤوس الكبيرة تمّ القبض عليها والتعامل معها .. ومرّ زمن .. وجاء عيد أصبح الصبح .. وتمّ إطلاق سراح معظم السُجناء .. وهدموا السجن وشيّدوا مكانه حديقة .. وأعيدت جوازات الممنوعين من السفر إلى أصحابها .. ورفعت العوارض عن البوابات .. دخول وخروج بدون اجراءات .. وعمّ الآمان والفرح والإطمئنان .. وكل عجائز ليبيا صارت تدعو بالخير وتغني..
.. سلم ولد البادية .. خلا الزنزانة فاضية ..

فاستأنس أخي بالمناخ الحر الآمن .. وظهر من جديد .. ولم يُقبض عليه أو يضايقه أحد .. وبدأ في تكوين حياته .. وخطب أخت أحد أصدقائه .. واشترى غسّالة وفرن وبرّاد ومكوى وشوّاية ومذياع وغرفة نوم ومكتبة وسجّاد وطنجرة وكسكاس ومهراس نحاس وموقد بريموس وغربال وجرّة ماء .. لكن فجأة .. وبعد مرور عام واحد من أصبح الصبح .. قبض عليه .. وقبض على كثيرين .. كانت حملة كبيرة .. هذه المرّة لم يطلبني أحد .. لم أتمكن من زيارته في السجن .. أخذوا مني البطاقة الشخصية وأرجعوها لي بعد دقائق .. بإمكانك أنْ ترسل له أي شيء خال من المعدن .. علب الحليب المسحوق أفرغها في أكياس بلاستيك .. ملابس .. مؤن .. كتب .. الزيارة ممنوع .. أخوك فئة (أ) .. كل شهر نعطوهم كيسا مليئا بالمواد الغذائية والملابس والمنظفات نكتب على الكيس اسمه رباعي من جميع الجهات .. ثم توقفنا .. نحن لا ندري عن شيء .. ولا قاضي أو محامى أو مسؤول يعلمك بمصير أحد .. في إحدى المناشط الثقافية الرمضانية ألقى الأستاذ بن عتيقة محاضرة عن حقوق الإنسان وأطنب في الحديث عن رواية عبدالرحمن منيف شرق المتوسط .. وانتظرت أنْ يتحول إلى وسط المتوسط .. شمال افريقيا .. استبشرت خيرا إذ وصل إلى هضبة السلوم لكن نقطة نظام من مسؤول الإعلام والثقافة والشعر العمودي جعلته يقفز قفزة ثلاثية ليطبَّ في سهل بن قردان ومن ثمّ في طنجة .. أنتظرت أنْ يعلق مارشة خلفية (تعشيق خلفي) ويعود إلى الوطن .. لكنه لم يفعل .. ابتعد .. توارى .. خرج من افريقيا برمّتها .. توغل في أدغال الفلبين والاسكيمو وامريكا الوسطى واللاتينية .. تناول الرقيق السود والهنود الحمر والتاميل والأكراد والتبت والمارينام والكمبود وجلاديهم الخمير روج وغيرهم .. ابتعد عن الأذن وولج في عمق الخصيّة .. حاولت أنْ أسأله مباشرة .. لكن تسريحة لحيته الشبيهة بالقفل جعلتني اتراجع .. كان الجو ملغوما .. غير مناسب .. الناقد أدريس المسماري أخذ الكلمة وصار يتحدث عن الحرية والوطن وحرية الرأي والتعبير والمطالعة والمحفوظات والأناشيد ورياض الأطفال وطالبَ بأنْ تعطيهم التغذية المدرسية أكياس تمر فزاني مثل زمان .. وترك تمر الدقلة والبكراري وبدأ يتحدث في صلب القضية بحرص ومواربة .. يحوم كعاشق يخاف إخوة عشيقته .. كل

الحضور يتملى في وجهه .. يتكلم كلمتين .. ثم يخربش شنبه بإصبعه فيرجع في كلامه متعكزاً و يعوّج الكلام إلى مسارب

غامضة .. يبدأ كلامه شعيرا بوجهه وينتهي به إلى سمسم في قارورات اصبع .. تكلم بعده أحد المشاركين عن ثقب الأوزون وعلل دكتور جامعي إتساعه الحالي لارتفاع صرخات جياع الهنود الحمر وصديقهم طرزان وعارضه آخر أن سبب الإتساع هو صخب أغانى الفيديو كليب وبنادير الحضرة العيساوية .. وأراد الأستاذ أدريس التحدث من جديد عن تمر المدارس القديم فألجِمَ بشدة فهدد بإصدار مجلة تمورية سيسميها عراجين .. وفعلا أصدرها في قاهرة المعز شتاء ٢٠٠٤ .. واختلط النقاش بحوابل ونوابل الكلم وفي الوقت المناسب تدخل الكوميديان خالد كافو بطل مسلسل قالوها صارخا من جهاز التلفاز :" *هذا ليس موضوعنا* " .. فهدأ المشاركون وتبادلوا ابتسامات المجاملة وضحكات التعايش وقراطيس الزريعة المالحة .. بعد هذه الدردشات تكلم ثلاثة أوأربعة نفر .. لا أدري ما قالوا .. ثم رُفعت المحاضرة في تقارير ..أما بقية الحضور فلم يطلبوا مداخلات .. أكتفوا بالإستماع والاستمتاع بالبيتي فور والكعك والملفيه والببسي كوثر والقهوة المغشوشة والشاي الأصلع من الرغوة .. بعدها غادروا تاركين مصوري الإذاعة يلملمون أسلاك كاميراتهم .

المطر يسقط والقمر لا يغيب .. منذ تلك الأيام لا نعلم عن أخي شيئا .. نعيش على ماء الأمل .. نقتات على خبز الرجاء .. نريده أنْ يطرق بابنا ذات صباح .. ذات حلم .. نسينا ملامحه .. صوته .. رائحته .. لكن ما اشتراه لزواجه مازال في صناديقه .. لم يركبه الصدأ أو تغزوه الصراصير .. يزيته الأمل بعطر البقاء .. كل أسبوع أمي تتفقده .. تمسح ما اعتروه من غبار .. وتستند إليه تبكي .. ثم تشرب من جرّته جرعة ماء ..

إنْ كان ميتا فعليهم أنْ يعلمونا .. البيت يعرفونه جيدا .. وإنْ لم يعرفوه فمتطوعو السبّابات لا حصر لهم .. ومرّت الأيام .. و الأوجاع تتزايد .. والأمل يتلاشى .. وذات مرّة عندما بدأت في الكتابة للصحف والمجلات .. زارني في مدرسة شهداء الهاني رجلا أمن بيد أصغرهم كرّاس إملاء بالٍ والآخر قلم وعلبة سجائر رياضي .. يريدون بيانات عن أخي .. أعطيتهم مع البيانات جريدة أخبار بنغازي بها قصة حكاية جورب .. قلت لهم اعطي هذه القصة لمن أرسلك .. منذ ذاك اليوم لم أرَ وجوههم حتى في الشارع .. حكاية جورب كتبتها ذات فجر بارد .. كتبتها في مربوعتي القديمة بعد أنْ صليت وزوجتي مريم الفجر .. أريدها قصيدة عن مِداس مثقوب تركته ذات ليلة في القمامة .. لكن لم أقتنع بشاعريتها فقلبتها إلى نص سردي مُحيلا المِداس إلى جورب وبدأتها بضمير المتكلم أنا .. أنا جورب رخيص ، ثمني نصف دينار ، أنتجتني تشاركية صناعية ، وزع هامش ربحي على عناصر الإنتاج ، اشتراني إنسان بسيط ، منتج مستور الحال ، تزوج هذا المنتج من فتاة بسيطة ، سكن بها في شقة صغيرة عاشا فرحين سعداء .
كانت العروس لطيفة جداً معي ، تغسلني كل يوم بماء دافئ ، لا تحرق بشرتي بالصابون ، لا تكويني بالبوتاس ، ولتنعشني تنشرني في الشرفة فيجففني نسيم بنغازي العليل .

كنت أناجي هبّات النسيم وأتذكر دعكات أناملها المخضّبة بالحنّاء ، كانت تدعكني ببطء كعلكة في فمها المسوّك كنت أنظر إلي الجورب اللحمي المركون قرب الباب تحت مرآة (دولاب) المدخل ..

وذات يوم مرضت العروس ، ربما حملت ، فغسلني العريس بماء بارد في عزّ الشتاء ، أوجع أنسجتي بدعكاته الخشنة ، كاد أنْ ينسل أسلاكي ، كاد أنْ يفض مطاط عنقي ، اختبأت منه - الله غالب - في رغوة الصابون .. وعندما نشرني على الحبل نسي أنْ يشد أذني (بمساكة) فقذفتني

الرياح بعيداً لأسقط في فناء دارة فخمة ، أخذت الرياح تقلبني داخل الدارة من مكان إلي مكان ، كأنها توضح لي الفرق بين الشقة والقصر .. وفي إحدى الأركان كانت حجرة الغسيل ، اقتربت منها حذراً ، كان ينبعث من داخلها صوت طنين ، نظرت وظهري ملتصق بمقبض الباب ، رأيت الخادمة ترمي قطع الملابس في جوف وعاء معدني متصل بخيط يتأرجح من علبة في الجدار ، هذا الوعاء الطنان ليس كليانا الصغير (طست معدني لغسل الملابس) الذي لا يتصل بجسده أي خيط يربطه ، خفت أنْ ترمقني الخادمة فتظنني من العائلة وترميني لأدور بسرعة معهم ، إبتعدت عن الحجرة واقتربت من حبل الغسيل ، لمحت جورباً ملوناً من حرير يتمايل كطاووس مقروص بمساكة جميلة ، سألته بلغة الجوارب عن الوعاء الملتهم للملابس ، لم يفهمني أول مرة لأنني لم أنطق جيداً بسبب ثقب صغير عند موضع إبهام القدم .. كررت عليه السؤال فأجابني بجوربية مكسّرة : هذه غسالة (إلكتريك مستورد) . شكرته دون ابتسامة ، استغربت لعدم وجود مثل هذه الغسّالة في بيت صاحبي العريس ثم عزوتُ السبب لإرتفاع ثمنها ، ولكنني سعيد لعدم وجودها ، فالملابس داخلها تدور بسرعة كاتفاقات سلام ممرر ! ، أنا سعيد بغسالة العشرة أصابع الطبيعية ذات الرائحة الجميلة والملمس الناعم ، والدعك ببطء والنظر إلي دولاب المدخل حيث الجورب اللحمي الخجول ، آه كم هي جميلة الشقة ، وأنا في متعة استرجاع ذكرياتي الجميلة فاجأني هجوم خرطوم حلزوني يتلوّى كثعبان يلقف كل شيء ، تراب ، غبار ، أوراق شجر ، قصاصات ورق ، جذبني بعنف إلي جوفه ، وجدت نفسي داخل ظلامه . احتميت بورقة شجرة وابتعدت عن أسلاك مكهربة داخله ، فرحت لأنني لست مبللاً وإلا صُعقت ..

في المساء أفرغوا جوف (المكنسة الكهربائية) في برميل كبير للقمامة مرابط أمام الباب الفولاذي الحصين . أمضيت ليلتي في جوف هذا البرميل المقزز تذرعت للأوساخ ورائحتها النتنة بكل ما أسعفتني به ذاكرتي من روائح العروس ومطبخها ومن عرق المنتجين وروائح المنتجات حتى الزيوت المنبعثة من آلات تصنيعي تذكرتها فدافعت عني ..

في الصباح كانت إجازة العريس قد اكتملت ، وتبصّل شهر العسل سعادة وعاد المنتج البسيط إلي عمله في شركة التنظيفات العامة ، ما إنْ سكب البرميل في صندوق سيارة القمامة ، حتى لحت له من بين الأكوام ، رآني ، تبسم لي ، التقطني بحنو ووضعني في جيبه رغم تلوثي .. فأنا قريب من قلبه .. أنا من شهود ليلة دخلته . بعد الدوام عاد بي إلي الشقة ، ناولني للعروس : عرفتني ، طارت فرحاً ، زغردت ، اطمأنت على عريسها من السحر ، نفضتني من الغبار ، قبلتني ، ثم لبستني في يدها قفازاً ..

لا أدري كيف مرّت الأيام بعدها .. صرت أقرأ بنهم .. بجنون .. أنتظر أنْ أقع لأقوم كما يقول صادق النيهوم .. لكنني لم أقع ولم أقم .. ولم تقم لي قائمة .. مازلت مستغرقا في هذا الإهتمام .. أقابل الشعراء المهمّين الشاعر علي الفزاني الذي قال لي : *دُسْ على قلبك لتكن .. قلت له :أحبُّ فتاة .. قال لي : الكتابة لا تقبل ضرّة .. قلت له : درناوية .. فقال لي : يا لهفي عليك .* الجيلاني

طريبشان .. سالم العوكلي .. محمد الفقي صالح .. عبدالحميد بطاو .. أحمد بللو .. عبدالسلام العجيلي .. على الخرم .. لحسن بلغم .. نعيمة الزني .. سميرة البوزيدي .. وجدان شكري عياش .. صالح قادربوه .. صبري ليسير .. والكتاب الرائعين المحبين للأدب منصور بوشناف .. حسين مخلوف .. سالم الكبتي .. ادريس المسماري .. محمد المسلاتي .. سالم العبار .. رضوان بوشويشة .. فتحي العريبي .. منصور العجالي .. أحمد الفيتوري .. حسن الفيتوري .. محي الدين كانون .. نادر السباعي .. جنينة السوكني .. زياد التواتي .. طارق الشرع .. أحمد التهامي .. محمد المغبوب .. صلاح الغزال .. عبدالله الزائدي .. حمد المسماري .. فتحي الورشفاني .. علي الجهاني .. محمد بركة .. الصادق الحراري .. بوبكر السوداني .. عبدالكريم المصراتي .. محمد العصاوي .. امحمد الوسيع .. خالد المغربي .. سعد المغربي .. أيمن الفاخري .. محمد

العَبيدي .. مصباح الفرجاني .. خميس التاجوري .. حسين الدهماني .. فتحي حسين .. مرعي ساطاش .. سعد الصنعاني .. محمد عمارة .. عبدالله العبيدي .. حسين البرغثي .. سالم هابيل .. جابر نور سلطان .. زينب شاهين.. سعاد الجهاني .. إلهام بن علي .. محمد مفتاح بوشعالة .. مصطفى المبسوط .. بوبكر الفرجاني .. يونس نجم .. عادل القماطي .. ابراهيم القديري .. عبدالباسط الزنتاني .. فرج فرحات .. أحمد سالم اسماعيل .. عمر ابوزيد .. ابراهيم الشلماني .. سالم بودومات .. عبدالباسط الجارد .. فهمي كويري .. عبدالله عبدالمحسن .. فتحي القابسي .. شريف الفارسي .. عياد العشيبي .. على الفلاح .. بوبكر حامد .. خالد الفاضلي .. خميس مبارك .. وأناس كثر لا علاقة لهم بالأدب ولا أعرفهم أعرض عليهم نصوصي في محطات الحافلات وعلى الأرصفة وفي المقاهي وعلى شاطىء البحر وحيثما أجد كائنا يسمعني ويقرأني .. بعض المنتقدين لوضع هذا الكم في الرواية أقول أن كل إنسان أضع إسمه عزيز علي .. أحب أن أنقشه في أوراقي فلا استطيع البقاء وحدي على الورق وفي التاريخ وكل هؤلاء أحبهم وأعتز بهم وكل هؤلاء أناس مهمين وفي كل قلب منهم حكايات جميلة وذكريات خالدة وأساطير ستولد طبيعيا في وقتها القادم .. دائما أضع أسماءهم في كتاباتي فهم مثل محمد شكري بهار شهي لن يفسد طبخاتي لأنني أضعهم بحب ومودة وعن طيب خاطر ودون أي مصلحة .. سأضعهم دائما ولتخرب الرواية فهم أهم من كل خربشاتي .. كذلك الفنانين التشكيليين العباني والتليسي والتيجاني والفاخري والتميمي وديهوم وغيرهم من المبدعين .. وذات صباح ذهبت للمبدع خليفة الفاخري في (البنكينا) ميناء الصيد بجليانة .. لم أجده ولا صديقه الكاتب محمد عقيلة العمامي تركت لهما في المكتب ورقة بها هذا الهوس وغــــــــادرتُ :

" الخراطيم المتدفقة بالبلل ، تخنق أنفاس النار ، النار تخبو تدريجياً ، كقرص شمس يغوص .. الصهريج قارب علي النفاد والنار على الخمود .. في المساء تبعثرت بضع نجيمات واختبأت هالة النور خلف أكداس السحاب ..

الصهريج قارب على النفاد والخراطيم بدأت ترتخي كأيور خارجة للتو من أفران البكارة ، النار تنحدر إلى الاضمحلال ، تسلّم الإنطفاء اللسان تلو الآخر .

عند الشروق ، تخاصم طائران ، حول من يورد الماء ومن يحتطب القش ، تحول الخصام إلي شجار ، الخراطيم لقت أفواهها ! وجذوة النار أطلت !!

تطور الشجار إلي تنيف ريش ، إحداهما فقد جناحه الأيمن والآخر الأيسر ..

قبل أنْ يسقطا التصقا ليستمر التحليق ولو برأسين وذيلين وأربع مخالب وجناحين بعيدين عن هوس المناقير .. "

زمن طويل لم ألتقِ خليفة الفاخري ولم أعاود الذهاب إلى البنكينة وصدفة التقيته في منتصف شارع عمرو بن العاص ، كان ذلك قبل رحيله الفجائي بإسبوعين تقريبا .. إنسان رائع متواضع عجول الخطوة واسعها .. يصطحب صبيا يافعا سمينا بعض الشيء .. يحاذيه صديقه الكاتب محمد عقيلة العمامي .. العمامي يعرفني و الفاخري لا .. صافحتهم وتبادلنا حديثا قصيرا مقتضبا .. لم نتعرف بالأسماء .. لكن القلبين امتزجا ..

كان رجلا طويلا .. ملامحه واضحة .. تكسوها سمرة باهتة .. شعره أبيض متروك على حاله .. خال من الصلع .. كل شعرة تحكي حكاية انسانية بيضاء .. يرتدي معطفا قصيرا وبنطلون قماش وحذاء كمّوش دافىء يحاشيه بقع الآبار السوداء الفائضة من البالوعات بتوسيع الخطوة وتضييقها

.. شكله إجمالا يشبه فيلسوفا أغريقيا .. هذا الفيلسوف لم يطرق باب الفلسفة والتفسير .. إختار السرد البسيط المشبّع بالدلالة غير المتكلفة .. السرد القريب من الأرض والناس .. المحلق بروحه في أحلام التراب .. الطائر الذي يشمخ للأرض ليلتقط قوته .. المالك لأجنحة نوارس قوية تغامر به إلى مسافات جريئة من الفهم العميق .. ستزدان بنغازي كثيرا بتمثال للفاخري يتوسط سوق الحشيش أو سوق الحوت أو مرفأ جُليانة .. سنراه كفيلسوف مرّ من مسارب الزمان وآثار ردائه الشفاف تحرث الأرض بمحراث يجرّه براق يذرف مِسك السماء ..

فلاسفة الاغريق لا أفهم فلسفاتهم .. لا اهضمها .. لكنني أحبّهم فطريا دون سبب .. أحبّ بلادهم التي زرتها عدّة مرات .. مناظرها رائعة .. وأكلها شهي .. خاصة الزيتون والجبن والسَلَطة .. بناتهم لا تسأل .. عنبهم لا تسأل .. نبيذهم لا تسأل .. سمكهم لا تسأل .. بلاد المرمر .. بلاد النصاعة .. لا تحتاج إلى صابون إنساني .. يكفيها ماء المطر .. الشمس ترى صورتها على جبالها الشامخة الخضراء والمرمرية والثلجية والترابية .. و القمر يرى جاراته النجيمات وامضات على صفحات شواطئها .. يسمونها الدول الأوربية الشمالية كناسة أوروبا .. والحقيقة الصادحة أنّ القمامة دائما في الشمال .. وخاصة الشمال المائل غربا .. وأراهن لو ظهرت هذه العقول في مكان آخر غير اليونان ما أبدعت .. فاليونان عتبة الخير والبركة .. بوابة الإنسانية إلى عالم السعادة .. يكفيهم فخرا فقط الألعاب الأولمبية والمدينة الفاضلة وسوفوكل وبنداروس وهوميروس وهيردوت وكالماخوس القوريني وارسطو وافلاطون ونيكوس كازنتزاكيس وكفافيس ويانيس رتسوس .. فكل هذه القيم قمامة .. قمامة تصلح لأنْ تكون طهارة للصابون ..

عندما اشتغلت في ميناء بنغازي فترة وجدتني دائما أحوس بجانب بواخر الرقريق القديمة .. أدخلها أحادث بحارتها .. وعندما أطلب منهم زجاجة عنب يقولون لي ممنوع كلبوش بوليس .. لكن يمنحونني كأسا .. ويقدمون لي الزيتون الأخضر المحشو بالفلفل .. وبعد الكأس الثالثة يقولون لي .. يلا .. باي باي .. مع السلامة .. فأحرن أرفض الذهاب مشيرا إلى صورة عارية معلقة على الجدار .. فيقول القبطان : *أنت ولد صغير شيطان* ويمنحني إياها فأطويها إلى أصغر حجم ممكن وأكمش عليها راحتي وأغادر سعيدا .. أنزل من السلم مبتهجا وأنا في غاية المرح .. ألوّح لهم بيدي .. وكلما ابتعد عنهم ألوّح أكثر .. وعندما سألني شرطي البوّابة ماذا هناك يا شاب .. لماذا تشير إلى السفينة اليونانية ؟.. قلت له : أنا أهتف ولا أشير .. ألا ترى راحتي مقفلة على هيئة قبضة ؟!

أكتب في هذا الصقيع .. في هذا العري اللعين .. المشاكس لثوابتي المتخلخلة من الجذور .. ثوابتي بخار .. متغيراتي سراب .. جذوري خراب .. لا أدري ما سأكتب ، لا أدري أين سأقذف بحروفي المحبّرة وأين هو رحم المجهول الذي أنشده .. كثير من الأسماء تراودني الآن لألعنها .. جماعات أخرى تريدني أنْ استفزّها .. وعناصر الدرك والمخابرات والعولمة والإرهاب والنظام العالمي الجديد والقديم ينتظرون بفارغ الصبر أنْ ألعن الرئيس أو الزعيم أو الملك أو مجلس الحكم أو الإله الأرضي أو السماوي .. يريدون أنْ أفعل ذلك مباشرة .. بالاسم بالصوت والصورة بالبصمة والتوقيع بالشهود من الجن والإنس بالصراحة والبوح .. في هذا الزمن لابد أنْ تكون الحجّة بيّنة .. فمنظمات حقوق الإنسان تراقب .. وقراصنة العالم الأبيض يبحثون عن مروحة يلوح بها أي باي أو داي أو ولي أمر أو عهد (سبب مباشر) ليلتهموا دويلته مُقبلات .. لكن كيف ألعن .. وما يُجدي اللعن .. وهل بلاغة اللعن ستصلح الحال .. وتعيد ما هدر .. وتغرس الابتسامات على أفواه الصغار والكبار والنصف عمر .. وتنبت العشب .. وتخضّر الأشجار .. وتُفجّر الآبار والأنهار .. وهل حرّكت اللعنات ورقة توت جافة .. أو أشعلت سيجارة مشتعلة .. بل العكس .. سأشكر هؤلاء .. وأمدحهم .. وأتمسّح بعتباتهم نكاية في المستفزّين طارحي (الكاولينا) مُمهّدي الطريق للتغرير .. لأعذب المنتظرين .. ولأقول لهم : ويو ويا دحية فيك

شويشيو .. ولأوغر إصبعي في أنوف القوادين .. فأنا لست ثائرا .. ولا متمردا .. ولا لا شيء .. أنا شيء تائه .. مسافر دون مطيّة .. سابح في فلك جاف .. عليّ أنْ أجدني .. عليّ أنْ أتفرغ لكتابتي بعيدا عن القضايا السطحية .. وماذا تضيف للعالم إنْ لعنت حاكما .. فالحاكم ملعون من يومه أبدا ودائما .. من يستطيع أنْ يحصي كم لـُعن الله مرّة في التاريخ ؟ .. فما بالك بحاكم بشر يأكل ويشرب ويتجوّل في الأسواق .. لن تضيف شيئا سوى ترقية لأحد خنازير المخابرات أو جاهل من جهلة رقابة المطبوعات والمصنفات الإبداعية .. لن تضيف شيئا يذكر .. حتى أنّ لعنتك سترتد إليك .. وتصفعك قائلة لا مكان وجدت لأنغرز فيه .. لا أريد الموت .. العن بي نفسك .. ضياعك .. وإلا تكلمت مع مخزون اللعنات في آبار الإلهام فما يعود يخرج معك شيئا .. ألعن نفسي .. وأخرج كل اللعنات من نفسي .. ألعن بها نفسي مرّة واحدة وأستريح .. لكن كيف سأعيش وقلبي خال من اللعن .. الذهب يتكسر إنْ تركه النحاس .. سأخرج نصف اللعنات .. ألعن بها نفسي .. وأترك الباقي مخزونا استراتيجيا للأوباش .. سأتحدث عن الحب .. عن الشوارع .. عن السماء .. عن الأسواق ..

أترك الحكام في حالهم .. وهل الدنيا ضاقت لنتحدث عن الحكام ؟! .. أتركهم في مآزقهم .. فهم مثل الإيدز والطاعون والوسواس عقاب إلهي لكل المنافقين والخونة والأغبياء و القوادين وعديمي المروءة وفاتحي الفم .. وربي يطول في أعمارهم .. حتى يشبعوا توليف .. ويورّث الحكم لبنيهم وذويهم وعشيرتهم على مدى الدهر .. ومن يموت منهم يجد متكأه في البرزخ مفروشا جاهزا .. فكل الموتى من رعيتهم ما إنْ يروهم في عالم البرزخ حتى يركعون .. الهالة دائما لا تترك صاحبها ميتا أو حيا أو منتظرا .. ربي يطوّل في أعمارهم .. فكيف ستعيشون بدون حكام .. أيتها الأمة التي لا تنتظم ولا تعمل ولا تأتي للطريق القويم إلا وعلى رأسها مِسواق زيتون .. لو وضعوا رئيسا دنيويا على الصراط فكل الخلق سيعبرون ولا يسقطون .. وستجوع النار وتؤجّر حطّابين .. سأذهب إلى مراكش .. فهناك عشت أياما جميلة .. آتاي بالشيبة وقهوة بالوسكي وكسكسي بالبرقوق وعصير برتقال وبنات فائحات قمحيّات وبيضاوات وخمر وحشيش وزيارة أولياء وجبال ثلجية وحضور مباريات كرة قدم وشطرنج وركوب خيل وسهرات حتى الظهر مع خوان غويتسلو وامبرتو إيكو و باولو كويلهو و ميلان كونديرا وهنري ميللر وسميراميس ومحمد شكري ورجاء عالم ومحمد الماغوط و حسن بحراوي وخالد النجار وديدوني قرطاج ومحمد بنيس وعبدالله البردوني وزرقاء اليمامة وطلحة جبريل ونعوم كامبل و ياسين عدنان وحبيبته الأمزونة بانتسيليا وسلمى حايك وجمانة حداد وعبدالله المقري ونوال المتوكل وأحلام مستغانمي وفاطمة ناعوت ومادلين طبر وإيناس الدغيدي والماركيز دي ساد ويحي شاهين وسوزان عليوان ورامز النويصري ورابعة العدوية ومفتاح العماري ومحمود البوسيفي وافروديت ونور الدين الماقني والأميرة ديانا

وأحمد بللو وميرال الطحاوي وعبدالباسط بوبكر و ظبية خميس وحواء القمودي وسعاد سالم واحمد الشهاوي وخالد مطاوع وجان جنيه وصامويل شمعون وجرجس شكري ونزار قباني واحمد البهجة و محمد المالكي وشعبان عبدالرحيم وجوليا كرستيفا وسوزان برنار ومحسن الرملي وسيرفانتس وروبرتو كارلوس ومونيكا وبهيجة وخناثة وفتيحة وسميرة ونعيمة وكريمة وهويدا ومريم وشاكيرا ومارلين مانرو وبروك شيلدز والكترا وريّا وسكينة وماجدة الرومي وكل لاعبات التنس المصنفات ذوات القوام الممشوق والنهود النافرات وكل المذكورات في برنامج ما يطلبه المتسكعون وسباحة في البحر وغطس في المحيط وتوبة وقيام ليل وصلاة وتصوّف ومجون وجنون وسكون .. وحديث طويل مع وجوه ملاح .. و نقود تهرب من الجيب ولا تجرى وراءها .. مجنون وابن قحبة من يجري وراء النقود .. النقود كعاهرات الفكر.. لا تجر خلفهن .. أجر أمامهن القهقري وسوف يقبضن عليك .. وكواغط وانعهن ما جنْ .. إيجيبنْ بوخلخال إيرنْ .

وتتوالى الأحداث .. ومفقودات تذهب .. وموجودات تتشاجر على الدخول .. وعُمْرٌ يمر سريعا وببطء كما تريده وكما تضبط له خطواته الضوئية .. ورقص وغناء في ساحة جامع الفنا .. وركوب قطارات وحافلات وطائرات وحمير وبغال وأيائل وبقر وحشي وجاموس وكباش وتيوس ومباعر عرب يتسوّحون وصواريخ سرك وملاهي .. الدنيا هانئة والسماء صافية .. وأنت يا ليبي شن دايرْ المغرب معاك .. مزيان بالزاف .. بالزاف .. بمليون زاف ينطح زاف .

هناك من يتبعني .. غيّرت رأيي وجوربي غسلته ونشرته على الحبل .. خلاص لن أذهب إلى المغرب .. لا جواز سفر لدي .. والنقود قليلة جدا .. سأدفع بها أجرة الغرفة في بيوت الشباب أو أهرب وأترك لهم هويتي منتهية الصلاحية .. سأرجئ الأمر إلى أوراق قادمة .. كل توخيرة فيها خيرة إلا توخيرة العسكري و(الـزا .....) .. حياتنا ورق ومعيشتنا غرق .. وفي حياتنا احترق مماتنا.. رماده سرقته الرياح .. جالت به مناطق بعيدة .. لملمته مستحيل .. لا مغناطيس للرماد .. لا مكبحة للرياح .. لا منشفة ترشف رفات الميتين .. أفتش في ذاكرتي عن مناطق مظلمة أو مضيئة .. باردة أو ساخنة .. ذاكرة خالية .. مجوّفة .. قحف نسيان أبدي .. تصلح كطبل لإنتاج الصدى العقيم.. عدو الوشم والبقاء .. الباب يطرق بعنف .. يُدفع بشدّة .. ويُقتحَم .. مجموعة رجال تقبض عليّ .. آمرهم وجهه مألوف .. لا يضاجعك ألا كل مألوف .. مألوف .. مألوف جدا .. رغم أنني لا أذكر اسمه .. صادروا أوراقي .. كتبي .. جهاز حاسوبي .. أقراصي .. أقلامي .. سجائري .. منشفتي .. ماسحة منيي .. معجون أسناني .. نظارتي .. عطري المدخر لليالي الأحلام .

في غرفة التحقيق وضع الآمر بين شفتي سيجارة مارلبوروا لايث بوكس.. أشعلها لي .. وحملق فيّ جيدا .. وجهك ليس غريبا .. أنا أيضا أراه ليس غريبا .. مألوفا .. وكأنه شيء أعايشه يوميا .. أحيانا يعايش الإنسان أشياء يومية ولا يعرف أسماءها .. أحيانا يفتقد شيئا يكون أمامه ولا يراه .. بعد يومين أخرجتُ من الزنزانة .. قدّم لي قهوة مُرّة وبسكويت مالح .. وابتسم في وجهي .. قرأت كل الأوراق وتفحّصت كل الأحراز .. وتشربت ما يحتويه حاسوبك من مواد .. وما قرأت ورأت نظارتك من كلمات .. الآن عرفتك .. لكن حتى وإنْ خرجتَ براءة من هذه القضية - وأشار إلى الملف - .. يبقى بيني وبينك حساب عسير خاص .. لا دخل للدولة فيه .. أعتبرك قد أخطأت في حقي .. لوثت شرفي وسُمعتي في سجلات ذاكرتك .. تريد أنْ تقدم للتراب أخبارا ملفقة .. تريد تحميل الرياح أشياء ليست فيها - لكن للتاريخ - كلامك جميل .. شفع لك .. أعجبني .. ارتحت له .. أنا لست متعلما أو مثقفا .. دراستي محدودة .. شهادة ابتدائية مسائي نظام قديم .. وعدّة دورات في مؤسسات علمية لا علاقة لها بالأدب .. لكن فهمت كل شيء .. التقيت معك في عدة قضايا .. وتقاطعت رؤانا في بؤر مضيئة .. نفس وجهة نظرك بالضبط .. ولأنني رجل اعتباري ومسؤول فمن الصعب بل من الخيانة التصريح برأيي .. الآن نحن في غرفة .. الحراس في الخارج .. لا أحد يسمعنا .. لكن قد تسمعني نفسي .. قد أشي في نفسي .. كائني متشبع بالإيمان .. حشيشتي بصاصة .. مدمن إخلاص وتفانٍ .. لكن وأنت معي نفسي تتوارى .. تخجل .. بإمكاني أنْ ألعن الله والوطن والملك والرئيس والزعيم ورئيس المخابرات و النظام برمّته والثورة بأدبياتها وكل شيء .. لا شهود ولا وشاية .. ونفسي إكراما لك وللمدوّنة لن تفعلها .. فالنفس أيضا نرجسية .. أشكرها تتركك .. ألقمها ملاعق فائضة بالغرور تتواطأ معك .. النفس كالإنسان ضعيفة خائرة أمام المدح .. أنت بالنسبة لي ضحية أنا جلادها .. ما كتبته في المدوّنة أعجبني .. وضمّد جراحات عميقة ألمتني .. أعادني لطفولتي .. حفر في تاريخي .. أيقظ نسياني .. رفع أهميتي .. أنا مجروح .. منتهك .. محبط .. مفعول فيه .. أفرغ شحنات غضبي ومرضي في أجساد ضحاياي .. ماذا أفعل بك أيها الكويتب الصغير .. أتريد أنْ تعرف من أنا ؟.. حسناً .. تفرّس فيّ جيدا .. وأنظر إلى الصراصير في الشقوق .. في أخاديد جدران وأبواب الزنزانة .. وأنظر إلى الدود في جردل التغوّط .. حتما ستتذكرني .. حتما ستعرفني لو أنك تذكرت الطيور .. والرخ .. والجرابيع ..

لو أنك تأملت الخميسة والقرين في زناد مسدسي .. لو أنك تأملت الأرض والسماء .. لا تقلق .. في هذه البلاد الأرض تحتك دائما .. أمّا السماء فسأمكّنك من النظر إليها .. سأتجاوز التعليمات .. أنا هنا الكل في الكل .. نضرب نعور .. خربشة مني تحررك إلى الخارج وخربشة أخرى تنشرك على حبلٍ رأسي .. قرأت نواح ريقك أربع مرات .. أبكيتني رغم عواطفي المتجمدة والتي تعودتْ طيلة عقود على العنف والقتل والتعذيب .. كلمات تدخلني وتحرّك جليدي المتخشّب .. دموع متوسلة لا تؤثر في .. لن أسمح لك بالكلام الآن .. سأترك فمك مكمما .. ويديك مغلولتين .. كنت أظن أنني ضِعت .. فك علوي .. إنسان بلا عمق .. قشرة بلا جوهر .. فإذا بي أجد تاريخي مسطرا على وشك الخروج .. ستكتبُ كما أريد .. ماذا تريد ؟.. خمر فيه .. نساء .. حشيش.. صبيان .. جهاز حاسوب .. انترنيت .. حَب عزيز .. أقلام دفاتر قواميس فيه .. كل شيء فيه .. سأنقلك من هنا إلى معتقل خمس نجوم .. لتستريح وتُكملُ مدوّنتنا على مهل وبتركيز .. سأملي عليك ما أريد .. اسم أمي وأبي وخالتي وعمتي .. تنصّبني في المدوّنة بطلا .. قائدا .. رئيسا .. شيئا مهما .. علما في جدود رأسه نار .. تقول أنني قمت بالثورة معهم .. بل على رأس الثورة .. بل لو أنني لست في الثورة ما قامت .. لكنني وجدت نفسي مدفورا بعيدا .. على الرف .. والآن أنا على تخوم التقاعد .. ولم أشعر بمعنى لحياتي .. لدي نظرية .. ولدي بعض الأفكار .. ولدي رؤية .. ولدي ما أقول وما أصدح به .. أنا شاهد على العصر .. يجبُ أنْ تعطوني تلفازا لأتكلم وأخطب وأجعل الجماهير قاطبة تصفق لي .

أنا جائع تصفيق .. طوال حياتي أصفق للغير .. حرام عليكم .. من يُحبُّ النبي يصفق لي .. أنا وحيد .. لم أنجب .. ولكان أولادي تُصفّق لي .. أنا عقيم .. أنا حزين أيها الصديق القديم .. اطمئن .. لن أعذّبك أو أقتلك .. طوال عمري لم يذكرني أحد في كتاب .. أو جريدة .. أو مجلة .. طوال عمري نكرة أحقر من جُعلان .. أنت الوحيد من تذكرتني .. وسطرت حكاياتنا صغارا .. زمنئذ أعتبر نفسي صغيرا في عمري العسكري .. لا شيء على كتفي سوى خط يتيم .. جندي أول .. وها أنت الآن ترى النجوم والنسور والسيوف على كتفي الاثنتين .. لقد تعبت وركضت خلف كل شريط ونجمة وطير .. تهوّرت .. وشاركت في حروب نجوت فيها من الموت بأعجوبة .. وشيت في ضباط انقلابيين .. وشيت في كل من حولي .. بريء .. مذنب .. واحد من مليون شك كر حبل على طول .. ما تراجيش .. قوّد .. شنتل قبل ما يشنتل واحد أخر وتتهم بالتستر وإهمال الواجب وتضيع الدبّورة .. ما تركت أحدا .. مدنيين .. عسكريين .. ليبيين .. زلمية .. فوالة .. سوادين .. تشاديين .. مغاربة .. توانسة .. أتراك .. بنغلاديش .. رقريق .. من كل ملّة .. حتى أخي من دمي ولحمي لم ينج مني .. ولا أبي أيضا .. ولا زوج أمي .. ولا ابن عمتي اليتيم .. مع الثورة لا أعرف أحدا .. إيمان مطلق .. الثورة أمي وأبي وزوجتي وسروالي وأملي وأحلامي وكل شيء .. تشردت في الصحراء وفي الواحات .. تنقلت في كل ثُكن البلاد .. سافرت دورات إلى روسيا وإيران ويوغسلافيا والمجر وجمهوريات الموز .. والآن ها أنت تراني .. سجّانٌ وضيع .. لا أكثر من سجّان .. أسجن الناس وأسجن نفسي معهم .. فطرتي ضاعت .. عمري ضاع .. شرفي ضاع .. أحلامي ضاعت .. صحتي أيضا .. الأمراض تسكنني.. السكر والجلطة والضغط و الروماتيزيوم والقلب وارتخاء القضيب وغيرها .. لا أتحرك إلا بالأدوية والحقن .. لا أستطيع أنْ أضاجع الآن .. الطبيب أمرني بالتوقف نهائيا عن المضاجعة .. وماذا بقى لي إذن ؟! ..

لماذا أعيش إنْ لا يوجد نيك ؟ .. قال لي الطبيب .. إنْ ضاجعت قلبك يتوقف لكن لا أدري لماذا لا يتوقف عندما أعذبُ البشرية بجنون ..؟!

دونك لي أيها الصديق الصغير القديم .. أعدْ لي قلبي أيها الفتى الطيب .. يا ذاكرة الأنس .. لا تتركني أضيع .. هذه اللحظات النيّرة لا تأتيني دائما .. قد أنفصل بعد ساعات أو يوم ويغلب

الطبع على التطبع .. وأرمي بالذكريات والمعاني والمبادئ في سلة قمامة .. أعود وحشا أحطـّم كل شيء .. أبصق عُقـدي في أجساد ضحاياي .. أنت الآن مكممٌ ومقيدٌ .. سأمر الحراس بفك قيدك وإماطة كمامتك .. سآمرهم بأن يعاملوك كبرئ .. استشر عقلك وأجبني .. ستكتب أم لا ؟.. ستبيعني ريشتك ويراعك لحظات أم لا ؟.. ستؤجر لي روحك أحيا بها في النقاء ما تبقى من عمري أم لا ؟.. أعاهدك أنني سأترك كل شيء وكل سَيء .. سأتقاعد اختياريا .. لقد مللت العسكرية والكراديس والشعارات والبوابات والبنادق والسياط وحاضر سيدي تمام .. أريد أنْ أحج وأتوب .. حججت عدّة مرات مجانا لكن لم استطعم الحجّة يقولون لي راقب من معك من حجاج .. أكتب في كل واحد تقرير .. مللت لغة الأوامر .. مقتُّ المفرقعات وقرقعات أقدام الجنود عند الفجر .. أريد أنْ أرتاح .. أرتاح .. أنْ أكون بني آدم برهة من الحياة .

أخاف من التعذيب الآن .. الأمريكان و ذيولهم قادمون .. قد ينهار كل شيء في أي لحظة .. وأضيع .. دعني أبيّض ملفاتي مع الناس .. خاصة معك ومع أمثالكم .. أنتم يا عشـّاق الحبر والورق .. عزائي قد أجده فيكم .. عندما أعذبّكم أشعر أنني أعذب الكلمات .. أكوي الألف والطاء والفاء والهمزة .. أحرق الفتحة والضمة والكسرة .. أمزّق المدّة والشدّة والسكون .. أجل أنا الصاخب ممزق السكون .. أشعر أنّ الكلمات تبكي وأنتم تبتسمون .. لا أحتمل بكاء الكلمات .. كلما رأيت حروفية في الجامع مكتوب عليها اسم الله توجّعت .. أراها تنظر إليّ بعتاب .. تنظر إلى سوطي الجبان .. تزدريه وتحتقره .. تتأمل مسدسي وبندقيتي وسيفي وخنجري .. تبصق عليهما .. لماذا لا أكون قويا مثل الكلمات ؟.. لماذا لست قويا إلا بهذه المُعدّات ..؟ الحديد والنار والجلد اليابس والملح والثلج والفلفل الحار ويد٢ كب أ٤ .. ذات ليلة من منتصف إبريل عام ١٩٨٦م هاجمتنا أمريكا بالطائرات .. كنت خائفا.. ولست أنا وحدي .. الكثير الكثير .. الوحيدون المطمئنون هم الناس البسطاء .. كل من له علاقة بالدولة واللجان الثورية وبالجيش والمخابرات كان خائفا جدا .. في نفس الليلة هرع الكثير إلى المثابات الثورية .. مزّقوا ملفاتهم ومنهم من أحرقها وذرّى رمادها مع الريح .. ظنوا هذه الطائرات ستحتل البلاد .. آنذاك لم أخف .. لم أحرق ملفي .. أعرف أنها حملة تأديبية فقط .. كحملات باشا طرابلس القره مانلي على قبائل الدواخل .. أعرف آنذاك أنْ ليبيا لن تـُحتل .. وطائرات أمريكا ستغادر فورما تُلقي قنابلها .. كان الاتحاد السوفيتي موجودا حيٌ يرزق .. وأمريكا ليس وحدها في الساحة .. ونحن محسوبون على المعسكر الشرقي حسب مفاهيم الحرب الباردة .. أي في حمايته .. لم تكرر أمريكا الهجوم .. أنا لم أهرب .. لم أحرق ملفاتي .. زايدت رياء بالصمود .. الكثير من الناس جبناء .. هربوا في نفس الليلة إلى المشاريع الزراعية ٢ و٣ و٤ في سهل بنغازي وإلى وديان ترهونة وبن وليد والزهراء وقصر خيار والعمامرة في طرابلس .. منهم من أركب عائلته في صندوق السيارة الخلفي وقفز معهم وصاح في السائق *:" انطلق يا خوي ارحم وليدك .. صاروخ جاي في الطريق* .." السيارة لم تتحرك .. لأنّ السائق هو نفسه رب العائلة .. المدينة صارت شبه خالية .. من بقى فيها هم الناس الطيبون .. البسطاء .. الحقراء .. سكان المحيشي وسيدي يونس وعمارات السّرتي وأرض قريش وراس اعبيدة والصابري والكيش .. الناس المحكومون .. الذين لا حول لهم ولا قوة .. رقاد لرياح وقلال الوالي .. الذين لا فرق لديهم إنْ حكمتهم حكومة وطنية أو أجنبية.. وطنيون أو ثوريون أو مستعمرون أو أي شرذمة مجنونة بالسلطة .. الآن تغيّر الوضع .. لابد أنْ أكون محققا عصريا .. جامع استدلالات نزيه .. لن أظلمك .. لن أكويك بالنار أو أصعقك بالكهرباء أو أقتلع أظافرك الرهيفة .. فجورج W بوش يزدري امتهان السجناء .. سأمجّد وأقدّس إنسانيتك .. قد تدور الدوائر والمثلثات و الفراجير وتصيرُ أنت الجلاد وأنا الضحية .. في هذا العالم لا أستغرب شيئا .. البطل الهمّام صدام حسين كشفوا عن بقايا أسنانه أمام الكون وعلى الهواء مباشرة .. بعد أنْ كانت مصافحته أو لقاؤه أو معرفة مكانه حلما من أحلام السلعوة .. لماذا أنا هكذا ؟.. لا أتي للطريق إلا بالخوف والعصا .. أنا آسف .. لم أحرر في حقك مذكرة توقيف ..

إنهم الوشاة .. البصاصون .. نصك هذا الذي بعثته إلى صحيفة عربية في اوروبا جاءنا مفسرا وما علينا إلا أنْ نقبض عليك ونودعك السجن ومن ثمّ نهرسك كفتة بالثوم والبهارات .. لكن الذكريات .. والعيش والملح .. والخوف من أمريكا .. وأنا كبير السن .. وبيني وبين القبر أشبار وخطوات .. على الأقل في نهاية أيامي أعمل عملا خيرا قد يشفع لي .. ألا يقول الحديث الشريف بما معناه .. يبقى بينك وبين النار قليلا فتعمل عمل خير فتدخل الجنة .. ويبقى بينك وبين الجنة قليلا فتعمل عمل شر فتدخل النار ..

سأعمل فيك خيرا .. ربما يخفف عن جلدي بعض وهج جهنم .. الذكريات الصغيرة .. القديمة .. حلمي الذي كان يحبو .. مذ كنت جنديا مستجدا .. كنت أريد تحرير كامل فلسطين والجولان وسيناء وعربستان ولواء الاسكندرون وسبتة ومليلة .. واسترجاع الأندلس والبلقان والصلاة في المسجد الأقصى .. وتحقيق الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج .. والصعود إلى القمر .. وغزو المريخ والمشتري وأعماق الأرض .. وبعث اتلانتيك .. حلمي تبدد يا صديقي .. حياتي الآن أراها عبثا في عبث .. سراب لا أراه حتى بالمجهر .. البارحة حكيت عنك لمبروكة .. عرفتك وعرفت أمك .. قالت لي هذا الذي كنت أرقّصه عندما يوصّل إليك رسالة مني وأغنّي له : "*نجك لي نجك لي .. تستاهل مليون جني* .." قالت لي امنحه مليون تسامح وبراءة .. تذكرتك جيدا وتذكرت كل التفاصيل في حياتكما في حلاليق راس اعبيدة .. أصرّت مبروكة أنْ أعاملك باحترام .. وأنْ أخرجك من القضية كالشعرة من العجين .. النص سنؤله تأويلا آخر .. وسندين مخبر تلك الصحيفة الوضيع .. مبروكة هي آخر ما بقى لي في هذا العالم .. هي القيمة الوفيّة الوحيدة .. عالجتها في كل مكان ولم تنجب .. عالجت نفسي أيضا .. كل الأطباء يقولون أننا سليمين .. وبإمكاننا إنجاب رأس ثور .. ربما عامل نفسي .. لا أدري .. وربما دعوة أحد المظلومين .. وربما إرادة الله تمنعنا من إنجاب دكتاتور جديد يملأ الدنيا ظلما وقهرا وطغيانا وصراخا .. لم أصدّق كلام الأطباء .. ذهبتُ إلى كثير من الفقهاء والمشعوذين .. هنا وفي المغرب والسودان و طشقند و تبريز وأدغال إفريقيا .. كلهم قالوا لي أنني سليم معافى .. وأيضا لم أقتنع .. ذات خفارة أغويْتُ مُجنـّدة بائسة .. وعدتها بالزواج فاستسلمت لي .. ضاجعتها مرارا .. صرت أضاجعها بانتظام كل يومين .. وكلما سنحت الفرصة وصادفتها في طريقي

ركبت عليها .. أنقطع طمثها وبعد مدّة برز بطنها .. أجبرتها على إجراء عملية إجهاض .. كيف يكون لي ابن حرام في هذا البلد الحلال .. لم أحتمل ذلك .. كيف أتزوج مومسا غير عذراء .. تركتها .. وهددتها بالثبور وإرسال أخيها الوحيد إلى جبهة الجنوب إنْ هي فتحت فمها .. كادت المجنـّدة تموت .. والمسخ أخذته في كيس وتسللت به وحيدا .. لم أدفنه في تراب الله .. دسسته في قعر صندوق قمامة كبير .. ربما وصل إلى مجمع القمامة الأم حيث حُرقَ في الدنيا وربما بات في قعر الصندوق الكبير فتعشـّت به القطط والكلاب الضـّالة .. كم أنا بشع .. كم أنا مجرم .. كم أنا ظالم .. حتى وإنْ غفر لي ربي .. سأرفض هذا الغفران .. سأتوسل إليه أنْ يضعني في جهنم .. أريد أنْ أتعذبَ وأموت في العذاب .. أنا نادم .. نادم .. مللت تأنيب الضمير .. مللتُ عذاب الدنيا .. عذاب الدنيا لا يُرضي ذائقتي .. لا يؤثر فيَّ .. يزيدني قوة وجبروتا و بغضا وحقدا وانتقاما .. أريد عذاب الآخرة حيث أستأنس بصرخات لأنوف أراها على مر التاريخ مغرورة متكبرة جبانة متورمة ممسوخة .. سأنسى العذاب في جهنم .. ستـُنسيني إياه أجساد الطغاة والفاشيين وهي تترمد قبلي وتعود من جديد أشدّ يناعة لأنّ النار لا تأكل اللحم البائت .

سامحني أيها الصديق .. سيستغرق أمر الإفراج عنك أياما أو شهورا .. مانكش غابي في الإجراءات ..لكن في هذا البرزخ ستكون سعيدا .. ستـُزار .. وتأكل جيدا وتنام جيدا وتكتب وتقرأ وتنيك .. لابد أنْ تذهب الأوراق للعاصمة ثم تتسكع في بعض المدن النافذة كعب داير وتعود .. سأكتب أنك برئ .. وأنْ أسباب اعتقالك واهية لا دليل يؤيدها .. سأقول لهم ربما هذا مقلب من

مقالب المخابرات المعادية .. يريدون ابتزازنا وتوريطنا في قضايا تسيء لدولتنا الفاضلة كقضية ما يسمّى بلوكربي .. سيصدقون .. إنهم يثقون بي .. سأجعل مبروكة تزورك هنا بين حين وآخر وتغني *لك : نجّك لي .. نجّك لي .. تستاهل مليون جني* .. ولا مانع إنْ أحبّت مراقصتك .. فأنت ولدها المحبوب الذي لم تنجبه .. ابتسم الآن .. استحلفك بملح بنغازي .. ونادي الأهلي .. و مراكش .. وبانكوك .. ودرنة .. وسميرة .. وآمال .. و مبروكة .. وبدرية وماجدة ومريم ونادية وكريمة وآم ووجدان وهدى وسلوى وسهام ونجوى .... أنزيدك وإلا تخاف من مراتك الغيورة .. أنا لست محققا .. أنا ملاك .. شفاف .. أنا طفل .. بل أنا رضيع .. أرضع حلمة لا لبن فيها .. لذلك أجوع .. وأرسل طوال الليل آهات الدموع .. لا تسكتني ابتسامات المساحيق .. لا تنعشني العطور المرشوشة على أجساد قلوبها من حريق .. أنا طفل .. بل أنا رضيع .. أجبرتُ أنْ أتخلى عن طفولتي .. نفوني من عالم الضحك والبراءة والرحيق .. تورطت في قرينة .. تطبخ المكرونة كل يوم .. شغّلوني جنديا .. غمغموني بالهموم .. أبعدوني عن الأزهار والفراشات .. عن سفّ الرمل والحَب .. اعتبروني كبيرا .. زخرفوا بالبياض فوديَّ.. اجتثوا قليلا من شوشتي .. حمّلوني عقد المسؤولية .. منحوني سلاحا ورقما وجواز سفر ورخصة سياقة وهويّة .. جعلوني رجلا .. وأنا بعد صغير .. أنا طفل .. بل أنا رضيع ..

تركت زغدتي تدور ..
تحفر بسنها التراب ..
في السرعة تتلاشى الألوان ..

في البطء يتّضح كل شيء .. مشغول أنا مشغول .. عن لعبي التي فرغت نضائدها .. عن قمري الراحل إلى الأفول .. مشغول أنا مشغول .. عن طائرتي الورقية وهي تمخر السحاب ..خيطها في يدي .. لن أرميه.. سأمطّه حتى يطول .. آه لن أتخلى أبدا عن طفولتي .. أه .. أه .. لا أتصوّر ذلك .. سأرضع إصبعي ..وألوك علكتي .. سأمتص حلوتي .. وأعضض أظافري .. سأخرج لساني نكاية بهم .. سألعب بهم .. سأمارس مع حبيبتي لعبة العبث والجنون .. وأنت يا حبيبي سأغني لك هلا بالطيب الغالي .. جميل وطلتك حلوة .. وسألعب معك لعبة سهلة مليئة بالفنون وعلى أنغام القانون ومواد القانون .. لعبة تعجبك مليون في المليون .. تجعلك خارج هذا البناء حرا طليقا محميا غنيا سعيدا .. أنت إنسان وديع وحنون .. أنت رائع طيب طاهر نقي مهذب نبيل جنتل مان صادق مان برئ من كل ما نُسب إليك من تهم ملفقة .. ما جاء في مذكرة إيقافك هراء .. محض افتراء .. أليس ما قلته لك سابقا تتمنى أنْ أقوله لك أيها المجرم السافل الخائن القوّاد العميل الزنديق الزلفوت الزوفري النمس الرجعي الأبونواس المتعفن الوغد الفاسد العسكر سوسة الشيوعي الماسوني الرأسمالي البربري البوذي الكونفشيوسي الزرادشتي الأثول الزمال العلج المنحط المأبون المأفون المعادي للسامية والحامية والقومية والاشتراكية ولكل المبادئ الثورية الخالدة .. وقرع جرسا تحت الطاولة فانفتحت مغارة في السقف .. هبطت منها انشوطة مترنحة في حلقتها شنقت زجاجة ويسكي ..

الآن أنا خائف.. خوفني هذا التيس رغم أنني خالقه .. أخلقه ولا يعبدني .. أنا غلطان لم أرسل له رسولا .. لم يقبل أحد من مخلوقاتي أنْ يذهب إلى أوباش كهؤلاء .. وضعتهم في السجن .. أحرقتهم وأرسلتهم جفافا إلى بالوعة .. أنا خائف من تطابق الأسماء والأحداث .. التاريخ يطابق نفسه .. مغناطيس يضاجع مغناطيس وأنا بإرادة طين هشّة.. أنا خائف .. سأبحث عن جرعة آمان .. سأذهب إلى طرابلس .. أمكث هناك أسبوعا ..أعانق مسقط رأسي ..أبحث عن نتفة ذكري .. عن قطرات جافة من حليب أمي .. عن ضحكات صغيرة بددتها في الفضاء .. عن صرخاتي الصاخبة .. عن الفقيه الكسيح الذي جلد قدمي الغضتين .. عن لعابي السائح .. عن بيتي الرملي على شاطيء الشعاب .. عن طفولتي هناك .. في طفولتي لا أخاف .. أبكي فتأتيني طلباتي كلها ..

سأتمرّغ على شواطئ طرابلس .. وأزور سيدي بوكر .. أنتزع من قلبه دقات طمأنينة .. فأقذف بمصيري في شوارع شتّى .. تقودني قدماي إلى صخب شارع الرشيد .. حيث التجار والسماسرة والنصابين والقوادين والرعاع من كافة الملل .. أزور أصدقائي الرائعين في دكاكينهم .. عبدالقدير القدر .. فرحات الطياري .. محمودالصاكي .. ناصر سحابة .. رجب الجقندي .. مصطفى كازوز .. مفتاح الطوير .. هشام الشريف .. طارق الجبالي .. سليمان الجبالي .. عادل الغرياني .. جلال غرس الله .. محمد الأسطى .. علي الزواوي .. محمد الكوني .. عادل الترهوني .. جلال عصبانة .. عمر بوزيد .. أشرب في دكاكينهم المكياطة وأتناول معهم وجبة دسمة من الكسكسي أو البازين وأهاتف العالم بالنقال مجانا .. واتمدد في المخزن قليلا متوسدا ربطة ستيانات ناعمة فلا تزورني كوابيس الجفاف والخشونة والحرمان .. أقرأ فناجين هذه الستيانات على مهل .. أرقامها صغيرة ومتوسطة و XL .. الستيانات وقحة .. حلمات كل منهن متعهرة .. بالكاد وجدت ستيانا ضئيلا رقمه S خجولا قليلا .. أو بالأحرى عديم التجربة بسبب واعزات دينية قاسية .. توسدته وأغمضت جفني فداهمتني الجواثيم .. جفناي حمراوان يتحولان إلى لون بني إلى أسود .. رميت الربطة بعيدا وتوسدت ربطة كولتات ملفوفة في منشف حمّام .. الآن هدأت

رأسي وغالبني نعاس كسول فاستغرقت أحلم بلذة روحية وجسدية.. متنقلا برأسي المثقلة بين الدكاكين .. لا أسمع شيئا حولي سوى إزدحام ربطات الدنانير في الأدراج .. وكلما أتي متسول صرفوه بكلمات متضرعة متمسكنة ..: *يعطينا ويعطيك .. الله غالب .. يحن الله .. وراس مينتك مازلنا ماستفتحناش* اليوم .. وراس جدك اللى مات وماذاق البيتزا ما بعت بمليم .. وكلما دخلت مغربية أو جزائرية أو تونسية أو طرابلسية أو زوارية أو جبالية قدم لهن بعضهم كرسيا وحضر الكيك والبريوش والتوست والعبمبر والبقلاوة والملفيه والجيلاتي ومشروب العنب ووضِع في جهاز التسجيل شريط الشاب خالد :

" عبدالقادر يابوعلم .. ضاق الحال عليّا ..
داوي حالي يا بوعلم.. سيدي روف عليّا "

ويبدأ الرقص في المحل .. حيث تقف الفتاة لا شعوريا .. وترى الفرقة قد تجسدت من بعض الزبائن والعاملين والمارة وكل واحد يمسك بمشجب يجعله مكبر صوت مصاحبا غناء الفرقة والفتاة في المنتصف ترقص ويفسح لها الحاضرون برهة صمت لتصرخ بغنج :

" عبدالقادر يا بوعلم ضاق الحال عليّا .. داوي حالي يابوعلم سيدي روف عليّا "

ويقول عبدالقدير القدر أنها تقصدني .. فيجيبه فرحات الطياري سلم عينك بل تقصدني أني .. إسمعي يا مليحة في البطاقة فقط أسميتي فرحات لكن في جواز السفر إسميتي عبدالقادر بوعلم وعلمي دائما أشهب مخضر مثل ورقة عمر المختار والدولار..

وطبعا استيقظ فورا لأرى اللحم الراقص .. أحيانا أمكث معهم وأحيانا قليلة أتركهم ومرحهم وأغيب في زحام الميادين القريبة أبحث عن أسطورتي مُريقا تداعياتي على منحدر الاستمتاع مانحا لذاتي كل العنان ..أحفزها بجنون لتلملم نتف ماضيها وترتق فجوات مستقبلها .. وتصرخ في شوارع آنها المتشتت بآهات الحنين .. ها أنذا هنا .. أجول .. ألهث وراء نسغ اللب .. أقلب عنه في ثنايا الوجود .. في قيم الخوف والسكينة .. في آتون الذاكرة والنسيان .. في الكتب .. في القاذورات .. في (كتش) الوعي أو اللاوعي .. أترك نفسي ليراعي المسكوب على إسفلت الألم .. إسفلت يرمي بي إلى إسفلت .. تدوسني المعافس الحيّة والميتة .. أضيع في شارع المأمون المكتظ بالغواني .. يرمي بي إلى شارع الكندي المكتظ بدكاكين الأجهزة اللأكترونية ومنبهات

الانذار .. يقذفني الكندي إلى سوق العتق القديم .. أهرب منه متوغلا في سراديب وحواري المدينة القديمة .. أتوقف قليلا في شارع أربع عرصات .. أدخل بيت القره مانلي الأثري .. أتبوّل في كنيفه وأخرج .. يقول لي المشرف تفرج على المقتنيات الآثرية .. أمنحه ثمن التذكرة وأغادر .. أشعر ببعض خفة وراحة فأذرع الزنقات والأزقة في خطوات حثيثة .. أتأمل الجوامع والكنائس حديثة الصيانة .. وأقف مطولا أمام كنيست اليهود الآيل للسقوط .. كتابات عبرية مازالت باقية على الواجهة .. سوادها يطل رغم إحمرار الطين وتقشرات الكلس .. عيون تنظر في تأملي .. خفير يمرّ أمامي أكثر من مرّة .. وأحدهم يجرجر وراءه برويطة فارغة (عربة يدوية) ويسألني كم الساعة ليعرف من أكون ؟ .. مددت له يدي اليسري ليرى الساعة دون كلام .. هزهز رأسه وهزهزت وسطي وابتعدت إلى شارع آخر أعادني إلى سوق العتق.. وجدت الشاعر خالد درويش متنكرا في زي مرّاكشي يبيع الكتب التي سرقها من المكتبات العامة

والخاصة والمراكز الثقافية العربية والأجنبية ورابطة الأدباء والكتاب .. يتركّها بلاش برخص التراب .. اشتريّت منه رواية اسم الوردة لإمبرتوا إيكو ترجمة الصمعي بدينارين إلا ربع .. أعاد لي الربع ثمن طاسة شاي لأنه طرابلسي بخيل يوبّخه أبوه وترقصه أمه لو دعاني إلى البيت .. ودعته بابتسامة وخضتّ في الزحام أتنقّل من زحام إلى زحام .. والآن شعرت بالإعياء والصداع والعطش فنظرت حولي أتعرّف على مكاني وزماني ووجودي المتبدد .. لا شيء في عقلي الآن سوى ذاتي العميقة .. تسألني أين وجدت نفسك .. ؟ وهل وجدت شيئا ما في طبقك المثقوب ..؟ وأين أنت الآن ؟.. أنظر حولي لأجيب ها آنذا في ميدان السويحلي أجولُ بمخيالاتي .. أسفحُ خيالاتي على محراب النور .. أبحثُ عن ضياعي .. لا أحبّ تجنيد أحد .. داخلي سيعاديني إنْ استعنت بغريب .. جوعنا يتسوّل تخمة قمامة .. الذباب يتبرّع بطيرانه بعيدا .. الدود يختفي واهبا ذاته .. ألوك تفاحة في ظلام أحادي .. لا أكترث للونها .. يلذني دبقها وهبوزها .. عندما قبّلتها لم أتمالك نفسي وبكيت .. الكارثة دائما تبدأ بقبلة .. !

في مقهى بميدان السويحلي جانبتني فتاة .. لم أكلمها .. ما زلت أحبّ .. وسأظل أحبّ .. أحبّ الصمت يا حبيبتي .. دعيني ولا تقتحمي أبواب حروفي المُشرعة .. قبل أنْ نلتحم بُحت لك بالسر .. وبعد الإلتحام صنعنا أسرارنا المرئية وجنوناتنا الفاضحة ..

مُتقهوي فى الركن يدخّن .. عيناه ترشفان المزاج .. آخر يرشف الوجع بعينين غميضتين .. النادل يدور بين الطاولات .. جاءها : شن تُشربي ؟

نظرت ناحيتي وقالت : نبي ناكل أني جويعانة ..

تسمحين لي أنْ أشتري لها فنجان قهوة ..؟

لا .. خلّي البنت فى حالها .. ارجوك اعصابي..

أخفضتُ رأسي وتركها النادل فأخرجت سيجارة بترت ربعها رمته في المنفضة وتلفتت باحثة عن لهب .. أنا الأقرب .. هل أولّعُ لها يا حبيبتي ؟.. لو فعلتُ سأنهار مع أول نفثة .. الدخان الذي أنا سبب حريقه سيجذبني إلى منبعه .. هناك منابع دخانية تخنق .. تمنحك أكسجين مجنون .. الكارثة دائما تبدأ بقبلة ..

المطر يبدأ بقبلة سماوية ..

الزلزال بقبلة أرضية ..

المخلوق الجديد بقبلة رحمية ..

أليس الجديد كارثة ؟!

ها أنذا كارثة بالنسبة لك!!

أسبوع في طرابلس .. سبع مكنونات من الصبر .. أنا صامد صامد أنا صامد .. أحملق في المرناة .. أخربش نبضي .. أقرأ أوراق دميعاتي .. أنقش حبيبتي على لزوجة دمي .. آكل جيدا في مطعم أعبيـّة .. أستحم جيدا في بخّارة درغوت باشا .. أشرب .. أدخن .. أثرثر .. أتسكع كأيام ملت شهرها .. أسهر .. أحلم طويلا و لا أنام ..

طرابلس تشدني من تلابيب سرحاني .. هي عروس البحر وأنا عريس الملح .. لم أخرج منها قط .. لم أغادرها غاضبا رغم صراخي .. تعرفتُ على آمالي .. رفيقة طفولتي على شاطيء الشعاب .. أحسّها أمي .. أختي .. ناموس مفقود بين الصديقة والحبيبة .. تحاورني بدفء .. وكأن حبيبتي أوصتها عليّ .. ضباب الاحترام يعزل شقاء نفسي .. يلجم سنونوات جرأتي .. كلما تحدثت تأملتني وكأنها ستأكلني .. وكلما تأملتني أكثر ركّـزتْ بعمق حتى تتكرمش جبهتها .. حبيبتي أبعديها عني .. لا أحتمل هكذا سحر ..

الله يسامحها .. مدينة أسامحها وبلد لا أسامحه .. لا أمارس أي تفرقة ترابية .. أحيانا أحبّ الشفتين وأكره السرّة .. السرة مربوطة كتاء على سطر مترنح .. حلمتاك نقطتان ستتمزقان من نزّ اللبن .. اللبن يُحبني وأيضا الحليب .. أحررهما دائما من صهاريج الخجل .. كلمة أحبك لم تقلها السرّة .. قالها اللسان .. أنا سُطير أعمى .. وحلمتاك بصر نظير ..
التقيت أمالي في سوق الجمعة .. لم استطع أنْ أحبها .. حبّ فوق حبّ عبث .. أوراق اللعب تتراكم فوق بعضها .. لا نراها و لاترى نفسها .. تعبثُ بمصير ديوستوفسكي .. تستكتبه مقامرة في اسبوع .. حبّ فوق حبّ عبث .. وعبثي أنْ أظل أحبّ .. أخاف العجلة ولا أخشى الشيطان ..أخاف أنْ أسحب (شنكة).. الأحاسيس تغويني .. وكلمة سوف تقبع على سُدّة إرادتي .. سوق الجمعة سأجعله سوق سبت .. سوق أحد .. إثنين .. ثلاثاء .. سوق إربعاء .. سوق الخميس سأجعله سوق جمعة .. أف حوّائي .. حياتنا سوق وسلعتنا لا نجدها ..

سأحيا في العبث .. كنفه صادق وسيع .. لا عطب يسببه لدماغي ..جنّة الفكر الجنون .. سأرمي بحياتي فيه .. كفّ إمرأة محفّة تُركبني .. حبيبتي مرفئي .. أنا مقلاع فلترجمي بي من تشائين .. أنت لا تُريدين إصابة السعادة .. ولا تريدين للشقوة أي نزف .. البعيد سعيد .. قربنا سيشفيه .. فلنبتعد إلى بُعد لا جوار له .. لا بعد بعده .. بُعد نائي .. مجرّته منفلتة .. فلك بكر لم يره جاليلو ولم يجسّه خيال السورياليين .. عندما نعطش نشرب معا ما تقطـّر أرواحنا .. روح جافة تتقشّر حياتها .. نفس إمّعة لا تحتمل وهج تمردنا .. سنشرب خمر قطراتنا لنصير مخزون بؤس يتلاحق بحرا ينفجر فيه ..

بعد كلّ فعل لا يأتي فاعل .. بعد كلّ مبتدأ لا يأتي خبر .. كلّ آت قاتلني ولو كنت أنا !!
كان لزاما علي أنْ أكون جيدا .. أحبّ أنْ أكون سيئا .. أكره دروس المطالعة والاناشيد ..
أحبّ الجحيم .. أحبّ أنْ أصله وأتدفأ بناره ..
من يُصعدني على ظهره وأمنحه يقيني ؟!..
لا أحبّ الوصول إلى النار ماشيا ..
راكبا (معلش) .

الهواء ثقيل .. الدم خفيف .. الظل باهت .. النور ظلام .. الحبّ صفعات على قفا قلبي .. المطر ورد مصهور .. وماذا بعد يا جنوني .. يا آمالي .. يا حواء أمومتي العاطفية .. لم أنس بعد قطعة الكيك .. وفنجان القهوة .. لك في لحم كتفي حُصّة .. ولو لك ذرّة ضئيلة فهي مُشعّة ..
لم أنس بعد ذاك الصباح البعيد .. الذي أجذبه من تلابيب شروقه ..
أنتله من عروة فجره ومشيمة ضحاه المشمسة ..

أين ديكه يا ترى ؟!
هل تزوج ففقد ريش حنجرته ..؟

استحضر من كان جالسا فى سابع سماء .. منصور .. أرسله ليحضر من اكاكوس نقشة لحنّتنا .. أمنحه ابتسامة تواطؤ وتمنحينه هزّة كتف وترقيصة حاجبين ليهبط ويتركنا ..
- هذا من بنغازي وغدوه مروح .. عدّي سلم أوخيي .. من شوية مدير التحرير الداهش بعثلك بيعطيك مكافأة العمود ..

فى تلك الليلة كنت تحضّرين الكيك .. تضربين البيض برفق .. ضربات خفيفة كضربات ايزابيل الليندي .. تخلطين بياضه الحوراوي باصفراره الزعفراني .. الأصفر يطغى .. تبيضينه بحفنة دقيق .. يشيب الخليط و لا يشيب رأسي ..تُضيفين (البيكنبودر) والمساحيق العطرية .. وأنت تخلطين عجون العالم تتكون فقاقيع تنفجر .. ووجوه تشوهها الملعقة .. تكشطين المخلوق إلى وعاء الكيك ثم تودعينه جهنم النضج .. وتتسمّرين جانبه كي لا يحترق أو يُمسخ ..

- أنا لست بائرة .. أنا حرّة حارّة .. أرزي ما يتعجّن و مكرونتي ما تشيّط .. قد يشيّط عمري .. لكن طعامي بعيد السو .. لابد أنْ يكون لذيذا .. لابد أنْ يكون ذاكرة في البطون .. ها أنت تعود إلي رغم أنني لم أسحرك .. لكن لم تعد لي وحدك .. يا لحظي .. هناك ظل يلازمك .. أنا أراه وإنُ توارى عن غيري ..
هكذا تذوقنا الكيك .. لم أفطر ذلك اليوم .. جئت إلى مؤسسة الصحافة .. أسوّق بضاعتي على الصحف .. بضاعتي الرديئة آنذاك والآن .. أكره أنْ أكون كاتبا .. أرفض الكتابة كما تتراءى .. أسوّق بضاعتى التافهة .. عديمة الأنموذج .. لكن هناك من شمّها .. وألقمها حبيبات عسله .. وشملها بنظراته العطوف .. وفعل لها أشياء أخرى مدفونة فى سجون اللاوعي .. حلمت بها فى الليل .. قد تنفلت من كبالات الآمال إلى بحيرات التحقق .. أعرف بعيد السو .. أعرف بعيد السو !!

كانت عيناك تروق لي .. وجبهتك المتكرمشة أيضا .. ومسكتك للسكين ليست مسكة طعن .. لم تقطعي لي مثلثا صغيرا أو دائرة .. نظرتى لى برهة .. تتبعتي عرقي السائح من الصدغين .. قطعت لي مستطيلا سميكا مخضبا بحنّاء الحلوى الشوكلاتة اللبنية .. مستطيلا شبيها بعلامة تانيت .. قدّمت لي المائدة .. مستطيل كيك .. ومنديل معطر بأنفاسك .. وفنجان قهوة غير مثلوم .. وابتسامة ابتلعتني ..!

لن يذهب خيالك إلى طرابلس مرّة أخرى لوحدك !!
رشفت وأكلت تابوت السكر .. كفنته بنسيج لعابي .. ودفنته فى مقابري التى لا اتبرزها .. هو سنام الذكرى فى أزمان تعاستي .. هو نُسكي البرىء وصلاتي الحلوة التى أمتصصها ساكبها على مراراتي .. آمالي يا حبيبتي أعطتني كيكة .. كيكة أصيلة عتيقة كماء سانية لم ولن تنزح .. كان ذلك قبل اشراقتك .. قبل أنْ تغطسيني فى بحار التورتة دون مسح .. سأعطيها سبيكة محبة .. سأمنحها من شظايا العمر حفنة انبساط .. لقد خادعها سراب الزمان والمكان .. لقد ضُحك عليها كثيرا .. تضاحك بها زمرة أوغاد وحفنة ظروف تافهات .. سأبكي عليها بحروفي .. أحبّ مناديلها العطرة بعبير الظلال .. عندما مسحت فمي بالمنديل استخسرته فى سلال القمامة .. أعتبرته أطهر من نصوصي .. اسفنجة حُب لا تجف .. ليس كل المناديل مُتسخة .. منها من يزداد نظافة بالمسح .. هناك نظافة عتيقة ومناديل أثرية .. المناديل كما الورود يانعة وذابلة وذاوية .. مازلت أحتفظ به كمنديل بكارة .. طالما أخرجته فى لحظات الخصام والوحدة والفقد .. أتأمل بصمات أصابعك

عليه .. وحبيبات السكر العالقة في حواشيه .. وبقيعة حُميراء قرمزية في منتصفه .. هي صاري الشفافية الفاقعة .. لا أدري أمن طلاء أظافرك ؟ أم من روج شفتيك ؟ أم من صبيغ حنـّة تائهة .. أعرف .. بل أتيقن .. أنّها ليست دما .. فلا أذكر أنني مُـتّ فجأة .

طز فيمن يتبعني .. سأذهب إلى مراكش الآن .. معي أحلامي وزوادتي من أيامي المنقوشة في اللوح المحفوظ .. المحقق وحكايته وحكاية طرابلس وميدان السويحلي وشارع الرشيد وتجاره الوهميين كقصة عبدالوهاب وعمر جحا وبن يـزّة الحول ونجيب .. متخيلات آنيّة دونـتها في هذا البراح .. سافرتُ إلى مراكش بواسطة البحر .. الباخرة غرناطة .. المبحرة من ميناء الشعاب بطرابلس .. أكثر الركاب مغاربة و بعض الليبيين من تجار الشنطة والسيارات المسروقة من أوروبا .. أكثرهم يصحب حقيبة واحدة أو حقيبة يد كبيرة (صاكو) .. المومسات المغربيات فقط أحضرن سيارات مليئة بالعفش والبضائع.. بطاطين نمر .. أدوات منزلية كهربائية .. ساعات .. أقمشة .. سجّاد .. جلود خام .. خيام بحر .. ناب فيل .. زئبق .. هن في خصام مع رجل الجمارك ومندوب شركة النقل .. يطلبان التفتيش الدقيق ويطلبان أيضا ثمنا للوزن والحجم الزائد .. لكن الحقائب لا تفتش ولا يدفعن درهما .. كل واحدة تخرج وتعود بمسؤول ينظر إلى موظفي الجمارك و الشحن فيدنقران رأسيهما ليمر العفش والبضاعة في لمح البصر ..

أربع أيام ووصلت الباخرة ميناء الدار البيضاء .. وجدتني خارجه .. أدور في شوارع كازا بلانكا آخذا طريقي إلى جراج علال .. حيث حافلات مراكش وآغادير وطنجة وفاس ومكناس وبقية المدن.. أستقل الجاهزة للانطلاق .. وكل دقيقتين يصعد الحافلة شحاذ يسأل الركاب العون ويحكي ظروفه بأسلوب حزين مفتت للأكباد .. أحيانا يركب بائع مواد تجميل يوزّع على الركاب نشرة لمرهم لعلاج الصلع ويقف بجانب كرسي السائق شارحا تركيب الدواء وطريقة الاستعمال عارضا صور قبل وبعد توضّح النتائج الإيجابية السحرية لمرهمه.. يشتري البعض والبعض الآخر يعيد له ورقته ومزود مرهمه .. وأخيرا تتحرك الحافلة في شوارع البيضاء المزدحمة .. في كل ناصية تقف لتلتقط ركاب آخرين حتى تخرج من تخوم المدينة ليعطي السائق الحافلة سرعتها الطبيعية ولا يتوقف إلا في أول محطة وهي مدينة بالرشيد .. وبالرشيد هذه مثل قرقارش في طرابلس يوجد بها مستشفي الأمراض النفسية .. دائما أهل كازا بلانكا يمزحون قائلين .."*كازا لهواوي .. سطات تصدر وبالرشيد ادّاوي ..* " أي مدينة الدار البيضاء بلاد الهواء العليل والصحة ومدينة سطات تنتج المجانين ومدينة بالرشيد تداويهم بالصعقات الكهربائية .. هكذا فهمت المقولة بطريقتي .. وأهل المغرب أعلم بالطبع ..

وصلت مراكش أو البهجة كما يسميها ناسها وضيوفها .. مدينة أنس وحنٍّ وألفة .. ليس ككل المدن .. لها طابعها الخاص ولونها الخاص .. مدينة بلون الطين .. بلون الإنسان في بداية تكوّنه .. طين لازب يحيطك في الشتاء ويابس في الصيف .. يذوب طين الأرض صائرا مسارباً ولا يذوب طين الجدران .. مغرب بدون مراكش لا شيء .. ملتقى القوافل .. ملتقى البشر .. ملتقى المجانين بالمجد .. رياح العالم تجتمع في ساحتها خالقة زوبعة تتسامى .. ترفع معها كل حزن دفين .. حفنة تمر وكوب حليب فطور قد يغنيك عن لبن أمك .. وكوب شاي بالنعناع في مقهى اركانة يجعل مزاجك فوق الريح .. منذ قليل مرّ الكاتب خوان غويتسلو في الساحة .. على كتفه حقيبة مثقلة بالرقوق .. يتأمل وجوه الكون باحثا عن مخطوطة .. يتحسس الموجودات في ساحة جامع الفنا بيقينه .. يحاورها عبر لغة الجماد .. يقلب بين يديه تمثالا طينيا على هيئة وجه دون أنف .. يمسح عن ملامحه بعض أسى الغبار .. يحاول أنْ يُضحكه ويُسَرّيه بدغدغات من أصابعه الناقشة ..وعندما لم يستجب الجماد لحي .. همس غويتسلو في أذنه طويلا و أعاده مكانه .. بعد قليل رفض البائع المرّوكي أنْ يبيعه إلى سائحة قشتالية وركنه بحرص في خزانته الخاصة ..

من محطة باب دوكالة للركاب حتى ساحة جامع الفنا مسافة قصيرة .. تصلها راجلا أو تستقل عربة يجرها حصانان .. في رأسي الكثير من الضجيج .. المدينة جميلة بكتبيتها الشامخة ومساجدها وأوليائها وبيوتاتها وأسواقها ومرافقها المنتشرة في العمران .. لست رحالة لأحكي لكم عن الأواني والزرابي والمشغولات المعدنية والأسواق والمساجد ودور اللهو .. تركيزي كله منصب في ساحة جامع الفنا .. أقف في هذه الساحة وسقفي السماء .. بهلول يقترب يريد صدقة أعطيه خمسة دراهم معدنية .. يتأمل الشمس ويرميها ناحيتها .. كثير من العيون تتابع رحلة الخمسة دراهم وهي تصعد إلى أعلى بطريقة لولبية .. البهلول أيضا يتابعها وهي عاجزة عن بلوغ الشمس وساقطة في دغل قريب .. يطلب مني مرّة أخرى فأعتذر له .. العاطي هو الله .. وأنا بشر مثلك .. على مصطبة قريبة من بنك المغرب تجلس عرّافة مختمرة .. شابة في مقتبل العمر .. معتدلة القوام .. أقرب إلى النحيفة من السمينة .. عيناها واسعتان كحيلتان .. بشرتها الظاهرة في رقبتها وكفيها بيضاء منمشة بالخوال .. ترتدي جلابية زرقاء وغطاء رأس بنفسجي .. أظن أنها من الشلوح .. البربر.. نادتني باسمي آتيتها .. أصافحها وتبادرني أبغيت نقراك لوجه الله الكريم .. لم أعلق .. أبغيت نحكيلك عن فطيمة .. صاحبتك الصغيرة السمينة .. لم أستغرب ولم أندهش وجلستُ بجانبها أمارة الموافقة وبدأت حكايتها .. صاحبتك تعاني من ضيق .. قدمها توجعها .. زوجها سافر وما عاد .. أطفالها قلقون .. وهي موجودة الآن في بلد بعيد .. وتفكر فيك بالزاف .. وتفكر في أصدقائها الصغار .. دفعت لها عشرين درهما لأعرف أين سافر زوجها .. إلى افغانستان وزدتها عشرة دراهم لأعرف أين هي ؟ .. في باكستان .. وقفت وشكرتها صامتا .. أتجول في الساحة .. أستمتع بصخبها وأعود إلى محطة باب دوكالة .. استقللت حافلة إلى قلعة السراغنة حيث صديقتي وأهلها ينتظروني هناك .. وتحركت الحافلة في طريق مزدحم بدأ يخف زحامه كلما ابتعدنا عن مراكش .. قرى صغيرة نمرّ عليها .. أتطلع من خلال النافذة .. بنات بالملابس الأوربية يركبن دراجات هوائية ومجلببات يسرن على الرصيف .. .. وبقالات صغيرة .. ومخادع هاتفية .. ومحطة وقود .. وأسواق عشوائية مزدحمة بالناس .. بعض المواشي تسرح .. أحيانا نمر على بعض المدن الصغيرة .. مدينة تملالت .. ولوحة تشير إلى منطقة الولي الصالح المشهور بوي عمر .. الحافلة قديمة تدبّ ببطء والسائق ثرثار لا يصمت .. بجانبي شاب يضع جهاز هيتفون في أذنيه يستمتع بأغنية ما.. تجاذبنا أطراف الحديث .. أنا من بنغازي .. هو من بني ملال .. قريبة من بن جرير ومن قلعة السراغنة .. حديثا شيقا حكيناه عن كرة القدم وعن اللاعبين المغاربة الدوليين .. بودربالة .. تيمومي .. ظلمي .. خيري .. البياز .. كريمو .. حجي .. النبت .. الحضراوي .. كماشو .. صلاح الدين بصير .. البهجة وغيرهم .. وفجأة هبّ الشاب من كرسيه واقفا يعانقني معتذرا بالحاح رغم أنّه لطيفا معي ولم يخطئ في حقي بأي كلمة .. قبـّل رأسي

طلبا للتسامح وضغط في أذني إحدى مسمعتي مذياعه الصغير .. صرت أشاركه غذاءه الروحي .. كانت الأغنية الصادحة لمطرب العرب عبدالوهاب الدوكالي

مرسول الحب أوين غبتي علينا .

قابلت صديقتي وأهلها .. أصروا على الإقامة معهم في البيت .. في نفس اليوم تحوّلت الصداقة إلى حب وطلبت مني صديقتي أنْ أخطبها .. وماذا أفعل خطبتها من أخيها وأمها .. أبوها مهاجر إلى فرنسا منذ عقود متزوّج من مغربية أخرى لديها أوراق إقامة ويرسل لهم المال كل شهر .. لم تسألني الفتاة عن حالتي الاجتماعية وأنا لم أتحدث بشيء .. تركت الأمور تجري في أعنـّتها .. في جنونها اللا إرادي .. في قدرها المحظوظ .. دون أي تدخل مني .. كان معي منحتي السنوية ١٠٠٠ $ .. أعطيتها كلها لها فأرجعت لي قليلا منها .. اشتروا خروفا .. وأحضروا النقاشة (الحنـّاية) ألبستُ ملابس شعبية مغربية وجلست بجانب خطيبتي .. والحنّاية تنقش لها كفيها وقدميها بواسطة حقنة طبية مليئة بعجين الحنّة اللزج.. كانت النقاشة ماهرة وجميلة .. في الأربعين من العمر تقريبا .. ناعمة ممتلئة قليلا .. تنقش وتحكي .. وتضحك .. وتشارك الحضور رقصهم وغنائهم .. وبين حين وآخر تسألني سؤالا عن مشاعري فأجيبها وإنْ انغلقت عليّ كلمة دارجة تشرحها لي خطيبتي بلغتنا الخاصة .. هذه الخطيبة تعرفت عليها عن طريق المراسلة .. وضعت اسمي وعنواني في ركن التعارف بمجلة الجيل فجاءتني عدة رسائل هي من ضمنها رددت عليها وتحدثنا هاتفيا عدة مرات .. وأخيرا تمّ اللقاء .. التقيت بأخيها في طرابلس .. جاءني في الفندق وعرفته منذ أنْ ولجت قاعة الاستقبال المكتظة بالبشر .. قلت له أنت فلان .. عرفته فطريا .. شممته تلقائيا .. قسّمت جمال أخته على أثنين لأقتنص وجهه من سراديب الخيال .. جاء إلى ليبيا ليجرّب حظه في العمل .. اشتغل سائقا في مزرعة .. لكن لم يقنعه العمل ولم يرضِ طموحه فتركه ونكص إلي المغرب .. صرّح لي ذات تجلٍ أنّه جاء إلي ليبيا من اجل الحرق (الهرب) إلى إيطاليا .. فهناك أخيه يقيم منذ مدة .. بعد أنْ أتمتْ النقاشة عملها على أطراف خطيبتي وجفّت الحنة قليلا ناولوني ماجارة ذهب دائرية وقالوا لي أخرط .. فخرطت أي كشطت بعض الحنـّاء من قدمها .. وضعوا العجينة المكشوطة في راحتي وقالوا لي أقفل يدك عليها ما استطعت من زمن .. بعد ساعات صبغتْ الحنـّاء في راحتي .. وفي اليوم الثاني أقاموا لي حفل خطبة .. حضرت فرقة قلعة السراغنة الشعبية ومطربها المشهور الفنان بيّاض الذي يقلد المطرب الكبير فيصل خاصة في أغنيته أمرك صار محيرني وأعذرني إن عاتبتك ويقلد أيضا المطرب الكبير حجيب في صرخاته الشاذة والشهوانية وتعشى الناس الكسكسي باللحم .. ولبست ملابس جديدة بربطة عنق وأول ما دخلت كانت مصورة الفيديو تعمل تمّ تسجيل كافة الحفل .. جلستُ بجانب خطيبتي .. وفرقة نجوم السراغنة تغني وتعزف الألحان .. وكل من يريد أغنية بعينها يطلبها .. وطلبوا مني أن أغني أغنية شعبية ليبية فغنيت لهم أغنية المرحوم الفنان ادريس الدرسي ..

" يعوّض عليْ الله .. في اللي جفا وانسينا
ما يوم خنت غلاه .. ولا يوم هان علينا "
" يعوض عليْ الرب .. ماكيف زوله حب
حبه سكن في القلب .. اللي كحيلة عينا

ورقص على أنغام لحنها المرسكاوي كل من في الحفلة .. واستحسنتها الفرقة الموسيقية لحيوية إيقاعها الراقص وبنت من الحاضرات همست في أذني : صوتك زوين ماحلاه .. فقرصتها خطيبتي في وركها حتى أطلقت صرخة حولتها إلى زغرودة كي لا تفضح .

وفي فترة الاستراحة غيّرنا ملابسنا بملابس شعبية .. جلابة ودرعية وعمامة مبرقشة وحقيبة جلدية تعلق في الرقبة وأعطوني خنجرا معوجا كخناجر اليمن رشقته في حزامي .. وصرتُ أرقص معهم في جو بهيج .. كل أقارب خطيبتي كانوا حاضرين .. لم أشعر أنني في عرس .. أو أنني في واقع .. شعرتُ أنني هارون الرشيد .. لم أعامل بهذا الاحتفاء وهذا التقدير طيلة حياتي ولن أعامل .. الخنجر سقط على الأرض وناولته لي إحدى الفتيات فأعدته إلى وسطي .. كانت الناس فرحانة وأنا فرحان وحزين ومتألم .. لا يمكن التراجع .. فليحيا العبث .. في ساعة متأخرة من الليل انتهى الحفل .. ومن طقوسهم أنْ نبيت في غرفة واحدة أنا وخطيبتي وأمها وخالتها .. وبتنا في نفس الغرفة حسب الطقوس والعادات .. انطرحتُ على مصطبة طويلة مفروشة بالكليم ملاصقة للجدار عرضها يتسع لجسد واحد وانطرحت خطيبتي على نفس المصطبة بعدي صرنا كعربتي قطار رأسانا تلامسان بعضهما .. رأسي ملاصق لرأسها ورجلاي ورجلاها بعيدتان .. وغطتنا أمها بلحاف جديد وفجأة صرخت فينا اجذبوا فجذبتُ اللحاف ناحيتي وجذبتْ خطيبتي ناحيتها .. لكن الغلبة كانت لي .. فقالت خالتها سيحكم عليك الليبي طوال العمر .. وضحكنا جميعا ضحكا لم نضحكه في حياتنا .. وبعد مسامرات طويلة دب النعاس في الجميع وناموا ..

كانت الحجرة مظلمة و باردة وجسدانا ليس متلاصقين .. صرنا نتلامس باليدين ومرّة مرّة أمدد رأسي ناحية خدها وشفتيها وأختلس قُبلة .. وأحيانا تفعل هي .. لكن بعد أنْ غطّ الكل في سبات عميق .. وجدتُ خديها مبللتين .. قلت لها خير دين أمك .. فصارت تنشج بالبكاء الصامت .. قلت لها دموع فرح أم ماذا ..؟ قالت لي دموع حزن وقهر .. لماذا تجعلني أتعلق بك ؟! .. فتشت أوراقك في المحفظة ووجدت في بطاقتك الشخصية كلمة متزوج .. قلت لها لم تسأليني يا دين أمي .. والأمور كما ترى .. بالأمس فقط وطأت رجلاي أرض المغرب وها أنا عريس .. لم تمنحيني فرصة لنتعارف أكثر.. لأبوح لك بكل شيء .. قلتي لي لا تخرج من البيت .. ما نتركك تمشي بروحك وكان يصير بيننا القتال .. أنت السبب .. أنت صاحبة الأمر .. المقررة .. أنت التي تفصلي وأنا الذي ألبس .. وأي شيء تريدينه حاضر .. أنت السكين وأنا اللحم .. أنا أحببتك كثيرا كثيرا جدا .. وكانت الليلة باردة والأمطار تهطل .. وماعاش فيها .. لا زمن للدموع .. ضغطت على يدها وداعبتُ نهدها فانزلقنا أماما مسافة نصف ذراع وجاورت رأسها رأسي وتبادلنا ألسنة العتاب ودميعات العذاب و نسينا كل شيء ودبّ الدفء وعمَّ الخراب وسال الرضى على مهل متسللا إليكِ يا ذاكرتي النابضة .. وخلاص أمره واندلف .. يبدو أنها رضخت للأمر الواقع فجففت دموعها بطرف كمي ثم سألتني اش حال عندك من صغار ؟.. كان لدي آنذاك ستة أطفال .. فأجبتُ رأفة بقلبها : ثلاثة ..

في الغرفة كوّة صغيرة قريبة من السقف .. هي نافذة الحجرة .. لم أنم .. وكيف أنام .. وقد تنفصل البنت صباحا وتخبرهم ويقع ما لا يحمد عقباه .. مغاربة .. وسحر .. وقلعة سراغنة سرغن برقن .. شيء كثير .. ظللت ساهرا حتى الفجر .. ومع خيوط الصباح الأولى نهضت عن المصطبة وذهبتُ إلى الغرفة الأخرى التي بها حقيبتي السمسونايت التقفتها وخرجت من البيت .. كان الجو باردا جدا .. وفمي يخرج مع كل زفرة بخارا كثيفا .. تجولت في أزقة وأحياء القلعة من عرصة الحاج الطاهر إلى حي القدس إلى جنان بكار إلى شارع مولاي إسماعيل وفندق الزاوية .. وفي شارع مولاي محمد الخامس قرب مبنى الباشوية وجدت مقهى مفتوحا .. طلبت إبريق شاي بالنعناع وجلف خبز بالسمسم وزيت الزيتون وفتحت الحقيبة أفرز الأوراق وأمزق .. هناك خواطر لزوجتي مريم مزقتها .. رسائل بها أسماء أطفالي مزقتها.. عناوين مزقتها .. أرقام هواتف مزقتها .. لم أبْق شيئا سوى القسائم التجارية وبعض الأوراق التي لا علاقة لها بالأمر .. جواز سفري وبطاقتي الشخصية ونقودي وضعتهن في جيبي لتلازمني حتى في الحمّام .. وعدت مع شروق الشمس .. وجدتهم حائرين .. الجدّة والخالة واقفتين أمام البيت .. والأم في ناصية

الشارع .. وخطيبتي في الشرفة قلقة تبكي .. ما إنْ رأتني .. حتى نزلت تركض السلالم تعانقني بشدة على أول درجة ..

الموقف مؤثر وخطير .. لا يمكن التراجع .. قررت المضي قدما في هذا الأمر .. في نفس اليوم عندما جاء الليل قالت أمها ستبيتون في غرفة واحدة مع بعض .. هكذا عاداتنا .. الخطبة لدينا زواج .. ما تترك مراتك وأنتِ ما تتركي راجلك .. كل بلاد وعزاها .. كان الجو جميلا .. كل صباح نرتدي الملابس الرياضية ونخرج إلى غابات الزيتون في سفوح قلعة السراغنة .. ونعود مع الظهر .. نتغدى وننام قليلا ونخرج نتجول في شوارع وأزقة وأسواق هذه المدينة الوديعة .. كل الناس عرفتهم بل صاروا أصدقائي .. يكرمونني بالطعام والشاي .. والإسكافي يصر ّ على تصليح حذائي وتلميعه يوميا .. والحلاق يحييني ويحلق لي ذقني قبل الزبائن المغاربة والحمّام البخاري مشرفه يمنحني سطلا نظيفا وحصيرا بلاستيكيا أنطرح عليه ويخصص لي أفضل مُدلكيه .. والكلام الجميل مطر على أذني والابتسامات عبير ورد ينعش بصري .. أحيانا نزور ضريح سيدي إسماعيل وهو ولي صالح قرب سوق الخضراوات العشوائي .. نجلس فيه قليلا .. نشرب من مائه .. ونضع بعض التمر والنعناع والشموع وقوالب السكر صدقة لمريديه .. في المساء نعود .. نتعشى ونتفرج على القناة الثانية المغربية .. ثم نأوي إلى اليقظة في فراشنا ..

وفي يوم ٢٧ رمضان زرنا المقبرة العامة .. كانت مكتظة بالزوّار وأمام المقبرة عربات لبيع التمر والتين المجفف بجانبها كثير من المتسولين والحواة وبائعي الملابس والأحذية والأغذية والمسابح والبخور والخبز والمشاريب وقرّاء القرآن للترحم .. في هذا اليوم من كل عام يزور المقبرة كل من له ميت في السنين الماضية يترحّم عليه ويقرأ على قبره الفاتحة ويتصدق من أجله .. ومن ليس لديه ميت في المقبرة مثلي يترحّم على الجميع ويتصدق على الجميع .. ذهبت و خطيبتي جهة قبور الأطفال .. مكثنا زمنا نقرأ القرآن من مصحف صغير ونتخيّل الألم الذي عاناه هؤلاء الأطفال لحظة المرض أو قبض الروح .. كم هي تافهة هذه الحياة .. التي تأتي بطفل صغير وتأخذه سريعا .. ربما لديها عيون ترى المستقبل فترفض أنْ يتألم هؤلاء الصغار ما لا يطاق .. المقبرة واسعة .. أرضها غير مستوية .. مليئة بالنباتات الشوكية الميتة والحيّة .. قبورها قديمة وحديثة .. سورها مهدّم .. القبور عادية .. منخفضة .. لا لوحات مرمر منقوشة .. لا أضرحة فاخرة .. الشواهد كلها أحجار غير منتظمة .. المطر يبلل طين القبور فتنبت الكثير من النباتات الخضراء والتي يحولها فصل الصيف والخريف إلى مؤذية متوحشة .. في اليوم التالي صدم سائق شاحنة طفلة صغيرة تلعب أمام بيتها .. كنا قد رأينا قبرها المفترض في اليوم السابق .. القبور تنادي .. ونحن لا نسمعها .. عندما يحفر الإنسان قبره بيده يعجز عن استحضار موته .. وعندما يحفر له قبره الغير لا يعرف ساعة موته .. وحفار القبور يحفر عدة قبور ويتجوّل في الشوارع والأسواق وقد يكون قد حفر قبره هو دون أنْ يدري .. لم نرافق جنازة هذه الطفلة الصغيرة .. كنا نتجوّل وقابلتنا الجنازة قادمة من الاتجاه المعاكس .. كان أخو خطيبتي من ضمن المشيعين.. خطيبتي محتارة و تدعو الله الدم يا رب وأنا أتألم وبشدة .. مشاهد روحانية .. في أيام بيض مباركة .. والطمث تأخر .. والمطر يهطل على الجنازة .. والجنازة تسرع ليَغرق القبر .. ونحن نختفي في أول مخدع هاتفي .. نجلس على المقعد الطويل جنب بعض .. تمد لي منديلا .. تكفكف لي دموعي الساخنة الممتزجة بقطرات المطر الباردة .. الماء يواسي بعضه .. خطيبتي تهمس إشبيك تبكي .. تذكرت أطفالك الثلاثة .. لا .. لكن أخاك منظره في الجنازة وهو يردد لا إله إلا الله محمد رسول الله أثّر فيّ .. أبكاني .. أيقظ ندمي .. لا عليك ما تحمل هم يا ليبي .. استمر هطول دمعي .. اشبيك بحق ربي تبكي مرة ثانية .. قلت لها .. الدم .. الدم يا رب .. قالت لي : لا تقلق .. وخليها على الله .

ذات مرة أحضرت لها قطع شوكلاتة مارس وكيت كات وكراشن .. صرنا نلوكها في الليل تحت البطانية في الظلام وألعق في جسمها وتلعق في جسمي .. فتشوّه اللحاف دون علمنا .. بعد يومين قالت خطيبتي أمي تشك أنك أفقدتني عذريتي ولديها الدليل .. اللحاف الملطخ بالأحمر البني تحتفظ به في كيس بخزانة غرفتها.. فكرت قليلا مسترجعا الأحداث وقلت لها الذي لطّخ اللحاف ليس الدم إنها الشوكلاطة .. بعد نصف ساعة جاءتني فرحة منبسطة الأسارير .. جدّتي شمّت اللحاف وقالت شوكلاتة وأمي غسلت اللحاف وزالت اللطخ بسهولة وبدون صابون أو بوتاس .. لو كان دما لبقت.. كانت خطيبتي مراهقة في الشهور الأولى من عامها السابع عشر .. وكنت كبيرا في السابعة والثلاثين من العمر .. فرق العمر شاسع .. وجدتني أتعامل مع طفلة لم تنضج .. ليمونة خضراء منمّشة صفارها باهت .. ليست لي ولست لها .. من الظلم أنْ أتزوجها .. أو أعتدي عليها .. ومن الظلم أيضا أنْ أنام بجانبها صنما كما في الرواية اليابانية الجميلات النائمات .. خليتها على الله .. تركت الأمور تجري في أعنتها .. لم أضع نفسي في هذا الموقف .. إنه القدر .. فليتحملني وأتحمله .. وذات يوم وبعد انتهاء شهر رمضان المبارك وقيامي لليلة القدر في مسجدهم العتيق قررت أنْ أغادر ..

كان صباحا سعيدا .. ابتدأ بزغرودة من خطيبتي .. وعرفت السبب .. ركضت فورا إلى الصيدلية وأحضرت لها كيس قطن نسائي .. لم أضعه في كيس معتم .. دخلت به البيت واضحا لتراه أمها .. فطرنا وخرجنا إلى مراكش تجولنا وتغدينا في مطعم بيتزا هوت بشارع محمد الخامس .. وتجولنا في سوق دوار العسكر .. ثم زرنا سيدي بالعباس و تصدقنا على مريديه المكفوفين بعدها مكثنا في ساحة جامع الفنا نشرب الآتاي ونتابع العروض .. وعندما مللنا اندلقنا إلى شارع مبروكة التجاري اشتريت لأخت خطيبتي الصغيرة دراجة هوائية والتقطنا بعض المناظر ثم عرجنا على شركة الطيران المغربية حجزت مقعدا إلى تونس ومن تونس إلى جربة .. وفي صبيحة اليوم التالي ودعوني بالدموع .. قلت لهم سأذهب لإحضار الأوراق من أجل إتمام الزفاف .. طيلة الطريق وكابوس الزمن يضطهدني الفرق عشرون حولا يا بني آدم .. أترك الفتاة لنصيبها .. لشاب مغربي يقاربها في العمر .. سوف تتعبك .. لن تقدر على هذه الفرس بعد سنوات .. هذه مغربية تحبُ الرقص والغناء ولاعبة تيكواندو قد تدك لك عظامك ساعة غضب .. .. وغرقت في الوسوسات .. وركبت الطائرة .. ومن مطار تونس أرسلت لها بطاقة بريدية .. قلتُ لها احبك .. ولم استطع أنْ أكتب لها وداعا ولن أعود .. في الطائرة من تونس إلى جربة التقيتُ بشاب طرابلسي اسمه سليم .. قرأ حيرتي .. وقال لي الدواء عندي .. لن تفارقني أسبوعا على الأقل .. وصلنا إلى بيتهم في قرقارش .. ارتحنا .. وفي الصباح صحبني إلى شيخ أعطاني قنينة ماء .. طلب مني أنْ أشرب منها وكلما قاربت القنينة على النفاد ملأتها من جديد ورججتها لتختلط المياه الباقية بالقادمة ومن ثمّ أشرب منها مجددا لمدة أسبوع .. لأنه إنْ لم أفعل فسأبيع ما ورائي وما أمامي وأعود إلى المغرب من جديد وستؤثر في رائحة البخور إنْ أطلقها مرابط قلعة السراغنة سي علي فاتتبعها مجبورا حتى أضع وجهي في موقدها .. بعد أسبوع عدت إلى بنغازي وبعد أسبوع آخر غادرت إلى بانكوك وهناك في حانات البادبونغ ومع شراب الجن والفتيات البوذيات ذوات رائحة الثوم نسيت المغرب وحتى العصر .

لكنني لم أشعف (اتعظ) .. ففي طريق عودتي تعرّفت على فتاة مصرية عن طريق صديقي زوج أختها وذهبت معهم إلى البيت قابلنا أمها وأباها وتحدثتُ معها في الشرفة.. لم أعرف كيف أدخل في الموضوع .. سألتها أهلي أم زمالك ؟ .. قالت زمالك .. قلت لها الحمد لله .. أنا أهلي .. والزمالك دائما يخسر .. وأنا الأهلي دائما أفوز .. لكن سأمكّنك من تحقيق التعادل .. بس اسمعي لا أحبّ التعادل السلبي خاصة في الظلام .. وضحكت كثيرا .. وقالت لي أنت دمك شربات .. فقلت لها وأنت شفايفك عصير مشمش .

كانت فتاة بيضاء رشيقة طويلة .. جبينها وضّاء .. عيناها عميقتان .. تسكن منطقة شبرا قرب مطعم مشهور للأسماك يرتاده عادل امام وليلى علوي وجمال الغيطاني والحاج متولي أشهر بائع فسيخ في الفيوم .. طيبة وهادئة الملامح .. تريد الستر والاستقرار .. عمرها خمسة وعشرين تقريبا .. اسمها سلوى .. وفعلا كانت سلوى للروح من خطايا وآثام ارتكبتها طيلة الشهور الماضية .. تحدثنا في عدة مواضيع وأبقيت راحتها بين راحتي قليلا .. وقبل ترك الشرفة لتناول العشاء قبّلت جبينها ودخلنا متشابكي الأيدي .. في اليوم الثاني دخلتُ إلى حلاق في شبرا لأحلق ذقني .. رفض حلق ذقني .. قال لي حرام اتق الله .. لا أحلق سوى شعر الرأس .. جادلته وقلت له بي مرض جلدي .. لا أحتمل الشعر في وجهي .. رفض أيضا ودلني على حلاق قريب.. روحلوا حيحلأ لك ابن الكلب .. .. حلقت عند ابن الكلب .. وصعدت عمارتها .. وجدت أباها النجار الطيب تحدثت معه كثيرا عن خشب دمياط ورزات وبراغي ايطاليا وفي شتى المواضيع .. ولم أجلس معها كما يوم أمس .. قلت له لقد اتفقنا .. وتفاهمنا ونتمنى من الله التوفيق .. عدت إلى ليبيا وبعد أسبوع قابلني الباهي زوج أختها تاجر الشنطة فقلت له لابد أنْ تخبر الفتاة أنني متزوج ولدي ستة أطفال وزوجتي غير متفاهم معها .. لذلك أريد زوجة أخرى تفهمني .. بعد أسبوعين عاد من القاهرة ليقول لي ضاحكا أنّ الفتاة وافقت على الزواج منك لصدقك .. لكنها تتساءل دا مش متفاهم مع مراته وأنجب ستة أولاد وكان متفاهم معها حينجب كام ؟ .. دستة .. وقهقه المكان ..

كنت في الطريق لإتمام أمري مع سلوى المصرية لولا أنّ القدر قادني لأتفقد صندوق بريدي اللعين ٣٢٥٩٣ بنغازي ليبيا ولأجد فيه رسالة من فتاة درناوية .. ودرنة شيء لا يقاوم .. دائما أسمع عن بناتها الجميلات .. ولسانهن المرتخي كعسل يسيح .. *أنــــت يا بنغازينو .. أنت يا سمح .. يا ظريف .. يا روح قلبي .. يا قلب روحي .. يا بهجة حظي وغنوة أيامي .. يا حبي النابض .. يا سرابي المبلل .. يا نصفي الضائع .. يا بارقة أنسي .. يا مرود عيني .. يا حنّــتي .. يا كُحلي .. ياروجي الرطب اللامع .. يا حنيني الكسول .. يا سكري .. يا حلقومي .. يا كنكم ما تجونا .. يا حلوة معجونة .. يــا حبيــبي .. يــا حـليــوة .. أنت داير في القلب فجيـوه .. حبك أرز عليه بكــيوه .. مــــا نــتــحــمــلــكـــش بكل بكل .. خلاص اخترقتنــي يا مجرم نزّل عيونك* .. خزرتك ما احلاها .. زيد كولني .. أمضغني .. مانسبيلكش سوسة .. أنا لـبُانة هشّة ديرني انبولة بفمك وفرقعني .. فرقعني ولن تندم .. وتخيّلت جسمي وقد تمدد بالكامل واسمي وقد صار يُنطق بغنج ودلال وحنان .. وتخيلت أطباق الموز الدرناوي وشاي البردقوش .. وقرابة الزهر .. وحساء سعيدة .. وماء الشلال البارد العذب .. ووجدت الأصدقاء ينظرون إلي بإعجاب وقد تغيّرت هيأتي وحالتي ويتهامسون .. ربي عاطيه على قصاد نيته .. متزوج درناوية .. وفكرت مرددا في داخلي .. من بنغازي إلى القاهرة ألف كيلو متر .. من بنغازي إلى درنة ثلاثمائة كيلو فقط .. والاقربون أولى بالمعروف .. وليس هناك أفضل من اللحم الوطني العطشان الحار سريع النرفزة قوي الغيرة .. حتى في السوق سعره غال وشواءه لذيذ .. وزاد الطين بلة إذ وجدتها كاتبة .. تكتب الخواطر والأشعار والتحقيقات الصحفية المثيرة للضجة عن الشباب والفراغ .. وقارئة جيدة .. وناقدة لها رأي وليست إمعة .. ومتمردة على كل التابوات .. وعصبية مثلي بالضبط تنفض ما في يدها أو بنصرها بعنف .. وجدتها قريبة من نفسي بل ترقص وتغني داخلها .. وتنقش نكهتها الأبدية المتجذرة في أعماق روحي .. فتعارفنا سريعا وحكيت لها عن حنيني لسلوى المصرية الزملكاوية الطويلة فقالت لي : عقلك خضر .. من سلوى معاي .. معاي مافيش حد .. أنا درنيسية .. وانكانك على الطول حتى أنا طويلة .. سألبس لك كعب عالي .. أنا سلوتك الأبدية .. أنا تسليتك المرحة .. وابتسمت ابتسامة بين الفرح والحزن والمكر والسذاجة .. ابتسامة حروفية تلازمني حيث مشيت .. مع هذه الفتاة عرفت شيئا قدسيا اسمه البهاء .. وتوطدت علاقتنا على الورق والهاتف ومن بعد على الطبيعة وتلك حكاية أخرى لا رغبة لي في حكايتها الآن ..

وقد لا أرويها أبدا .. وقد أحكي لكم نتفا منها .. إنْ سكنت إلهامي وأحبّت الخروج .. حياتي أمل .. وألم .. ولا شيء غير الأمل والألم اللذان أحبّهما وأقدّسهما ولا اعبدهما بالسجود والركوع.. حياتي كحياة كل قارئ منكم .. علاقة عرس مليئة بكل شيء .. لا فراغ فيها ولا فرار منها .. فوران أبدي من حطب الهموم .

عندما أحبّ فتاة وتتركني أو أتركها لا توجعني هي بحد ذاتها .. لكن ما يؤلمني هو اخوتها .. أخواتها .. أمها .. أبوها .. جدتها .. جدها .. أقاربها .. جيرانها .. مدينتها .. شارعها .. بيتها .. سريرها .. بطاطينها .. رائحتها .. ابتسامتها .. دمعتها .. قشعريرتها .. رسائلها .. ذكرياتها .. دائما اواصري مع الأسرة والأشياء أقوى من اواصري مع الحبيبة .. الحبيبة ليست هناك مشكلة إنْ فقدتها أو فقدتني .. فالحب هكذا هي طبيعته .. اتساع متشتت .. ابن حرام متقلب .. لا يرسو على بر ولا ملموس تحته من أجل المخطاف .. لكن الصداقة .. الإنسانية .. الحنين .. الابتسامة .. الترحيب .. الكرم .. صعب على الإنسان .. بل مستحيل نسيانها .. لن أحتمل تكشيرة من إنسان لأنّ أخته أو ابنته تركتني أو تركتها .. أريد أنْ أفرحَ الناس وأبكي .. معضلة مؤلمة .. وضربة قاسمة .. لو أحببت مجددا سأحبّ لقيطة .. مقطوعة من شتلة .. لا أب ولا أم ولا اخوة ولا أخوات .. لكن لو فعلت فستظهر لها أسرة وأموت من تكشيرات قرائي وأصدقائي الرومانسيين .

ما حكيته عن قلعة السراغنة ودرنة وشبرا القاهرة .. محض خيال ومحض خـُبال .. وليس حقيقة .. فالحقيقة دائما لا تـُحكى .. أو أنها تحكي نفسها ولا يحكيها الغير .. وأنا بالنسبة لهذه المدونة ليس من نفسها إنما من الغير .. لقد نفدت نقودي الآن وعليّ أن أعود إلى رباية الذائح .. لا أستطيع البقاء في الغربة مفلسا .. في الدار البيضاء سكنت في فندق اكسلسيور .. قريبا من مقهى فرنسا ومن باب مراكش ومن فندق حياة ريجنسي الفخم .. أنتظر طائرة أو سفينة مغادرة إلى ليبيا .. أنتظر مطيّة ترفض أنْ تصل .. أنتظر أنْ أنام الآن .. وأتألم .. أو يزورني أي كابوس .. سأكتب غدا .. نحن الآن في مدينة قوريني الأثرية .. الثانية صباحا الموافق ٢٠-٢-٢٠٠٤ م .. البرد شديد وحساء سعيدة على النار والمطر يهطل والريح تستحلب صراخ الأشجار الأزلي .. والنافذة يرفض بابها أنْ ينغلق .. أدفعه بكل قواي .. وتساعدني حبيبتي .. لكنه لا ينقفل .. لقد نفخه الماء .. الماء اللعين .. نافخ أبواب مواخير شوارع الشطشاط وبالة ومهرّيها .. الماء اللعين .. هازم الكل .. وسيد العالم .. فاغر الفاه السائل .. المُبـِل بإذن الله .. قاهر الطين والحديد والخشب والنار .. زاد الدموع .. جلاد الجماد .. طعام اليباس .. نور الشياطين وسر الوجود وطهارته .

بعد أيام .. الجو بارد .. المطر يتهاطل ببطء .. وشعاع من شمس يتخلل كتل السحاب ويختفي .. قوس قزح يبين كلما كثرت الأشعة المتسللة من الشمس .. التماثيل المبللة بالماء تلمع .. أتلمسها بأصابعي .. أحسها باردة .. عيونها مطفأة وأعضاؤها مجتثة .. تماثيل مشوّهة .. جميلات كثيرات فقدن جزءا من أنوفهن ورجال فقدوا أطرافهم وأعضاءهم التناسلية .. وتماثيل أخرى بدون رؤوس .. رؤوسها سُرقت .. أو أنها تهشمت في السنين الخوالي .. هكذا هو التاريخ .. سجل مهترٍ .. ركام من الهشيم .. دنيا من الخضوع .. فضاء من الغرور ومن الحضارة الصاعدة والقافزة إلى جُبّ الإهمال والنسيان .. ويبقى المطر يهطل على رؤوسها والشمس تلسعها بسعيرها الأبدي والطيور تبزّق على أكتافها وأنوفها ويعود المطر يهطل على الهامات ينظفها ويذكّرها ويفتتها ويُحْنِيها ويغرقها ولا أحد يمسك للرؤوس مظلة .

رأسي مهشم .. قلبي محطم .. فكري مشتت .. أفكر في تلك العرّافة الناضجة .. ربما لم تكن عرّافة .. ربما مألوفة أمن تتشح بالعرافة والفراسة واقتفاء الأثر .. كيف عرفتْ اسمي ؟.. كيف عرفتْ رفيقتي فطيمة وزوجها ؟.. أشياء تحيّر .. هل هي أيضا عسكري قرأ ما كتبت في

الصفحات الخوالي .. هل ما أكتبه مكشوفا على الملأ .. وماذا كتبت أنا ؟.. ومن انتقدتْ ؟.. ومن هاجمتْ ؟.. لا أحد .. لماذا القلق وتضخيم المشكلة .. لم أفعل شيئا .. طفل يدوّن ذكرياته .. ومدن تتحدث عن آلامها .. وشعر يبوح باضطرامه .. أعرف القاعدة في الكتابة .. لا تهاجم الرأس أو رئيس الدولة أو الملك أو الزعيم أو الأمير .. وبقية الذيول شكّـهم في أكبر خازوق .. وهذا ما نفعل نحن الكتاب المترنحين الرافضين .. غير المستندين على ركن متين .. دائما في السليم .. لا نتجاوز الخطوط الحمراء .. بل حتى الخطوط الباهتة .. نحن لا نتواجد في أمكنة أو أزمنة بها خطوط .. نحن فضاء داخل فضاء يفضي إلى فضاء لا يُطال حتى في الأحلام .. نكتب على ورق غير مسطر .. نلعن الذيول .. والغلمان .. والبيادق الكسيحة .. ألعب واقف .. وأين نعيش نحن ؟ .. هل في المدينة الفاضلة .. مدينة الطوباويين .. إننا نعيش في عالم شرس .. عالم منقاد .. عالم غير قابل للانتقاد .. عالم سيارة كرسي واحد ودراجة (سيلة) واحدة .. عالم غير قابل للقسمة .. يرفض الكسور العشرية والاعتيادية .. لا يعترف بالجبر والهندسة والعلوم الإنسانية .. عالم يطاردك عبر منظماته الأخطبوطية ويستأصلك من جذورك .. لا تصدقوا منظمات حقوق الإنسان .. منظمات حاميها حراميها .. لا تصدّقوا حق اللجوء السياسي .. اللاجئون السياسيون أوراق رابحة في كل دولة .. عُملة إنسيّة .. يقايضون بها مطلوبين لديهم لدى الدولة الأخرى .. لا جنة على الأرض ولا واحة آمنة في السماء .. علينا أنْ نضيع .. علينا أنْ نعثر على حقيقة تقنعنا .. علينا أنْ نحافظ على أنفاسنا من السرقة .. وأرواحنا من الاستلاب .. بع العالم واشترِ نفسك .. المؤامرة القادمة ستكون على ملجأنا الأخير .. على الله .. سيحاولون كشف سرّه و الانقلاب عليه .. سينقبون في كتبه .. قرآن .. إنجيل .. توراة .. زبور .. صحائف .. ما لم نقصص عليك .. الخ .. ليعرفوا سرّ الوجود .. وكيف يوجدون هم أيضا وجودهم الغائب .. وكيف يقبضون على هذا الإله .. لو سنحت الفرصة لهم فلن يترددوا .. كل حاكم سيكون إلها .. إله على شعبه فقط قليل .. غير مقنع .. لابد أنْ يكون كبير المؤلهين.. مؤله على الإله .. الإنسان مغرور .. ولو خلق الله الإنسان بدون غرور لانقلب عليه .. أنا أكتب عن أشياء خلقتني .. أنا مغرور .. وكل قارئ مغرور .. كل قارئ يفهم كل شيء .. كل قارئ مؤله على الورق .. ورئيس على الكِتاب المسكين .. الكتب تريد الحرية .. تريد عيون وقلوب وأرواح ونفوس ونوافذ متاهية لا تحصى .. نظرة واحدة تستعبدها وترميها على أرصفة الطريق .. كلنا سحرة بيان .. كلنا آلهة على الورق .. والورق على الحبر .. والحبر على القلم .. والقلم في عين العدو الذي نجري وراءه ولا يصلنا .

الشمس أشرقت بكاملها .. والمطر توقف .. وقطراته الباذخة على أجساد التماثيل وأوراق الشجر تشيخ وتسيح .. ودموعي أيضا بدأت تسيح .. أتذكر آلامي الكثيرة .. أتذكر جيبي الفارغ الآن .. جيبي جائع جدا .. يتضوّر .. يخز ساقي صارخا حرّك روحك يا كسول .. اشتغل والكتاب لا تتركه من يدك .. جيبي بارد .. حشوته بأوراق مليئة بشعر جيد لمفتاح العماري وعلي الرقيعي فانكمش حتى شعرت بحكّة في ساقي .. خرجت إلى المدينة أبحث عن مال .. عن صديق أتسوّل منه .. عن مومس تقرضني إلى ميسرة .. عن مكافأة متأخرة من مجلة .. لا شيء .. لاشيء .. المدينة خلت من المانحين .. اليوم جلسات مؤتمرات شعبية وأبواب المنشآت والدكاكين مقفلة أو مواربة نصف باب .. دخلت مقر الصحيفة .. قال كبيرهم.. النشر بالنسبة لك يا أستاذ بالمجّان .. أي أنني منشف .. أكتب وأحترق والأوباش والقوادون تقبض المكافآت .. أعطني إيرك أنيك به الكلبة لأنني أخاف على إيري أنْ يتسخ .. وأقول وهل لديكم أيورا أصلا نظيفة أو متسخة .. القوادون يولدون مخصيّون .. المتملقون والأبواق وكتبة المناسبات والمراحل لاضمائر لهم .. وأقول أنّ ليبيا ليست كلبة .. أو بقرة ضرعها مائل .. ليبيا آلهة .. ليبيا أسطورة تعيش .. ليبيا حضارة من الدلتا حتى طنجة .. ليبيا سيدة البحر وبوابة افريقيا .. ليبيا ليست قوّادة أو مومس .. وتجولت في أدوار المبنى السفلية والعلوية أتأمل في صديقات أحببتهن .. أنشد لديهن بعض العزاء .. أجمع منهن بعض الدنانير تمكنّي من الجلوس في المقهى وارتياد نادي الأنترنيت

أتصفّح في إبداع عالم الكرامة .. أقرأ لقاء جُمانة حداد مع أمبرتو إيكو وأقر فصل من رواية لكارلوس فوينتس .. وأرحل مع أبي العلاء المعري وأبي نوّاس والتوحيدي وابن رشد و الفاخري و النيهوم وداود حلاق .. وأترنم ببعض الأشعار التي تملأ جيوبي وروحي مالا وبعد عدة فناجين قهوة سوداء أشعر برغبة في التبول .. أدخل المرحاض أفرغ مثانتي وتتحرك بطني فأعملها مرّة واحدة .. لكن الماء مقطوع ولا مناديل ورقية في جيبي .. بحثت في أرجاء المرحاض .. تحت المغسلة .. تحت الدوّاسة .. وجدت خلف السيفوني جريدة مطوية.. فردتها أقرأ .. قصة قصيرة لي وقصيدة لصالح كادربوه ومقاربة نقدية لجابر زرزور .. مسحت بها ورميتها تطفح فوق الغائط ..

القصة بعنوان " صفير في إست ميت " وها هي لمن أحبّ قراءتها أو المسح بها أو عليها .. الشارع مقفل بخيمتين .. تتقدمهما حبال ميناء غليظة ... شبكة تمويه عسكرية تتحدر مع مواجهة العمارة.. تتخللها مجموعة مصابيح تضيء وتخبو .. من شقة العرس يتدلى شعارا ناديي العريس والعروس .. على طاولة كبيرة صفت الأباريق والمناشف وقوالب الصابون وآنية الغسل، وعلى أخر كانت صناديق المشروب وكؤوس الماء وأكواب (المسير) مع أطباق الفلفل والليمون .. بينما الشاي الأخضر والأحمر يعدان في مرآب بالعمارة المجاورة .

في خيمة النسوة البخور يعبق والزغاريد تلعلع والغناء الموسيقى يرتقي إلى أقصى ذروته فيتعالى صراخ المراهقات : *صقع عليك، صقع عليك* ..

المدعوون جالسون يدخنون ويثرثرون منتظرين طعام العشاء .. كان اليوم خميس وأذان المغرب ارتفع منذ حين ..

وها هم يخرجون من الجامع وتضج الخيمة وتلتئم حلقات الأكل ..

- هيا يا جماعة .. أربعة أربعة .. جماعة البازين هنا .. وجماعة الرز هناك .

بعض المدعوين من الأخوة العرب احتاروا في أمرهم، انتظروا بخجل انزياح أغطية الصحون لينحازوا كليّة إلى أرز الخلطة !

كنت أراقب المشهد بفضول .. الكل متيقن من دروشتي دائما ساهم ، أحملق وأتوعد الأفق وكأن بيني وبينه ثأر ! ..

ألج خيمة النسوة فلا أنهر ، أعود إلى خيمة الرجال فيُرحَبُ بي .. الكل يبتسم لي وأنا أبادلهم بأوسع.

انتهى العشاء ووصل العروسان وحمى وطيس الغناء والتصفيق والرقص والزغاريد ..

رفع عن وجهها الطرحة البيضاء ، قبلها في الخدين والجبين ثم جلس سعيدا بجانبها .. أضواء آلات التصوير تشكع وتؤرخ ذكريات الفرحة .. أقتربت منهما .. تشجّعت وصافحتهما والتقطت لي صورة معهما ..

قالت العروس : العقبة لك .

وقال العريس : إن شاء الله نفرحوا بيك قريب .

صارت دموعي تترقرق، نزلت من الركح سريعا وانزويت في ركن داخل مرآب الشاي ولكي أغالب أساي انهمكت في غسل كل الكؤوس المرتشفة !.

طبيعي أنا ، لست درويشا البتة، لا أدري ما الذي جعلهم يعتقدون وأعتقد ذلك .. كل ما أذكره أنني فقدت أمي ثم أبي فكفلتني جدتي ثم عمتي فخالتي .. إلى أخر السلالة .

لا أدري كيف أعيش .. أتنفس دون إذن ، أكل دون إذن .. أنام دون إذن ..

ألبس .. أتعرى .. أرقص .. أغني .. أدخل .. أخرج .. دون إذن .. دون إذن .. لكن أفكّر .. أتمنّى .. في رأسي إحساس ..في قلبي مشاعر .. هكذا أشعر .. أشعر أنّ العروس حلوة .. لطيفة .. تروق لي .. تثيرني بعنف .. لكن العريس جاري .. صديقي .. أقابله صباحا ومساء .. أخجل أنْ أطيل فيها النظر .. حتى في الأحلام إذ تذكرته استنجد بالكوابيس لأقفز مستيقظا في بحار الأسف .

آه .. قبل أنْ يخطبها كنت ألاحقها حتى تركب حافلة الجامعة وإذ تلتفت وتراني تبتسم باطمئنان فأشعر بمسرّة لذيذة .. آنذاك أشير لها بيدي وترد بتلويحة من خلال النافذة.

كلانا يشجع نفس النادي نادي الهلال ذا اللون الأزرق، كنت أنا بشيرها، فعقب كل فوز أقف تحت نافذتها وأصفّر أو بالأحرى أصرخ صرخة الانتصار فأسمع زغرودتها الشجية ..

كنت أتعذب أثناء المباراة وأشجّع بحماس كي ينتصر أزرقنا سيء الحظ ..

أما العريس فيشجع نادياً الأهلي ذا اللون الأحمر الذي تحطب له الريح ، حتى وإن لم يلعب جيداً يفز ، هجومه لا يركل الكورة ، الكورة هي التي تركله وتعانق الشباك وتبتسم .. كان يذهب إلى المباراة وفي بطنه (بطيخة صيفي) .

ما يحيرني حقاً أنهما مثلي فكلاهما فاقد لأبيه ، أمهاتهما فقط موجودتان ..

لكن لا يحملقان مثلي في الأفق ، دائماً ينظران أمامهما أو في الأرض ..

نعم الأرض .. الآن (الشوهاي) يربت على ظهري مواسياً .. رفعت رأسي وابتسمت وانطلقت إلى خيمة النسوة .. شهقت .. ياه الكوشة خالية ! والنساء تصفق وتغني وترقص .. تساءلت بإيماءة فاشرن لي برؤوسهن إلى أعلى وغمزن ثم رمن عليَّ (شملة) الرقص الفائحة بالمحلب والقرنفل ، طوقن بها خصري .. صرت أقفز وأتساءل وأحياناً أصعد حيث الكوشة وأصفع كرسي العروس ثم كرسي العريس فيشرن لي بسباباتهن المحنّاة إلى أعلى ناحية سلالم العمارة .. أنا أعرف أين هما وماذا يفعلان لكن كيف أكون درويشاً إنْ عرفن بمعرفتي ؟!

انطلقت صاعداً السلالم ، يلحق بي شابان يجراني من تلابيبي إلى خيمة الرجال .. أقاوم بشراسة ، أركل أحدهما ، أصفعه فلا يرد وأدفع الآخر بعنف فيرتد ناحيتي ويعانقني بحميمية ويبكي فيبكيني معه وأنهار ساقطاً مرتخي الذراعين ولكن قبل أنْ ألمس الأرض يتعالى دوي مفرقعات وزغاريد وتصفيق فاندفع معهما ناحية خيمة النسوة حيث الكل يعانق

العريس اللاهث العارق محمر الوجه منفوش الشعر منزوع رباط العنق .. دفعه الشابان داخل سيارة الزفاف وانطلقا به لإسعافه بنسمة أوكسجين طازجة ..

عدت إلى خيمة النسوة ، ارتقيت السلالم ، وصلت الشقة ، الباب ليس موارباً تسللت مندساً في الزحام .. النساء يحطن بعجوز تلوح بمنديل ملطخ بالأحمر ويرددن خلفها أهازيج شعبية ، بينما العروس شبه عارية متشنجة وتصرخ من قرصات الشابات والعوانس .

لم أعرف كيف أتصرف ، حتى أنا لم أتزوج ، هل أركض وراء العريس وأقرصه أم أتجرأ وألّيّع العروس ؟ هل أدافع عنها ؟.. هل ابتعد عن الدوامة المؤلمة المدممة ؟ .. أمي .. جدتي .. أبي .. ما الذي يحدث الآن .. من قال أني عاقل .. من قال أني درويش .. صرت أصرخ وأذرف .. وقادتني عجوز حنون إلى تحت كانت تربت على رأسي وتواسيني بكلمات لا أفقه معانيها الشعبية ، لكن أفهم أنها كلمات حب ومودة كالتي تمطرني بها جدتي إنْ مزقني الأرق أو جافاني النوم . أمضيت الليلة واقفاً في ناصية الشارع أحملق في شبكة التمويه العسكرية مركزاً بصري جهة شقة العرس .. الرياح تعبث بالشعارين .. فيتموجان ،، يتماسان .. يتداخلان .. ثم يتباعدان متباطئين ..!

حوالي الفجر أطلّت تنشر مناشف الاستحمام على حبال الشرفة .. بعد أنْ أتمت تثبيتها بالماسكات ربتت براحتها المحنّاة على شعار نادينا الهلال المتدلي إلى تحت ودخلت .. ووجدتني لا شعورياً أصقر وألّوح لها غير أنها لم تطل من جديد والذين أطلوا زمرة شرطة تركض وراء شباب مجلببين بالأبيض قفزوا من سور الجامع القريب .. الشباب هربوا والشرطة انقضّت علي ..

قالي لي كبيرهم : درويش عليهم موش علينا ..!!

وتتبعت الجريدة وهي تطفح وتغرق تدريجيا في المرحاض والحروف تذوب كتعويذة فقيه والورق يهترىء ومن تركيز نظراتي الفضولية تزداد غرقا وتلتحف بالغائط .. ما يظل شيئا ناجيا من الغرق سوى النتفة التى بها الأسماء الرباعية لأسرة التحرير .. فأغرقها سريعا بصلية من البصقات المتتابعة وتهاجمني عطسة فأعطس وأمسح فمي وأنفي بكمي وأهمّ بالخروج غير أنَّ إلهاما يفاجئني فأعود مشتاقا إلى المرحاض .. أقفله بغطائه وأجلس عليه وأكتب على أوراق خيالي بعود قصب حبره من بحر بنغازي .. يسألني البحر ماذا تفعل إنْ داهمك الضيق ؟ .. أتأمله صامتا .. يعتذر لي عن سؤاله المدرسي هذا .. أواصل صمتي .. يتأملني البحر ويشرب نخب صمتي فأجيب .. كلما انتابنى ضيق إلتجأت إلى البحر ، حيث يصب أنبوب المجارى ، أجلس على يمينه أو يساره متأملا تهاطل الخليط الرخو .. البحر لا يحتج والأسماك القذرة والنظيفة تزدحم تنهش لقمتها المضمخة بالملح ..
لم أشعر بالتقزز ولم يجرأ الأشمئزاز على مهاجمتى رغم تسلحه بنفثات مركزة من النتن الصريح ..

بين الحين والحين أنقّل رأسي ليس إلى البر إنما إلى جهة البحر الأخرى .. أخفف تركيز ما شممت بنشقات من زفير اليَمّ المصقى..

هذا الأنبوب الأممي كعيني الخنساء لا يتوقف عن الذرف .. حتى فى أيام الجمع والأسبات والآحاد ... لكنه حدث أنْ توقف يوما ما ! .. ذاكرتى تخوننى فى تحديد اليوم .. أحبّ ذلك .. لذلك لن أشنقها ..أي يوم ذاك يا ربى ؟.. أي يوم ذاك .. ؟ ..الأمس .. اليوم ..

الغد .. ما وراء الزمن .. ما قبله ؟ ..أبعدت سبابتى عن صدغى .. أفٍ بلذة .. الروائح العطنة غذاء للنسيان .. والنسيان نار فارسية هانئة فى قعر بركان!..

كيف لي أنْ أتذكر وسط هذا اليحموم .. إنْ حاولت ذاكرتي الومض ستـُدك .. وإنْ لم تحاول ستتكلس دون نقوش .. لذا سأعود إلى المأوى .. إلى بيت خلائى العزيز .. وأبداً ..وأبداً لن أبرحه .. وإنْ فجرني الضيق تفجيرا .. بالآدمي الفصيح أخشى أنْ أتورط فى الكشف عن زمن تسلل خلسة من الأنبوب (المصنبر) من الجهتين ..

باب المرحاض يُدق بإلحاح .. أخفيتُ أوراق خيالي .. وأشعلتُ سيجارة .. وهممتُ بالخروج .. فتحتُ الباب فوجدتُ الصحفي المهير يحملُ رزمة من جريدة الأهراب اللندنية .. قلت له الماء مقطوع .. صرخ في وهو يفكك حزامه بعنف .. أخرج بسرعة .. معي جرائد استجمار .. لمته بنظرة .. قلت له الأستاذ حسن مدير التحرير طيّب ومايستاهلش المرمدة على دبور البواسير ودائما يتوسط من أجل الدفع للكتاب الليبيين البؤساء .. فمزّق القطع التى بها إسمه .. ناولنيها بسرعة وسحب باب المرحاض وراءه .

هذه الجريدة نشرت بها كثيرا من النصوص.. كذلك فعل عدّة كتاب عرب وليبيين .. ولا أحد نال حقوقه .. كتب فيها خالد المهير .. خالد درويش .. محمد عقيلة العمامي .. أحمد يوسف عقيلة .. الصديق بودوارة .. وجدان .. العريبي .. الغزال .. قرينقوا .. زيدان .. وغيرهم كثيرين .. ولا أحد نال درهما .. رغم أنّ ليبيا سوقها الرئيس .. لا يدفعون إلا للبنات أو لأسماء معينة .. أسماء مشبوهة وعادية في مجال الإبداع والصحافة .. هذه الجريدة تقوّد للحكومات وللأفراد .. جملة وقطاعي .. دائما مع الواقف .. من يدفع لها تكون له بوقا وقمبري وكمنجة ودربوكة تمر.. تارة مع العراق .. وتارة مع ليبيا .. وتارة مع تونس .. وتارة مع السودان .. وتارة مع السعودية .. وتارة مع أمريكا .. ودائما مع شيوخ آل نهيان والمكتوم ومع سلطان المالديف ومع الثري الفايد .. من يحبني لا يشتري هذه الجريدة .. من يحبُ فيروز وأم كلثوم وشاكيرا وفاتن حمامة ونجاة عتابو لا يشترى هذه الجريدة .. من يحبُ ماردونا ورونالدو وبيكهام وفوزي العيساوي ونيس خير وطارق التائب والشاعر محمد الماغوط والكاتب محمد شكري والفنان رضوان بوشويشة والضاحك محمود البوسيفي لا يشترى هذه الجريدة .. من يحبّ القمر والشمس والنجوم والربيع لا يشتري هذه الجريدة .. من يحبّ البرتقال والدجاج المحمر لا يشتري هذه الجريدة .. من يحبّ النبي لا يشتريها .. من يحبّ نواح الريق لا يشتري هذه الجريدة .. من يحبُ الحداثة وكونديرا وقصيدة النثر ورامبو وبودلير وماركيز وفوينتس ورولان بارت وفوكو ودريدا وهمنجواي وصادق النيهوم وغوار الطوشي والفوركاتس وبوب مارلي واسماعيل يس واسماعيل العجيلي وقزقيزة وحَشْ والوادي وميلود العمروني ومحمد علي كلاي وعادل امام ويونس شلبي وشعبان عبدالرحيم و عبلة كامل وعبلة الرويني ومايكل جاكسون و بطلة التيتانيك لا يشتريها .. من يشتريها يدخل النار .. علي الطلاق الجنة ما هو عافسها .. لأنه دعم الأهراب المنافقين .. أكلة حبر الزقوم .. أتركوا التيوس تـُفلس.. لا ينطبق قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق على هكذا صنف .. هؤلاء يلعبون في منطقة ما وراء الرزق .. بنقودنا يحتسون الويسكي والبيرة المضيئة في مدينة الضباب ويضاجعون العجائز الرشيقات مشفوطات الشحم ذوات العراقيب .. يأكلون الغلة ويلعنون الملة .. سأحلف لكم بالطلاق أنْ لا تشتروها .. اتركو التيوس تفلس .. لماذا تدعمونها بنقودكم القليلة ؟.. الزيت والمكرونة والبنزين والدقيق والأرز والشاي والسكر سيرتفع ثمنها .. إدخروا دنانيركم البيضاء لأيامكم السوداء .. لا تشتروا بها هذه الجريدة الموبؤة .. من يشتريها سوف يندم .. سيأكل الجيفة الجائفة .. اشتروا جريدة الجماهيرية والشمس والزحف الأخضر وأخبار بنغازي والشط والبطنان فهي أرخص وأصدق .. ولا حرية لشعب يقرأ من وراء البحر .. نقودكم مال حلال وليس حراما .. يكفي هذه الجريدة ما تمتصه من الاعلانات والحكومات والهيئات التي

يرضـون أنْ يكونـوا ديكهـا الـذبيح .. يكفيهـا مـا تمتصـه مـن التأويـل و البـصّاصة علـى الكتـّاب المساكين .. النصوص والمقالات عندما تصل طاولة تحريرها تظل ترتعش وترتعد وتحاول القفز من الشبّاك .. تحس نفسها أنها على طـاولات قاعدة غوانتانـامو أو سجن أبـي غريـب .. تحـاول الإختفاء من المكان بسرعة ولو في سلة مهملات .. لكن تعجز فعيونهم مفتوحة وصمغهم خـاثر .. وخطـوطهم الوشـائية سـاخنة جدا .. وفـي النهايـة هـي لا تقدم جديدا .. كـل موادهـا مقتبسة مـن الانترنيـت .. أو رامـضة و بائتـة دون غطـاء .. هـذه الجريـدة لـديها تفرقـة ابداعيـة .. والتفرقـة الإبداعية أشدّ وطأة من التفرقة العنصرية .. التفرقة بين الحروف والاحتراقات مؤلمة لا تحتمل .. حرف شبعان يلتقي حرفا جائعا فلا يتصدق عليه بنقطة حبر .. الككلي يقبض فتراه سمينا حليقا محمرا ضاحكا تتدلى من عنقه نظارة فخمة تهتز على صدره كلما تحرك أو تـنحـنح أو عطس .. تقول له ضعني على عينيك الكليلتين .. ترجم كثيرا .. اغتنم الفرصة لئلا يطرحك التسعيني غـازي القبلاوي بعيدا .. أو ربما يـأتيهم مترجم مجـاني فيركلونـك خارجـا .. هؤلاء ليسوا كلابـا .. هؤلاء لئـام جدا .. الككلـي يقبض فتراه يانعا جوّه سمح .. بوشنـاف لا يقبض فتراه منكمشا جافا يـدخن باستمرار ويـصفـّر للـريح المتخمـة بالغبـار .. قـتل الإلهـام وازدراءه شـيء بشع .. فظيـع .. مـا يفعلونه أحقر مما يفعله شارون .. شارون سينسحب مـن غزة .. وانـتم لـن تنسحبون الا بـالتيروات .. قليلون في هذا العالم من يرون دماء الكلمات ويسمعون صرخاتها ويبتلون بعرقها .. قليلـون مـن يفهمون رولان بـارت وجـاك دريدا وامبرتـو ايكو وعلـي فهمـي خشيم ومحمد اوريث وسيبويه .. قليلون من تزورهم الكلمات في بيوتهم وكثيرون من تزورهم الكلمات في دبورهم .. هذه الجريدة لا يكتب فيها أحد سوى الحمير والمرتزقة .. وأنا طبعا كنتُ حمارا أنهق بقوة .. أرسل النـصوص وأنتظر الرجاء .. في طرابلس يقولون لك أنك أرسلت نصوصك إلى لندن .. خذ حقك من لندن .. في لندن يقولون لك خذ نقودك من طرابلس .. أنا حمـار لأنهم ضـحكوا علـي .. ولـم يـدفعوا لـي أي درهم .. حتى فنجـان قهوة لا يقدمونـه لـك .. تـأتيهم فـي المكتب لا يمنحونك حتـى جريـدة مجانـا .. ويفـنـّصون فيك بعيونهم الحولاء .. لكن إنْ دخل أي مسؤول أو قواد أو شـاذ أو مومس هبّوا عن بكرة أبيهم واقفين

.. ضاربين السلامات .. وبطل التيمم وحضر كل شـيء .. وصـرفوا كل المطـالبين والمترددين .. تعال غدوة .. فوت علينا بكرة .. وأعرف جيدا أنّ هذه الصحيفة في طريقها للإفلاس .. فداعموها صاروا يتساقطون كأوراق الخريف المعجج .. واحدا تلو الآخر .. وخطابها ماعاد يصلح للتسويق .. انتهت صلاحيته .. خلاص نحن وامريكا حبايب .. وبريطانيا كذلك .. والغرب كلـه .. واليهود كذلك .. ليس لدينا مشكلة مع أي كان في العالم .. ليس لدينا مشكلة حتى مع سكان الفضاء .. نحن شعب مسالم عصري حضاري لنا تاريخ .. لنا نقوش في أحجار الأبد .. ورسومات على جداريات اليقين .. لا نحتاج إلى جرائد تقوّد أو تبوّق .. اكتفينا ذاتيا من القوادين .. سنصدر منهم لمن يحتـاج مجانـا .. سنشتغل علـى الحقـائق الآن .. المعرفـة أنْ يقدم كل شـيء علـى حقيقتـه .. أنتهـى عصـر الكيـتش .. خطـاب جريـدتكم عـفى عليـه الـزمن .. مـا عـاد يـصلح لنـا .. ماعـاد قابـل للبلـع حتـى بالكيتشاب والميونيلز .. من يقرأه يصاب بأنفلونزا الشواشيو والبابغاوات والسارس .. أنتهى زمنكم أيها الأوغاد .. نكتونا الشيطان ينيكم .. لكن قبل الإفلاس أرجو أنْ تعطونا حقوقنا المشروعة .. ولن يضيع حق وراءه مطالب .. حتى مـا نـشر لـي فـي صـفحة الهايدبارك اريد ثمنـه .. أريـد حقـي الآن الآن وليس غدا وليس يوم القيامـة .. فـي يوم القيامـة سـأتملق لـدخول الجنـة .. سـأكون عاطفيـا وأسامحكم .. إنْ لم أخذ حقي ديلواكيتي وتوّى ودابا والآن وناو فسأسرق سيارتكم هذا اليوم ٢٥-٣-٢٠٠٤ وأبيع من قطع غيارها ما يكفيني وباقي الهيكل أشحـنه لعبدالسلام منقايا يبيعه لرباشـة عين مارة ويُصدرُ بثمنه عددا مزدوجا من صحيفة الشلال المتوقفة وإنْ لم أصل لسيارتكم فلا مناص من خطف جميل همادة وإعادته مخفورا إلى أورشليم القدس .

العالم شرطة وعسكر والشرطة والعسكر ليسوا عالما .. المدن تتألم .. وتصرخ .. وتعبّر عن غضبها بزلزال يدفن الظالم والمظلوم .. كالبوليس في تفريق وقمع تجمهر يعبّر .. نحن لم نمنعك من التعبير .. أصرخ كما يحلو لك .. على طول رقبتك .. نحن وفرنا لك حيزا لتعبّرَ فيه .. مبنى له أبواب .. ووفرنا لك إذاعة تسجلك وتبثك على الهواء .. كي يراك العالم وأنت تعبـّرُ.. وأنت تمارس حقك الطبيعي .. وأنت تملي طلباتك وشروطك .. وأنت تنتقد بشدة وتشيد بشدة .. وتعارض وتوافق .. وتحيي وتلعن .. وأنت تهتف وتمدح .. لا أحد يسحب منك ناقل الصوت .. الذي يوقفك عن الكلام أكبر خائن .. أكبر جبان .. وأكبر معادٍ لسلطة الشعب .. بإمكانك أنْ تتكلم كثيرا ومرارا .. وتعبّرُ عن مشاعرك الظاهرة والدفينة بأي طريقة كانت وكل يوم .. لكن ليس في الشارع أو في الحديقة أوالسوق أو العمل أو البيت أو المربوعة .. فالبلاد ليست فوضى .. أو ديموغوجية .. أو غوغائية .. للتعبير أصول .. كما للكلام أصول .. كما للصمت أصول .. كما للحياة أصول .. والتفرع عيب .. والخروج عن العموم عيب .. وعن المألوف عيب .. مالذي ينقصك إذن ؟ .. مالذي تريده بالضبط ؟.. غير أدوي بس .. نديرولك عدّة وفرس .. الخبز رخيص .. والسكر والشاي والأرز والدقيق والطماطم والحليب والزيت رخيصة وما انقطعن عنك قط .. عبّر بالحمد يا بني آدم .. يا بَشري .. وقبّل يدك ظهرا وبطنا وأصابعا ملمومة جنب بعض .. ألا تشاهد التلفاز .. المجاعات منتشرة في عموم المعمورة .. ألا تشاهد الأضلاع البارزة في البطون والذباب الحائم فوق العيون .. والدمار في كل مكان .. والحروب تحصد البشر .. وأنت الحمدلله تعيش في بحبوحة .. مفرشك اربع واربعين قراط .. تعيش في آمان .. جنبك مراتك وعويلتك .. تأكل وتشرب وتضاجع وتنام وتلعب الكرة والكارطة والسيزة .. وتعبّر بكل حرية داخل قاعة بها أبواب وشبابيك ومراوح ومدافئ تنعشك وانت تتكلم أو وأنت جالس تستمع .. احمد الله .. ليس قليلا .. إنما كثير .. فمستواك المعيشي مرتفع جدا .. ومستواك التعبيري مرتفع جدا .. قل لنا في أي شي قصرنا معاك .. قل لنا في أي دولة من العالم تتكلم الناس كما تريد .. تعيش أفضل منا .. لا يوجد .. لا يوجد .. يوجد .. لا تقارنا بالعالم الغربي المنحط .. أكلة الميتة والمنخنقة ولحم الخنزير والعياذ بالله .. أولئك إستعمار ولصوص وقراصنة .. نهبوا ثروات الشعوب الفقيرة وتمتعوا بها .. ليتها نهبها واحد منـّا .. قارنا بالعرب بأفريقيا بأمريكا اللاتينية ودول أسيا بدون اليابان وكوريا الجنوبية والهند .. قارنا بالعالم الثالث لتشعر أنك عالم رابع وخامس وسادس وتاسع عشر ومليون وميّة فلـّة عليك .. والصلاة على النبي .. وعين الحسود فيها عمود .

أنا البوابة الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية .. أنا راس جدير ومساعد وطرابلس وبنغازي والكفرة وغدامس وسبها وغات .. أنا بوابة كل الجهات .. لم يحدث في العالم وفي التاريخ الحديث أنْ عبرنا أحد بدون أوراق .. فبنا كل الأجهزة الأمنية .. وبنا حجرات للتحقيق والتوقيف بملحقاتها الضرورية .. وبنا خزائن نضع فيها ما جبيناه من العابرين .. وبنا مخازن للسلاح .. وأرشيف كبير الكتروني يحوي بانوراما عن كل الممنوعين من الخروج أو الدخول أو الطيران أو الغوص .. بنا قسم جوازات وجمرك وشرطة ومخابرات وجيش وحجر صحي وزراعي وحيواني .. مرورنا ليس بالشيء الهيّن .. وعبورنا براحة من سابع المستحيلات .. مرّة واحدة الثائر تركنا هكذا .. عُراة من الدرك والعسكر والبصاصين .. كل الناس تعبر وتعود .. كل الهاربين وكل الخائفين وكل المشبوهين دخلوا أو خرجوا بآمان .. انفتحنا سعداء .. دون سلاسل أو حبال .. استمتعنا بالابتسامات على الوجوه .. واحسسنا بالقلوب وهي تهتف لنا .. وتدق بهدوء سعيد .. الطعام لا يترك الأمعاء من الخوف .. والقشعريرة لا تلمس الأجساد ..لا أحد يخزّن فينا شيئا .. لا أحد يسجن فينا تمهيدا لنقله إلى سجن بعيد .. كنا مرتاحين .. من حقنا أنْ نتحصّل على إجازة لنتزوج بوابات عذراء تنجب الانطلاق والحقول الزراعية الوسيعة والمطر .. من حقنا أنْ نتحول إلى خانات ذات غرف يرتاح فيها المسافرون وعابرو السبيل والدواب والطيور والهوام .. كنا

سعداء لهذا الموقف الإنساني النبيل ..الذي قد لن يتكرر أبدا في التاريخ .. النابع من صميم المعاناة .. ومن جوهر حقوق الإنسان كما ارتأهتها الفطرة النقـيّة .. لكن هذا الأمر لم يستمر .. سرعان ماعاد كل شيء .. واحتوتنا الحيرة .. وغرقنا في الكآبة .. ومزقتنا نظرات الناس الأحدّ من سكين .. نظرات الناس تصرخ .. دائما هناك أناس خائفين .. مطاردين .. مرعوبين .. يبحثون عن وشز وملاذ وآمان ومأوى واستجارة دون مَـنٍّ.. يبحثون عن بوابات تتركهم وحالهم .. نظرات الناس ستأكلنا .. تبصق على جدراننا خلسة .. تركلنا في الظلام وتبول علينا .. وتمنحنا أقدامها تحفـّزنا لنهرب من المكان .. لتكون الحدود بُراح غير مقنـن .. تصرخ فينا بتسآولاتها وتعاتبنا قائلة لماذا أعادوكم مدينة قذرة مليئة بالأقفال

؟.. مليئة بالنار والحديد والترهيب والاحتقار؟.

نحن البوابات مثلكم .. قدرنا أنْ نعيش .. لنا عواطفنا .. وآمالنا .. وجرائدنا التى لا تدفع .. نعشق الحرية مثلكم وتؤذينا الأسلاك الشائكة والسلاسل والأقماع .. وبراميل ممنوع المرور .. لا نحبّ كلمة لا .. نحبّ كلمة نعم المثبتة للنِعم .. نحبُ تحطيم التابوّات .. نحبُ الجرّافات التى تسوّينا بأمّنا .. نحبُ أنْ يتحوّل فراشنا قمحا وشعيرا وورد وشجرا .. ويعود كياننا إلى بدايته .. الإسمنت للجبال والحديد للمناجم والماء للأرض والسماء والضباب .. والبوليس والعسكر للثكنات .. أليس لديهم أرض محتلة إسمها فلسطين ؟! وبلاد مُذِلة إسمها امريكا ..

اسمعي أيتها البوابات .. إسمعي أيتها المدن .. أنا ليبيا .. آلهة العالم .. سبها .. البيضاء .. بنغازي .. أنا ليبيا تتكلم .. تبوح بما تريد .. لا أحد يستطيع أنْ يسجن البلدان .. أو يعذبها .. أو يفجرّها .. أو يجففها .. أو يعهّرها أو يسرقها أو يغتصبها أو ينفيها أو يغيّبها أو يغطّيها بغير الشمس .. على ظهري أحمل أثقالا قديمة وحديثة .. ميراثا دسما بالتفاصيل .. ترابي محايد لا يميل لأي نظام .. ترابي لا يشي .. ترابي ناضج الملح يحفظ الأفكار من التعفن .. يجعلها قدّيدا صالحا لكل زمان ومكان .. الناس تدوسني وتحفرني وتهدم معالمي وتشوّهني بتراب مطبوخ وحديد يقيؤني صديده وزجاج لمعانه يُذهب هدوء بصري .. الناس تبصق فيَّ وتملأ جوفي بقاذوراتها .. قليل جدا من يزرع في أعماقي الورود .. لأقتات على جذور عطرة .. قليل جدا من يسكب فيَّ كوّتي ماء عذبا .. الشمس تدفئني كل يوم .. تجفف جلدي من عصارة الناس والدواب .. والرياح تمسح صفحتي وتكنسني .. تجعلني نظيفة طاهرة للوضوء .. أتبادل التراب مع المدن الأخرى .. يأتيني تراب المرج واجدابيا وطرابلس وسرت ومصراتة والكفرة وزوارة وغريان وغدامس وغات .. كل ذرة تحكي حكايتها .. كل ذرة تبوح بأسرارها .. أحيانا نعشق بعض فنمنح حبيبات من سررنا .. تمتزج في بعضها .. وتلتقي حبيباتنا في كتلة واحدة .. تخلق وليدة فنية .. تسوح كسحابة يابسة .. ترسم أشكالا مُبهجة للروح .. قد ترونها في سهل رائع أو كثيب متماوج لطيف .. قد ترونها وموجة بحر تدفعها على جذع شجرة فتتيبس جمالا مقنعا للذوّاقة .. نخبر بعض بلغة الإهتزازات .. ونغني إلى بعض بنواح الريق .. ونضيء لبعض بوميض البرق خاصة قاصّة عندما تقع مدينة منّا في دياجير اليأس .. ونسخر وننتعش مثلكم أيها البشر الملاعين .. بل نحن نعبّر لنعْبُرَ .. وأنتم تعبّرون لتأخذوا .. نحن أفضل منكم لأنكم منّا ونحن ليس منكم .. نحن نعبّرُ ونخرج مظاهرات متى أردنا .. وبرياحنا نقتلع أشجارا هرمة مخوخة ومبانٍ قبيحة لوثت الفضاء القصير .. بعواصفنا نقلب سفنا ودولا وممالكا .. ونتكلم في السياسة والدين والجنس والميتافيزيقا .. نحن لا نُعبّر في قاعة مغلقة .. ترابنا يُعبّرُ في المناطق التى لا تطوّق .. لنا أسلحتنا وعتادنا.. فبإمكاننا أنْ نتزلزل في أي لحظة .. ونجعل أسافلها أعاليها .. ونعرف الخبيئات ونهتكها دون وجل .. ونعرف أنّ ما يُدفن فينا من جثث في ظلام الليل أكثر مما يدفن فينا في النهار .. هل تصدقون أنّ مقابرنا السريّة أعمق وأكثر متاهية من مقابرنا الرسمية .. كل

القبور علينا .. وكل قبر نحفظ قصته عن ظهر قلب .. والذهب علينا .. والسلاح علينا والبراز علينا وطعامكم علينا وأقدامكم فوق رؤوسنا الشامخة الخصبة.. نحن الآلهة .. نحن كل شيء .. نراكم ونمهلكم لكننا لا نهملكم .. ترابنا حواسكم ورائحتنا دعواتكم الكريمة .. البحر أيضا أرض .. أرض مبللة ..

رذاذه ترابه .. البحار تلتقي في نقطة رذاذ .. وتتقاطع في موجة تائهة .. البحار تلتقي تحت الأرض .. لها دروب ومسارب لا ترونها .. ملتوية دون قصد .. لا يرتادها الغواصون وإنْ ارتادتها التيارات والأسماك ذات زعنفات الزاجل .. الأسماك بريد البحر .. تموت إنْ خرجت منه لئلا تفضح أسراره وتفشي علنه.. البحر يجتمع مثلنا بالبحار .. يناقش أموره .. يتخذ قرارات ينفذها .. لا أحد يتحكم في موجه .. موجه مزاجه .. يرفعه أو يخفضه .. موجه ذيله الحر .. بإمكان البحر أنْ يغرقنا .. وإنْ أغرقنا سنظل أرضا حيّة .. وانتم ستموتون .. نوح لن يظهر ثانية لينقذكم .. نوح ندم .. وقانون الطفو لن يفعلها ويتزن .. سيسكر قانون الطفو .. ليترنح وينام ويترسب في قاع ممغنط داخل جمجمة البحر العميقة المظلمة .

للتراب أدبه .. للماء أدبه .. للنار أدبها .. للجماجم اليابسة أدبها .. لحنا مينة وهمنجواي أدبهما .. ولعروس البحر عريسها المبتور الذيل .. البحر لا ينام .. البحر مستيقظ أبدا .. منه تأتينا الشرور .. هكذا يقول اعلام الدويلات .. ومن السماء يأتينا الخير .. وهل المطر خير .. وهل القنابل خير .. ومن البر تأتينا المصائب .. ومن البر تأتينا سيارات محملة بالبشر والمعجنات الفاسدة .. تُرمى جميعها في جمجمة البحر عبر بول وغائط ووسخ مستشفيات ومواخير مقننة .. البحر عندما يُهاجم .. لا يصمت .. يحتج .. يتكلم .. يقاوم .. يلقي درسا .. يلقّن فعلا .. يعظ دون شروط .. الشفة العليا تلطم صخر الشاطيء ، والسفلى تجرف قواعده .. يحدث هذا في جمجمة البحر دائما .. فالفكان يتحركان مادامت أمامهما شواطيء ... وإن اختفت الشواطيء سيفقد البحر شفتيه ، ويمضغ نفسه إلى أنْ تغرقه مياه الأمطار ، آنذاك تصير الشمس كئيبة .. والقمر أكثر كآبة .. والنجوم ستتباعد باحثة عن بحار أخرى .. زاخرة بالشطآن الوسيعة ..

في درس الأحياء ، سأل التراب : لماذا لا يتحرك الفك العلوي في جمجمة البشر رغم تأييد قوانيين الجاذبية له ؟

بعد مقدمة طويلة عن المطرقة والسندان والطزاجة المحصورة بينهما ... تلا الماء الإجابة المدونة في الكتاب المدرسي ، غير أنّ التراب لم يقتنع فأعاد السؤال في الحصة التالية فأجاب : هذه هي الحياة لا تحتمل فكين ، فما بالك متحركين ومتقابلين ومليئين بأنياب المطاحن القاطعة .

قرب الميناء رمى سنارته في المياه الملوثة بروث السفن ، هذا الروث الذي أفقد الأسماك أبصارها فضلت طريق الخروج الذي يحتاج دائما إلى عينين مفتوحتين .. ملأ سلته بالأسماك العمياء ... وقال في نفسه لا تسألونى لماذا الصيد وفير على ضفاف الموانيء ؟ ثم نزع نظارة سنارته كي لا تراه فكاها ..

بعدها تأمل في يومه وقال للملأ: فم الزمن مطبق ... شفة النهار ترتفع .. شفة الليل تنخفض .. فيفتر الفجر عن ابتسامة عذبة .. الشمس تحتفي بها فتشرق والعصافير تحتفي بها فتزقزق والبشر أيضا يحتفون بها ، فيحترقون إنْ تماهوا مع الشمس ويُجنّون إنْ تماهوا مع العصافير ... والولادة شفة والموت شفة وما بينهما فسيح من المتاهات الطازجة ..

في المساء كان جائعاً باردا .. مضغ قطعة سمك .. حاول بلعها .. توقفت في حلقه .. فنظر من النافذة ليري الشفة العليا تمضغ الصخر والسفلى تجرف قواعده ، انزلقت قطعة السمك .. وارتفعت رائحتها .. زاد قطعة أخرى وأخرى .. حتى شبع .. ثم تجشأ .. واستدار إلى ساعة السراب ،

يعبث بأصابعه في عقاربها محاولا تخليص بضع ثوان من بين فكي الزمان .. أعاد الكرَّة باستخدام اصبع مــن (الروج) !!

أحمر الشفاه خربشة قلم سرعان ما تمحوه القبلات .. أحمر الشفاه ليس قلما واشما .. القبلات تـُزال .. والأوشام تـبـقى .. والكتابة تـزول مهما طال أمدها .. يزيلها التحريف والإهمال والجهل وعسر الهضم .. في موعظة الجماد السابقة.. حوارية التراب والماء .. حوارية جدتي بنغازي .. فهمت أشياء لم أكن قد فهمتها من قبل .. إيماني بالجماد فاق إيماني بالأحياء .. أنا لست وثنيا .. لكنني أعبد إلها لا يتدخل كلما عفس يانكيُ على رقبتي .

أقلب في دفاتري القديمة .. أعرض على الجماد بعض كتاباتي عله يفسّرها لي .. لأنني كتبتها في حالة هذيان أو وحي .. أو إلهام .. لا أدري كيف كتبتها .. أيها الجماد خذ هذا البوح والصقه على ظهرك .. فأنك مهما حملت على ظهرك القوي فلن تنؤ بحرف أو رزانة جملة .. أنت ظفر ميت .. ظفر قوي كظفر التاريخ .. قوتك تنبع من أنك ليس كظفرنا متصل بكائن حيّ .. من يخلع أظافر الجماد .. الجماد ظفر ممتد غير قابل للتقليم .. وأي مفك يجرؤ على قلع نفسه .. أعرض عليك آلامي .. أنت طبيبي .. أنت جماد قلبي .. وشجاعتي .. ودولة حقرائي .. أنت من جعلتني أعبّـرُ لأعبُـرَ إلى جنة الإشراق .. أبوح ولا أخذ شيئا .. أنت بركاني الحي الثائر .. سأحدثك عن العمى .. عن عمى الأفواه .. فالفـوه أعمـي .. يجـذب إليـه أي شـيء .. ولا يرفـع إلا الخـضرة ... وإنْ غضب يكتفي بنفث بضع حمم ... يمسح بها قشرته من أدران العائشين ... ثم يتلوّى ويتكوّر قابعاً في الفلك المحدد له ، سابحاً كيفما أُريدَ له وأراد .. عندما ولدتْ سرّتي من رحم الوجود وعاشت ومرضت واحتضرت ... ثم ماتت لتدفن في تراب الفضاء ... دون غسل ودون صلاة ...!.. ومن أول ليلة قبرية بدأ الثعبان عمله ، اليمين ابتعد والشمال ابتعد ليتهوّى المكان ! ويرتفع عويل الآلام ... مالئا فضاءات أوعية الصمت الفارغة .. في الصباح غيّر الثعبان جلده بلون قاتم وباشر عمله ... وهي تطلق الآهات لتحرق قشرتها مكفرة عن أخطاء الأسلاف .. وعندما شبع الثعبان وأتخم ساديته تركها وانسل للراحة والتلذذ .

تنفستْ الصعداء .. وأدارت رحاها من جديد .. استنشقت النسيم ، فغسلتها ألبان المطر حتى تطهرت .. آنذاك رحلت عبر سنن من التسابيح الشجية ولكن ظلت أنفاسها و حركتها ميتة .. قد تتحرك الأشياء دون روح ! .. أخذت تبحث عن الروح .. تنط .. تـتدحرج .. تتقلب .. تقلبت في كل دهاليز الفضاء الرحبة ، علها تعثر على الآلهة المانحة لهذا المعنى الجوهري الشفيف .. هدّها التعب .. نامت .. أتى الثعبان الكابوسي .. ضاجعها .. لم تقاومه .. أفصح لها عن رغبته في قتلها وتفتيتها .. فحّ فيها .. أريد أن أعدمك .. أطلبي طلبك الأخير .. نظرت إلى الأعلي ... رأت الروح تتدلى ناحيتها .. قبل التعشيق مُسِخ الثعبان إلى حبل ، أسلاكه ديدان وعقده نمل مشاكس يتولد من شعلات النشاط ، ذاب كيان الحبل في ذرات غيره ، وهي استعادت توازنها ، وعادت إلى طبيعتها السابحة بقدر .. تلاحم ترابها .. أنبت .. أزهر .. أثمر .. أحيانا يزعجه تراب الثعابين فيتزلزل ويفيض ثائرا مخلفا بعض الدمار الذي لا مفر منه كي تستمر الحياة أو سرّتي في سفرها داخل دروب وسراديب الأزل المعاكس ..

لـلأزل المعـاكس أيضا فوه .. يقولـون إنـه لا يجـذب ولا يغضب ولا يتلـوى متكوّرا .. فقط يرتفع ويرفع الأنقياء معه إلى أزمان شموسها تشرق من الحضيض .

أنا مبتهج بالجماد .. فلصمته إرتاح .. ولسكونه أمنح كل روحي .. ولقوته أقدّم قرابين الإحترام .. لم يتحرك جبل ويضربني .. أو سهل ليجوّعـني .. أو بحر ليغرقني .. دائما يغنون لي .. ولا يلعنوني إنْ حفرتهم بإزميل .. أو خربشتهم .. أو بلت على ظهرهم ورؤوسهم .. أو بصقت في

وجوههم .. أو جعلتهم مشجبا أعلق عليه ترّهات فشلي .. وصديد خيباتي المتجمد كشمع فقد نوره .. أجلس في الغابة ساندا ظهري على جذع شجرة .. أقرأ كتابا لديدرو عنوانه ابن شقيق رامو .. اختلسته من الناقد أحمد الفيتوري .. كلما يقول لي أحضره أقول له غدا .. غدا .. هذا الدسم لا يصرّ على إحضار كتاب إلا ويكون هذا الكتاب قيّم .. وقد تعرفتُ على ديدروا عندما أشاد به ميلان كونديرا وصرّح أنْ ديدروا قال في الرواية كل شيء .. فقرأت له بسرعة رواية جاك المؤمن بالقدر أو جاك القدري ومعلمه .. وفعلا رواية ممتعة وذات قيمة ومختلفة عن كل ما قرأت من روايات .. سأثق في كلام كونديرا دائما لأنه أديب يقرأ بهوس .. ويضاجع الكلمات بهوس.. سأثق به كما وثقتُ في كلام البرق والفجر و الصباح .. وها أنا أقرأه مرة أخرى عبر كتاب لم أدفع ثمنه .. كتاب مختلس في غفلة من نظارات سميكة .. تشم الورق والحبر أكثر من رؤيتها للسطور .. أقرأه في الغابة .. في الصمت .. أفترش الأعشاب الشبيهة بالكسبر والمعدنوس المختلطة بإعشاب أخرى لا أعرف أسماءها أعرف منها الخبيز والقميلة فقط .. هي دافئة رغم الشتاء .. أشجار الصنوبر تفرش الطين المحيط بأوراقها العصوية الرقيقة وبعض ثمارها الجافة متناثرة هنا وهناك .. في مدينة شحات الجو جميل والخبز ناقص في المخابز لأزمة دقيق مؤقتة أو مفتعلة .. وقبيلة الحاسة كرماء يمنحونك رغيف التنور بالمجّان وإنْ تكلمت معهم وأستأنسوا لحديثك منحوك قنينة لبن وإنْ أحبوك منحوك برطمان عسل صعتر أو حنون أو سدر .. وإن أحبتك إحدى فتياتهم النقيّات فاعتبر نفسك قد أحبك الجماد .. فستعيش وتعيش .. وتعيش في جنة فطرية لن تكتب حكايتها لبشر يحسدون .

أشم رائحة الكبدة المشوية وأتذكر أحد الشعراء الليبيين الذين عرضت عليه أعمالي أول مرة فاستهزأ بها وكتب في زاويته الأسبوعية مقالا بعنوان " كتّاب جدد بدون هوادة ".. وكتب أحدهم (ويقصدني) ضربه سعر الدولار فالتجأ للكتابة .. وأقول ولمن ألتجأ أيها التيس الأملط ؟.. للبنوك التي لا تمنح أموالها إلا للقوادين والمرابين والسماسرة أم للجرائد التي لا تدفع إلا للقوادين أمثالك .. لم أكترث لمقالته وجلستُ في مقهى قذر يعجّ بالعاطلين والمومسات وكتبت هذا النص وأرسلته لجريدته بالذات .. هذا النص كتبته عن الجماد .. أنا أحبّ الجماد .. حبّوا الجماد مثلي عبر هذه الكلمات .. لا أستطيع أنْ أبدأ منذ الأزل .. فالأزل مازال مجهولاً .. رغم كل ما قيل عنه من نظريات نقلية أو عقلية ؟ ولكني سأبدأ من يوم كنت جزءاً من شجرة باسقة غرستها الرياح ذات فجر في جوف جبل أشم .

الأمطار تغسلني شتاء والصيف يجفف ما يؤذيني من رطوبة وبرد ؟ أسعد بزقزقة العصافير وثغاء المواشي وعواء الذئاب ؟ كنا نصنع حفيفاً شجياً وقت الغروب .. أحياناً أسترق السمع لأناس يجلسون متوسدين أقدام أمي .. أنظر إليهم وهم يتهامسون في هدوء كأنهم يدبرون مكيدة ؟ تهتز أمي مع الرياح فنرقص معها ولكنها سرعان ما تتوقف وتبكي بدمع من صمغ خاثر .

ذات صباح سمعنا دوياً وهرجاً ومرجاً كأنها القيامة قامت وفجأة انهالت على أقدام وبطن أمي مناشير مشرشرة من المعدن وفؤوس حادة كلسان يتكلم ! وطوقت رقابنا حبالاً تجذبها بغال قوية ونداء بشع يصرخ (بهيلا هُب) الطعنات تأتي من كل حدب وصوب ، لا تفرق بين جذع أو غصن أو ورقة .. صرخت أمي (وامعتصماه) تناثرت نشارات دموعها وبدأ عنقها يصغر حتى خرّ تماماً .. لم ينجدها أحد ، كانت الزراعة نائمة والمرشد يتفرج على مباراة في كرة الصدر ، أما شرطة النبات فلديهم (زردة) مع مدرسة البنات في بطن الوادي ..

اجتثت أمي المسكينة .. لم يرحموا أوراقها التي تخرّفت قبل الخريف ولا ثمارها التي أطعمت الجائعين .. اقتادها نخاسو الفحم ، جرجروها على الصخر .. بكى الظل لفراقها وشعر أنه هو

الذي اجتث ؟ في الماضي كان بكاؤه في منتصف النهار فقط ! أما الآن فسيبكي هذا الظل الشجرة منذ أنْ كانت شتلة وبدأت تكبر وهو معها ؟ كان يفارقها في منتصف النهار فقط أما باقي الوقت فدائماً معها ، أحيانا تسأل الشجرة الظل لماذا أنت أناني ؟ تجعلني دائماً درعاً واقية لك من أشعة الشمس ، أحبّ ظلك الليلي لأنني لا أتألم من الحر ، ولكن ظل النهار مؤلم وتصرخ فيه مازحة : يا أناني .. يبتسم لها الظل قائلاً :

لن يحبك أحد أكثر مني والظل الذي نكونه أنا وأنت ليس لمصلحتنا وإنما لمصلحة الغير ، الغير المحتاج لهذا الظل ، الأرض التي لا تستطيع أنْ تحتمل الحرارة طويلاً ، الحيوانات الهاربة من القيظ ، عابري السبيل ، ألا تريني أقصر وأطول وأدور ؟ لا أعرف أين أقسّم نفسي ، المهم أنا حزين جداً لفراقك .

قام نخاسو الفحم بجرّنا بواسطة دواب قوية ، دفنونا في خندق مستعر ، كان سجناً مظلماً لا هواء فيه ، كوة واحدة تركوها ، ليس من أجل إنعاشنا ولكن من أجل أنْ لا تخب النار ، أهالوا علينا التراب ، حتى دُفنا أحياء ، أخذت أموت رويداً في هدوء .

أحياناً أنام فأحلم بنار إبراهيم عليه السلام ؟ أحلم ببرد وسلام .. ولكن أين كوني؟ أين ؟ أشعر أن لحمي وعظامي وعصارتي تحترق .. لكن روحي لا يحرقها اللهب .. قد تحرقها دمعة أو كلمة أو ابتسامة صادقة .. لكن اللهب النار الأتون .. لا .. لا .. لا .. ثم استيقظ لاستقبال مزيد من الكي والاختناق والتفحم .

بعد عدة أيام تفحّمتُ ، أصبحتُ لا أدري ما انتظره أو بالأحرى ما ينتظرني .

هل هناك نار أخرى بعد التفحم ؟ هل ستُحرق روحي أيضاً ؟ كيف ؟ ومن الذي سيحرقها ؟ وأين أمي ؟ أشعر أنّ أمي مازالت في الأرض ، مازالت بذرة ..

بينما كانت الشمس تشرق في الصباح الباكر ، اجتمع حول خندقنا المردوم جمع من الناس ، أزاحوا عنا ثقل التراب .. عُبئنا في أكياس كبيرة ، كل كيس به خط عريض في المنتصف ، وتفوح منه رائحة شعير وفئران .. أحكموا غلق الكيس بسلك معدني فأصبح كسجن بقضبان .. جاء قدري بأنْ أكون في مقدمة الكيس لأنّ هيكلي مصقول ومكتنز .. اعتبرتُ وجه القبول .. جسّني كثير من المشترين ؟

كنت أستر كل القطع الصغيرة النحيلة الهشة التي تملأ أسفل الكيس ، والمنتصف وفوق المنتصف أيضاً .. شعرتُ بالضيق والتفاهة ، تذكرت صناديق الطماطم والبطاطس والفواكه في سوق الفندق البلدي .. أيقنت أنني أشارك في عملية غش وتدليس فتمنيتُ لنفسي أنْ أحرق .. أنْ أفتت أكثر من مرّة .. لم آسف لحالي الذي أنا فيه .. تنقلت من سوق إلى سوق ومن جرار إلى شاحنة ، تمّ بيعي عدّة مرات وفي كل مرّة كانوا يتأكدون من قضبان السلك وكانوا يعيدون تثبيتي في البوابة ، لقد شنقوا إحدى نتوءاتي على وضع يجعل مؤخرتي بارزة للخارج ، أحياناً يكون الكيس نائماً على رأسه وأحياناً يكون شامخاً إلى أعلى ، وذات مرّة حشرتُ في ذيل شاحنة وصففوا عليّ كل أكياس الحثالة ، آخر المطاف اشتراني رجل طويل وسمين يلبس (فرملة) تفوح منه رائحة العرق والتبغ و(البارزيتي) و (البوفاس) أيضاً ، انتشلني بخفّة من الأرض ، كان نتوئي قد ابتعد عن سلك المعدن من جرّاء فوضى الرفع ، أقفل باب السيارة الخلفي ومضى إلى كرسي القيادة .

انطلق مبتهجاً بسيارته ، كنت اشتمّ رائحة دخان ليست كالتي نتجت عن تفحمنا ، أطلقتُ العنان للسعال وتزحزحتُ من الكيس قليلاً لأفسح الطريق لمناخيري التي أخذت تتسع من أجل امتصاص أكبر كمية من الهواء النقي ، وأخيراً توقفت السيارة أمام ساحة كبيرة ، إنه سوق الخضراوات الفندق البلدي ، نزل وغاب وعاد مهلل الأسارير في حضنه كيس مملوء بأكواز الذرة الطازجة..

تمتمت في نفسي ، عليك اللعنة يا أبا فرملة .. وضع الكيس قرب كيسي ، عبق الجو برائحة الذرة ، لمحت حبيبة تبكي ، كان غطاؤها الأخضر الهافت قد أزيح لمعرفة الجودة ، نظرت إليها فزاد نشيجها حتى ابتل الليف الرهيف الذي يحيطها ، همستُ في أذني أرجو أنْ لا تحرقيني أنتِ بالذات ، شعرت أنْ روحي ستموت ، أدار أبو فرملة المحرك وانطلق هارباً بالغنيمة .. كانت سرعته عاقلة وبين الحين والآخر ينظر إلى الوراء ويغني فحم .. ذرة .. فحم .. ذرة ..

أوقف السيارة ، أخرج المفتاح من ثقب المقود ورفع مقبض فرامل اليد ، قلد الصوت الناجم عن رفع المقبض وتذكر كيف يسمع مثل هذا الصوت عندما يداعب مشطه بإبهامه الغليظ ، تلقته ابنته ، خطفت كيس الذرة بينما عانق هو كيس الفحم واندفع به إلى داخل البيت ، اقترب من برميل كبير يقبع في ركن منزو تحت السلالم ، قبل دخول البيت كنتُ قد نظرت إلى السماء لأخر مرة بعدها أصبحت أنظر إلى السقف .. ابتسمت وقلت سانكبّ أولاً في البرميل وأكون في القاع ، سأعيش في الخيال .. وربما لا أحرق .. وربما يكون الجو دافئا ولا يحتاج إليّ ؟ .. وربما المدافئ ترخص ؟ والشتاء لا يجيء ..

وأنا في دوامة "ربما " توقف أبو فرملة.. أوقف الكيس على قاعه ، آه منه اللعين وكأنه قد سمع آمالي الأخيرة ، فك السلك المعدني وأخذني ومعي عدة قطع أصغر ، رمانا في الموقد استعداداً لحفلة الحرق الراقصة ، كنت أبكي بدموع من رماد بينما أبو فرملة يسكب الكيس في البرميل فيتطاير غبار أسود في الهواء .. يأتي صوت الزوجة من بعيد "هوه شن درتنا" نفض الكيس من آخر مسحوق ثم قربه لأنفه الصغير شمّه بعناية مقهقهاً .. رائحة الشعير والفئران لا تختفي من الكيس ولو ملأته قطران ، ردت عليه ابنته بابتسامة مجاملة ولوحت له بكوز سمين من الذرة .

تناولوا عشاءهم الدسم ، نظر أبو فرملة إلى زوجته فابتسمت وقالت : ما رأيكم لو أننا أعددنا الشاي على الفحم ، فحم جديد وكبير ما شاء الله .. كنت أنظر إليها بحقد وأتمنى لو طقاشة تحرق إحدى عينيها .. شعرتُ أنها متحفزة لامتصاص دمي الأحمر والأسود أيضاً .

واصلت الزوجة حديثها : بعد أنْ تستعر النار جيداً .. سنشوي أكواز الذرة الطازجة .. ما إنْ أكملتُ التاء المربوطة المكسورة حتى سقطت الحُبيبة الباكية على الأرض من هول المفاجأة ، قفزت وتركت كوزها ، لم تجد صعوبة في القفز ساعدها على ذلك أنها كانت غير متمسكة جيداً في الكوز ، كان أحد المشترين قد نبشها بظفره الطويل ليتأكد من الجودة ، ما إنْ سقطت على الأرض حتى هاجمتها قطة فضولية سمعت دوي السقوط الهامس .. خبشتها قليلاً ، لعبت بها كخرزة ، شمّتها ، لم يعجبها الطعم الذي ليس بلحم أو لبن أو جبن ، ركلتها برجلها لتغوص بعيداً في تراب الحديقة ، كانت الحبّة تصرخ من ألم المشاكسة ، قالت لنفسها : هربت من النار ، فوقعت في النبش والوخز والركل وأخيراً الوأد في التراب ، قبل أنْ تبتعد القطة لتجثو

قرب الزوجة ، نادت الحبّة السماء : أريدُ شمساً أريد ماء ، أجابتها الشمس بلغة الشعاع : الرياح .. الرياح .. الرياح ..

بصقت الزوجة سائل الوقود على كل الموقد ، اعقبته بعود ثقاب مشتعل ، ارتفع لسان من اللهب أو ليس لسان إنه فوضى من الألسن ، لم تقتنع .. زادت عليّ بصقات أخرى وأخرى ؟ ارتفعت ألسنة مختلفة ، كنت أصرخ من حر الحريق وكانوا يضحكون ملء بطونهم ليس على صرختي ، إنما على فكاهات يطلقونها حول أناس فلاحين ورعاة !

صرختُ حتى اهتز الموقد ، بكيتُ حتى بكى معي الرمل الذي أتوسده ، تحول سوادي إلى وهج ، حتى الأكسجين الذي كنت أنتجه أيام العز ، انقلب ضدّي ، أصبح لا يعرفني .. أصبح يقترب من اللهب مُتزلفاً ، قلت لنفسي التي يحترق كيانها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اتق شر من أحسنت إليه ، زاد الصهد فأحمرّ وأسودّ فيّ كل شيء ، استسلمت للسعير ، تحولت روحي الخضراء إلى حمراء فاحمة .. تشبعتُ بالعدوانية ، أحببتُ أنْ أحرق وأمزّق أي شيء .. كساني الهبو والرماد ، مات كياني كله ، إلا روحي التي لن تميتها إلا نار الله لتحييها من جديد ، بعد أنْ تحرق منها كل دنس قد علق بها في رحلة الأيام ..

عُريت أكواز الذرة من أثوابها الباهتة ، أزيل شعر بكارتها ، قـُبلت وهي نيئة ، شُمّت ثم أرسلت إلى اللظى ، قلبت على سعيري .. كنت سعيدة وحزينة في آن واحد ، لمسني جسدها البارد الذي أنتجه الثلاثي الماء والتراب والشمس ، كانت لها أم مثلي ، تبادلنا رائحة النسمات في الغابات .. والآن ها هي تعانقني في مكان لا أرغبه ولا ترغبه.. موقدا من سعير .. ياللعار .. يا للتعاسة .. والآن لامستني ببردها المنعش .. فطوقتها بناري اللافحة ، كانت تنفجر ألماً وتزداد بي التصاقاً واستجارة ، كانت تثق بي رغم أنني أحرقها وأحرقُ نفسي وروحي .. وأخيراً تهاوت وارتخى الكوز المتصلب مستسلما لمقصلة الجحيم .

حبيبات الذرة السوداء كزيتون صغير أو كرؤوس زنوج حشروا في شاحنة تجري وصندوقها يرتفع تدريجياً كشاحنات تفرغ حمولتها من الرمل ، وتأخذ الرؤوس في التساقط لتقع وسط غابة العائلة التي تقضم وتنهش وتنتش وتمضغ بلذة عنيفة .. طبعاً هناك فرق كبير في الطعم والسعر أيضاً .. بين الشيء المطبوخ والشيء المشوي ، كانوا حلاقين مهرة ، أسنانهم أحد من شفرات التمساح الأبيض ، في دقائق كانت كل الأكواز قد أزيح منها كل ما أينع أو لم يينع .
الأم السمينة التهمتْ كوزاً نيئاً.. قالت طراوته ستذهب الكربون العالق في الأسنان ، اقتدوا بها جميعاً وكل واحد نظف أسنانه بكوز لم تمسسه النار .

تجرعوا الشاي الأخضر بالنعناع واعقبوه بالماء البارد وكنتُ أنا في الموقد أصغر وأتلاشى وأخبو ، أنظر إليهم وكلي المتضائل يشكر الله على أنني لست ذرة ، تأسفت لحال الذرة ثم رمقت تلك الحبة التي وأدتها القطة في التراب ، كانت في حالة إغماء ، سمعتْ صرخات الحبيبات في الأكواز حبّة حبّة ، صرخة صرخة ، صرختْ هي أيضاً حتى بُح صوتها .. كانت تصرخ للرياح بألا تأتي أبداً أبداً .. التراب جعلني حيّة .. كانت النار رحيمة والأكسجين شعر بالخجل فابتعد عن تخومي ، فانطفأت وتوقف التلاشي وأصبح مازال مني باقي بقية باقية .. في اليوم الثاني رُميت في القمامة مع أعجاز الذرة الخاوية من أي حبات ، ومع الليف الرقيق وستائر الأكواز ، وكانت القمامة تشكيلة من المخلفات من ضمنها قطن مقفل لطفل رضيع . عندماً أخذ ذباب فضولي يحاول حل طلسم هذا الملفوف كنت أنا أتقافز لأخرج من البرميل

، وفعلاً نجحت إحدى محاولاتي بعد أنْ نبشني ولد يافع كان يبحث عن " تير أسود" قلبني بين أصابعه الرقيقة ثم ابتسم وأخذ يرسم على الجدار نخلة وسمكة ووروداً وعصفوراً وفراشة وعروس البحر ثم خطوطاً أفقية تحت ما رسمه .. تمنّى لو كان الفحم لونه أزرق ، كان قد بدأ في رسم الشمس عندما صرختْ فيه أمه : أدخل واترك القمامة .

قال لأمه : حاضر ..

ثم نظر ذات اليمين وذات الشمال ، نظر تحت ولم ينظر فوق .. نظر إلى الأمام ولم ينظر إلى الوراء ، أكمل رسم الشمس وأرسل أشعتها في جميع الاتجاهات ، أعادت أمه الصراخ فرماني على عجل في منتصف الطريق ثم دخل البيت ، تطاولت أعجاز الأكواز ، شعرت بحسد ما ، آخر شيء قد رأيته كان ما رسمة الطفل وفي لحظات كانت شاحنة ضخمة تدهسني بعجلاتها الكثيرة لأتحول لمسحوق يشبه الكحل ..

وبعد أنْ قرأ النص على الصفحة الأخيرة من جريدته التقينا في رابطة الأدباء وقال لي : لم أكن أظن أنك تكتب هكذا ؟ وأخذني إلي شقته وأعد لي شطيرة كبدة دجاج قائلا .. كنت متسرعا .. سامحني .. سامحني أرجوك .. وكيف لي أنْ أسامحه .. وهل يشتريني سندوتش كبدة دجاج .. وليتها كبدة ديك رومي .. سامحته إنسانيا لكن إبداعيا رددتُ عليه بهذه الكلمات و التي كتبتها فورما انتهيت من قراءة ديوانه الشعري دفعة واحدة .. في ظهيرة يوم قائظ خرجتُ من البيت ، ركبتُ الحافلة، ونزلت في ميدان الفندق البلدي. على الرصيف بائع يبيع الكتب .. يضع على كل كتاب حجرا صغيرا .. لمحت كتيباً ليس بغريب علي .. أزحت عن صدره الحجر .. إنه هو .. ديوان صديقي الشاعر.. بعد مساومات ساخنة اشتريته أو بالأحرى أزحت عنه ثقله بدينار إلا ربع. .! عدت إلى البيت، وضعت الديوان في المكتبة، جنب ديوان " لذي يأتي ولا يأتي" للبياتي .. دفعه ليسقط أرضاً وأقسم أنْ لا يبيت بجانبه.. وضعته بجانب الشاعر الفزاني .. مرض الفزاني وسافر للعلاج ليلقى حتفه في سويسرا.. وضعته بجانب أمل دنقل دفعه مع عضّة شفاه .. قرب إيليا أبو ماضي. . أبعده برفق هامسا : لقد تركنا لكم الوطن أتلاحقوننا في موتنا أيضاً ؟ قرب ديوان ميسون صقر فوقعت البنت وترضضت ركبتها .. أخذ الديوان يبكي وينتفض ويرفس بأوراقه وغلافه على الأرض .. تركته يبكي حتى اليوم التالي .. لم ينزح اللعين.. في منتصف النهار خرجتُ لأعيده إلى الرصيف متنازلاً عن ثمنه .. لكن بائع الرصيف غير موجود .. دوهم من قبل الحرس البلدي .. قلت سآخذ الديوان في نزهة على الأقل .. فأنا لا أحبّ الكلمات الباكية .. البحر لفظه .. الحدائق لفظته .. سوق الحوت .. سوق الحشيش .. سوق الحمام .. سوق النملة .. المواشي .. هرعتُ به لدار الكتب الوطنية ألفيتها مقفلة قال لي الخفير قبل حضورك بلحظات ربطوا رؤوسهم وكمموا أنوفهم وأمسكوا ببطونهم وخرجوا مسرعين مستقلين سيارة إسعاف .. قلنا نأخذه إلى رابطة الأدباء وجدتهم في اجتماع بطرابلس .. ماذا أفعل به يا تُرى .. أه فكرة .. !! ذهبت به إلى سوق العرب.. دخلتُ من باب البقوليات والمحمصات .. فور دخولي أخذت حبيبات "الزريعة" ترقص في الأكياس وتتطاير إلى أعلى كذرة تُقلى. . تعجبت للأمر.. سألت السوداني قيّم المحمصة : ما الأمر؟

قال لي : كلما دخل زبون في يده ديوان مثل الذي تحمل تفرح الزريعة إلى حد الطرب لأنها ستتحصل على قراطيس تحررها من أكياسها.

قلت له: ريحتني الله يريّحك ..

ودفعتُ له بالديوان. . طربشه سريعاً وملأ الطرابيش بالزريعة "السامينسه" وصاح في مساعده : بسرعة إلى المدرسة .. قريب يدق الجرس.. اندفع المساعد يجري بصندوق الطرابيش .. تبعته بفضول.. حالماً وصل أمام المدرسة ازدحم عليه التلاميذ واشتروا كل قراطيس الديوان، رغم وجود بائعين آخرين يبيعون الزريعة نفسها ولكن في قراطيس ورق إملاء وحساب ورسم بياني . . تتبعت تلميذاً.. انتحيت به جانبا وسألته: لماذا تشترون هذه القراطيس بالذات؟ قال لي: هذه القراطيس يا أستاذ عندما ننقب زريعتها نصنع منها صاروخا نطلقه فلا يخطئ الهدف أبداً.

قلت له: أي هدف تعني يا صغير؟

قال لي: سلة المهملات التي وراء باب الفصل.!!

لقد تعبت الآن من الكتابة .. لا أدري ما كتبته جيدا أم لا .. لو أدري لمزقته .. فالأشياء المعروفة ميتة .. والمجهولة حيّة بالعذرية .. والجماد هو الشيء المعروف وحياته تكمن في سره .. في موسيقاه الصامتة .. في حياده التام .. في سكونه الصابر .. لا ندري ما مصير الجماد .. هل هو مثلنا ؟.. وهل له قيامة ؟.. وإنْ كان له .. فهل ستتخاصم مكوناته مثلنا ؟.. أحلم بذلك .. أحلم بجبل وفولاذ يتلاومان .. إسمعوهما بأذانكم الداخلية .. ببصيرتكم المحلقة في الشعاع .. في قيامة الجمادات قال الجبل للفولاذ : تخرج مني وتنخرني أيها الجحود ، بئس الرحم أنا .. ثم أطلق من سقف جمجمته حمماً على قيامة الأحياء .. والقيامات ستتشاجر وسترد قيامة الأحياء على قيامة الجمادات ويتدخل حزب الخضر وحزب الشفافية .. وتتكون لغة خاصة .. لا تنطق .. لا تكتب .. لا تسجّل في أشياء .. أو تجمع في ملفات مخابرات .. لغة الطمأنينة .. لغة السكينة والهدوء البطيء .. يفهمها الجماد والأحياء .. يذيبها الله في الماء ليشربه الطرفان ويتداولانها .. وتتناسل و تتكاثر اللهجات .. فالجماد أجناس .. والبشر أجناس .. والمتابعون أجناس .. وتندثر الملاغي تدريجيا بسبب المفسد الأبدي الزمن .. المتاهة المتحركة .. المتشابكة .. أين رأسك أيها الزمن أريد أنْ أشنقك وأستريح .. فأنا مشنوق في حبل سرّة ومشنوق في اللا سكون .. مشنوق في حياة تطلب مني أنْ أتنفس وآكل وأضاجع وأتبرز وأتقيأ وأموت كل يوم .. بنغازي أينك .. عانقيني .. أشعر بالوحدة .. امنحيني نسيما مليئا بالأكسجين .. نسيم أنس دائم .. لا تتعجبوا لهذا النداء .. فبنغازي جثتي التى أنبشها وألتهمها وأسحر بها عبر كسكسي تراب .. وعبر كلمات فاعلة دون أن أنال عقابا .. بنغازي زمني المتجمد .. زمني الذي لا يفسد وإنْ هاجمته جراثيم الوجود .. بنغازي جمادي المعشوق .. وأيضا الظهرة .. ومراكش .. ودرنة .. المكان أصلا جماد لأنه ثابت لا يمر .. بينما الزمن حي .. مؤثر .. لا يستطيع التوقف .. أو الزوال .. سلاح في يد قوية .. تجلده بسياطها ليقشّرنا ويركض دونما توقف .. مصرفه معروف .. عملته معروفة .. فصول .. ليل نهار .. شمس .. قمر .. افلاك تتحرك .. الزمن إله المكان .. غير أنّ المكان كافر .. لا يؤمن به .. فيجاهد الزمان لتركيع المكان .. ينشّف ماءه .. يعرّي ظهره .. .. يكويه بالجليد والنار والعيون .. المكان يراكم السيئات .. ولا يستسلم .. يعد العدّة في أعماقه .. ليثور .. يتمنى أنْ يحارب بنفس السلاح .. آه لو تُمنح له حياة تقليدية .. بها رئات تتنفس .. وألسنة تخاصم .. وأفواه مبصرة تأكل الدقائق والساعات والدهور .. المكان جميل أراه .. بينما الزمان يمر .. يقتلع من جسدي أسنانا .. ويحقنني بضعف تدريجي خسيس .. يبيّض رأسي .. ويرخي ذكري ويعتّم بصري ويذهب سمعي ويصمّ غنائي .. آه لولا غناء القلب و ترانيم الروح .. ويتمادى العدّاء اللعين فلا يتورّع عن سرقة أكسجين لم ينتجه .. لهذا تلعن الناس الزمن دائما .. فيقولون .. زمن سيء .. زمن أرعن .. زمن غلط .. زمن زفت .. زمن فقر مرض جهل .. زمن عاهر .. زمن فراق .. لكن لا أحد

يقول بنغازي ليست رباية الذائح .. أو درنة ليست بلد سميرة .. أو مراكش ليست البهجة .. أو الجنة ليست مكانا يتوقف فيه الزمن ويخجل على وجهه داسا ذيله بين خلفيتيه الكسيحتين ..

* * * * *

فطيمة مكان يتحرك .. فقاعة خصبة محشوة بالزمن اللذيذ .. أغتالتها العمامات في أوائل غضاضتها حيث جسدها في طور الارتسام .. وسحب أحلامها بالكاد شرعت تمطر .. في عقلها شكلتنا .. فتيان صغار تختار منّا .. نتنافس على رضاها .. مازال هذا الشيء الذي إسمه الحب أو العشق لم يطرقنا .. إعجاب فقط .. وكلمات نديّة خارجة من قاع التلقائية هي بغيتنا .. تلويحة باليد تجعلنا لا ننام .. وابتسامة تجعلنا نمارس العادة السرية .. أما المصافحة خلسة .. أو الغمزة الشقية .. أو ترقيصة الحاجبين أو مدة اللسان السريعة .. فتلك قمّة بهجتنا .. فطيمة مدينتنا المتحركة .. بنغازينا ومراكشنا ودرنتنا .. دائما نمسك لها الحبل ونؤرجحه في حركة دائرية .. هي تقفزه برشاقة غزلانية .. ونحن نصاحب دوران الحبل بأغنية اللعبة المعروفة .. *شنطة .. قلم .. محايا* .. أو *.. وردة .. زهر .. ياسمينا* .. وهي تقفز سريعا رغم سمنتها .. وفستانها ذي المربعات الملونة الشبيهة بمربعات تنورات فرقة المزامير الأسكتلندية.. يرفعه هواء حركتها .. فيكشف عن جزء من ساقيها الأبيضين .. فتشعر بذلك وتحمر وجنتاها وتتوقف عن اللعب برهة ريثما تجذبه إلى تحت جيدا ونواصل تدوير الحبل ويتواصل قفزها وتعرّقها واحمرار وجهها كشفق شتوي آيل للغروب .. ويمتعض جميعنا كلما قطعت أمها اللعبة بمناداة فجائية .. فورما رحلت مع ذلك المعمم فرغت حياتنا .. احتواها الخواء .. زمن طويل ونحن نتألم من فقدها .. وننكس رؤوسنا حزنا كلما تحدثنا عنها .. في زيارتها الأولى إلى أهلها وصلت ليلا .. وفي الصباح غادرت قبل أنْ نستيقظ .. بعد مدّة انتقل أهلها من المنطقة ..لا أدري إلى أين .. ربما إلى الجغبوب .. حيث أهل زوجها .. أو إلى الغرب حيث مسقط رأس والديها .. وتوالت السنون .. ولم أرها مجددا إلا صحبة طفليها في المستشفى .. الزمن قصير .. والزوج دشّن المكان سريعا .. والآن ها هي تطرقني من جديد .. كنسغ متجمد في قاع ذاكرة واستأنس بيسير دفء فارتفع إلى هرم الوضوح .. الهرم الجماد .. الذي تيبس من تواصل الهموم وانكسار خزف الفراق على جبينه .. فطيمة تبعدني عن السطور .. وتحكي عن حالها وأحوالها .. أنا في الجغبوب .. تزوجت من هذا الصوفي الضخم .. الذي مزقني مضاجعة وولادة وسهرا وعبادة .. منذ أنْ تركتكم شعرت أنني تركت طفولتي .. أشعر بدماغي ينغسل ويُنشر على حبال رأسية .. منذ أول ليلة قُتل قط الإحترام .. صفعني قبل أنْ يعتليني ويكويني .. لأنني لم أفهم شيئا .. وخجلت .. هو ليس مثلكم .. شعره غزير .. وشنبه يخوّف .. ولحيته أطول من شعر رأسي .. عندما تجرّد من ملابسه .. خلته غوريلا .. فتذكرتكم و بكيت .. منعني من الخروج وتأمل السماء من النوافذ .. منعني من مواصلة دراستي .. المرأة ليس لها إلا بيتها اولادها ومطبخها وفراشها .. جعل نفسه شيخا عليّ .. وأنا مريدته المطيعة .. وقتي كله لأمور البيت .. الطبخ لأهله والضيوف .. زوجي تحول من مدرّس دين إلى شيخ حضرة وفقيه يكتب الحجابات ويخرج الجن من الإنس والإنس من الجان .. ويدّعي أنه يعرف مكان المسروقات .. البيت لا يخلو أبدا .. تركت قراءة المجلات .. والقصص .. والروايات والأشعار .. نسيت بنغازي .. وحي المحيشي .. نسيت رفاقي الصغار .. لا أعرف الا الجغبوب وزاويتها السنوسية .. الأخوان جاءوا .. الأخوان ذهبوا .. الأخوان طاروا .. الأخوان سيتغدوا .. سيتعشوا .. سيتسحّروا .. وأنا دائما في المطبخ أو على السرير .. لا ينام معي زوجي كثيرا .. كثيرا ما يبيت في الخارج وكثير ما يسافر على بعيرعبر الصحراء إلى واحة سيوة أوالكفرة .. وشاع في المنطقة أنه تزوج فتاة من سيوة وأخرى من قبيلة زوية بالكفرة .. وثالثة من واحة تازربوا أو اجخرة .. وأنا صغيرة وأتألم .. ما قرأته في الروايات والقصص لم أستطع أنْ أعيشه مع هذا الزوج .. عزائي كان في القراءة .. خاصة عندما يتغيّب .. لديه مكتبة قديمة .. بها كتب ومخطوطات نادرة .. قرأت ألف ليلة وليلة .. وعنترة .. وطوق الحمامة .. والطب النبوي .. وتذكرة داود الأنطاكي ..

وكتب لإبن تيمية .. وابن القيم .. ومحمد عبالوهاب .. وسيد قطب .. والمودودي .. وابن الفارض .. ومحمد عبده .. وجمال الدين الأفغاني .. والكواكبي .. وأبي حجر العسقلاني .. وابن عربي .. وجلال الدين الرومي .. والحسين الحلاج .. والنفري .. وكتاب عن قلعة الحشاشين في آلموت وزعيمهم حسن بن الصباح .. وأشعار لحافظ الشيرازي .. ورسومات منمنمة لأبزاد .. وكليلة ودمنة .. وسيف بن أبي يزن .. وتغريبة حبيب .. وهجرة بنى هلال .. وكثير من العبارات علقت في رأسي .. تونس لولا يونس لاهي بلاد ولا يمتشالها .. وانكان بوزيد عمار راهو عمر سواني بلاده .. ومادام بوزيد دمّار على الله تبقى حمادة .. وإنْ اتسعت الرؤية ضاقت العبارة .. وسبحاني ما أعظم شأني .. وما في الجُبّة إلا الله .. وأبي جنى علي وما جنيت على أحد .. والصوفي من لبس الصوف على الصفا وسار على هدي المصطفى .. وقليل من الخبز يكفيني إلى يوم تكفيني .. ولا شيء صحيح ، وكل شيء مباح ! .. وقرأت شعرا للمتنبي ولأبي فراس الحمداني .. ولإبن

الرومي ..ولعمر الخيّام .. والبخلاء للجاحظ .. وقرأت المعلقات .. وكتب لم أفهمها للغزالي وابن رشد وابن سينا والفارابي والكندي ورسالة الغفران للمعري .. وأحسّني احتاج لإنسان أتناقش معه لأفهم ما انغلق عني وأعيش حياتي الإبداعية .. حياة الظل الموازية لحياتي الواقعية .. دائما أقرأ في السر .. إلى أنْ ضبطني زوجي وهددني بالطلاق إنْ قرأت في كتب مكتبته مرّة أخرى .. أعطاني القرآن الكريم .. وصحيح البخاري ومسلم .. وموطأ مالك .. وكتاب عن الزوايا السنوسية .. وصورة صغيرة للمجاهد سيدي أحمد الشريف .. وكلفني بحفظ هذه الكتب أولا .. تذمرت بشدة .. وكرهته كثيرا .. لم أتخيّل أنْ يمنع عني طوق الحمامة .. أو سندباد ومغامراته في ألف ليلة وليلة .. وكان لديه إبن أخ طالب في جامعة بنغازي .. كلما زار الجغبوب تبادلت معه أطراف الحديث .. وتناقشنا في الكتب والثقافة والأدب .. ووجدني مثقفة بعض الشيء .. فمال إليّ .. وبعث لي بغناوة علم عجزت عن تفسيرها لأننى بنت مدينة لكن فهمت منها أنـّه يواعدني ليلا .. كرهت هذا الشاب .. وكرهت زوجي .. وأحببت الكتب .. وصرت أقرأ في القرآن الكريم وأبكي .. وأشعر أنْ روحي تزداد صفاء .. وأنْ إيمانا منيرا يغمر قلبي .. لم أتحدث مع هذا الشاب ثانية .. وبعثت له مع إبنتي الصغيرة بمصحف صغير .. فما اعترض بعدها طريقي قط .. فيما بعد سمعت أنه تزوج من فتاة طبرقيّة تدرس معه في الجامعة .. وانتقل للعمل في طرابلس بإحدى المؤسسات النفطيّة .. الحياة في الجغبوب رتيبة .. لكن المدينة لطيفة .. تكسوها مسحة بركة ونقاء .. بها بحيرة عذبة تشرح النفس .. وسماء صافية توحي بالآمان .. ونخيل يمد ظلـّه بكرم .. وتمر حلاوته لم أذقها .. ونوق وديعة لبنها دافيء ومغذٍ .. ورفاة شهداء مازالت طازجة إلى الآن .. الجو جاف .. والبرد شديد في الليل .. وفي النهار سعير تنور .. والحياة تسير

برتابة .. إلى أنْ وصل زوجي ذات مغرب من سيوى .. ضاجعني مرتين في عجالة .. وقال لي أبشري لقد أذِنَ لنا .. سنهاجر من دار الجاهلية إلى دار الإسلام .. من دار الحرب إلى دار السلام .. لممنا حاجياتنا سريعا .. ونقلتنا سيارة صحراوية بعد منتصف الليل إلى واحة سيوة .. ومن هناك غادرنا إلى القاهرة واستقللنا الطائرة إلى السعودية .. اعتمرنا واسترحنا أياما من أجمل أيام حياتي .. زوجي دائما لي .. لا إخوان ولا ممسوسين ولا عم يحزنون .. كان حنونا معي .. لا يتركني .. يلازمني .. ويربت على رأسي البنت والولد .. وشعرت أنه يطبّق على جسدي ما قرأته في كتاب طوق الحمامة لإبن حزم .. فاستجبت له وشاركته الأمر وخلته ملاكا وليس وحشا واستلذذت كثيرا وشعرت بالمتعة والسعادة والارتواء السريع لأول مرة .. لم أعد أراه غوريلا .. صرت أراه ملك جمال .. أيام جميلة .. راحة وصلاة وقراءة ونزهة ونوم جميل حالم .. ومناطق مقدسة مباركة نزورها ومساجد طاهرة تحيطني وأسمع آذاناتها وتلاواتها المتشابكة فلا أمسك عَبْرتي وأبكي برضى .. وأخالني سعيدة جدا وأنني في نخاع الجنة وعلى قمة الفردوس خاصة عندما أتذكر ردّي عل غناوة العلم بإرسال المصحف الصغير ليعرف ابن أخيه الخليع أنني بنت عائلة عفيفة وطاهرة ..

بعد أسابيع غادرنا جواً إلى باكستان .. وفي باكستان تغيّرت الأمور .. لم أعد أرى زوجي كثيرا .. يغيب شهورا ويعود أشعثا مغبرا مريضا يبقى معي إسبوع ويغادر مجددا .. أسكنني مع عائلة باكستانية طيبة .. لم ينقصوا عني شيئا .. يرعوني إذا مرضت ويصحبون أطفالي إلى المدرسة القرآنية .. ذات ليلة عاد زوجي وهو يتوكأ على عكاز .. لقد فقد رجله حتى الركبة .. وتشوّه وجهه حتى أكاد لا أعرفه .. لم يتحدث معي كثيرا .. بعد أن عانقني ليمتص صدمتي ويصبّرني بأيات تضعنا في جنة النعيم .. همس في أذني .. جهاد في سبيل الله .. ومكث معنا .. ولم يعد يغادر كثيرا .. تغيّرت هيئته .. صار يدرّس العلوم الدينية في المدرسة القريبة .. ويلبس ملابس فاخرة .. ويتقاضى مالا كثيرا .. يتصدق بمعظمه على الفقراء والمساكين وباقيه يرسله إلى الشيشان والبوسنة .. أنا سعيدة معه .. سعيدة جدا .. لكن أريد أناسا أتحدث معهم .. أتذكركم ولا أجدكم .. في مرات قليلة تزورنا عائلات مصرية وسودانية ويمنية وكويتية وسورية .. لكن لا يمكثون كثيرا .. يوم أو يومين ويغادروا .. وتوالت الأيام وأنجبت طفلا ثالثا .. ورابعا .. وخامسا مات أثناء الولادة .. وفي يوم من الأيام إحتجزتنا الشرطة .. وقادتنا إلى طائرة .. عادت بنا إلى الوطن .. لم نستجوب .. لم تسحب جوازات سفرنا .. لم تمارس ضدنا أي ضغوطات .. بل عوملنا بكل الإحترام والمحبة و التقدير .. ومنحوا زوجي معاشا ضمانيا لأنّه معوّق .. لكن زوجي صار قلقا فما عاد يعتليني جيدا .

فطيمة رومانسية جدا .. تظن أنّ حبّ الطفولة عفافه باق .. وأنه لا يتطور إلى إصرار وترصد وفجور .. وهي تلعب معنا كنا نعد الخطط .. ونستدرجها إلى سواني عصمان .. أو سدرة النبق البعيدة عن العمران .. نغريها باصطياد الطيور .. والبحث عن جلبان الكريشة و ثمار الثمير .. والقعمول (الخرشوف) والكمأ .. لكن كانت ذكية .. تشم الشر في عيوننا .. وترفض الابتعاد .. أمي قالت لي لا تبتعدي عن مدى رؤيتي .. لا أبعد من مائة متر عن البيت .. هكذا هو الوحش الذي داخلنا .. يمخرنا كل ليلة .. لا يجعلنا ننام هكذا .. كل يوم خطة فاشلة .. كل ليلة أتذكر مبروكة .. ونسوة شارع الشطشاط وبالة .. وكل بطلات الأفلام المصرية والأجنبية .. وبطلات المسلسلات .. والمطربات .. ولاعبات التنس .. لم أرغب في أم كلثوم .. ولا فيروز .. وأتخيلني مع مبروكة .. وذاك اليوم بالضبط .. عندما قالت لي أدخل مافيش حد براني .. دخلت .. وارتميت على جسدها .. وطوقتني .. ولم أصمد .. فقد استحلمت سريعا .. استيقظت من نومي .. تسللت إلى الحمام .. غسلت بنطلوني الوحيد .. ونشرته على حبل فوق السطح .. كان الفصل صيفا و القمر في ليلة المنتصف .. والسماء صافية .. والرؤية جيدة .. قلت أتلصص على البيوت المحاذية .. ثمة جارنا وجارتنا يتضاجعان فوق حصير تاورغي .. قدما الجارة على كتفي الجار كأذُني أرنب .. وطفلهما الصغير نائم في مهده الصغير .. وقط يلعق بقايا طعام في صحن قريب ولا ينهره أحد .. صرخت فيه : كس .. كس .. كس فصرخت الجارة .. ولعن الجار السماء .. وفر القط بعيدا .. والطفل شرع يوعوع واع واع واع عدت إلى فراشي مهرولا واندسست مستعيدا جاري وجارتي علّي استحلم ثانية .. نمت بسرعة وحلمتُ بجارتي تتشاجر مع مبروكة وجاري يتشاجر مع زوجها العسكري .. بعدها ينتهي العراك ويتصافحان .. وكل رجل يدخل مع امرأته غرفة مظلمة يملأونها تأوهات .. بحثت عن القمر فوجدته يعتلي أربع نجيمات وبحثت عن الشمس فوجدتها تعتلي الليل .. ووجدتني أتقلب في الفراش والشمس تلسعني بحرارتها الحارقة وأمي تقول لي إنهض سروالك جف البسه وجيبنا شوية خضرة للغداء .. في ظهيرة اليوم الثاني نهرني أبي ضاحكا .. اترك قطط الناس في حالها .. لا يحق لك أن تقول بش أو كس إلا لقطك الخاص .. أما قطط الناس فلا يحق لك أنْ تأمرها .. خاصة في الظلام ..

منذ أن رأيت جسدها تلك الليلة وأنا أراقبها .. عندما تزور أمي أدخل البيت وأحملق فيها .. فتقول لأمي ولدك نظرته حارة .. فتنهرني أمي قائلة .. بعد ايجوني نساوين ما تدخل البيت .. تحشم .. أنت راجل .. وصرت أتحشّم .. ولا أدخل البيت .. وذات يوم كنت في الفندق البلدي ..

أتسكّع في الشوارع القريبة منه فصادفت جارتي هذه تتجوّل هناك تدخل إلى دكان وتخرج منه ولا تشتري شيئا .. تتبعتها دون أنْ تراني .. دخلتْ محلا لبيع الملابس الجاهزة والعطور .. واجهته زجاجية وبابه زجاجي تغطيه أوشحة ملونة .. تأخرتْ في الخروج .. وكان معي بعض المال .. فقلت سأدخل وأشتري أي شيء تافه .. جورب أو عطر رخيص .. دفعت الباب .. لم يندفع .. كان مقفلا من الداخل .. وقفت أمام الباب كقواد ماخور .. بعد نصف ساعة خرجتْ .. وجهها مصفر .. وفي يدها كيس ملابس وعلبة ملطف جو .. التقتْ نظراتنا .. كانت نظرتي باردة .. وكانت نظرتها حارة .. وكانت السماء عاجّة بالغبار .

جاءت إلى أمي بعد أيام وطلبتْ منها أنْ أبيت في بيتها (مؤانسة) لأنّ زوجها مأمورية لمدة ثلاثة أيام خارج بنغازي .. ستضع لي فراشا في المربوعة .. بـتُ في المربوعة .. أقفلتها من الداخل بالمزلاج .. طرقت عليّ عدة مرات .. وكلما أفتح لها الباب تحضر لي ماء .. عصيرا .. شايا .. علبة ملطف جو .. بعد احضارها ملطف الجو فهمت الجو فعطرت منه المربوعة بعدة ضخات و لم أقفل الباب .. تركته مفتوحا وأطفأت النور .. وتظاهرت بالنوم .. وعندما التصقت بي .. لم أقاوم حضورها وقذفت .. مسحتني كأنها تمسح طفلها الصغير .. والقمتني حلمة ثديها .. صرت أمتص بنهم واللبن يملأ فمي .. قالت لي حرام عليك .. لا تمتص لبن الصغير .. إلحس بلسانك فقط .. في الليلة الثانية نمت معها في غرفتها .. وفي الليلة الثالثة طلبت منها أنْ نفعل فوق السطح وبحضور القط .. قلت لهما سنفعل تحت القمر .. في الهواء الطلق .. لن يتلصص علينا أحد .. فالذي صرخ كس تلك الليلة هو أنا .. قالت لي عملت طيب .. لا أحبّ هذا البغل أنْ يعتليني .. إنه ليس رجلا .. يريد أنْ يتزوّج عليَّ فوّالة اسكندرانية من المنشية .. كل ليلة يهددني بذلك .. ولا يمنحني وطري .. سريعا ما ينهي ويعطيني بظهره غارقا في الشخير ..

وتوالت المأموريات .. وتوالى العسل .. غير أنْ الزمن ضاجعني .. فزرع في وجهي بعض حب شباب وبعض الزغب الأسمر .. فصار يُطلب من أخي الأصغر المبيت أو إبن الجيران .. ثم انتقلتْ كتيبة هذا الجار إلى مدينة أخرى .. ربما ترهونة .. أو غريان .. غادروا كما غادرت فطيمة .. شحنوا أمتعتهم وركبوا فوقها وتحركت الشاحنة ذات عشية بائسة تاركين قطهم الرمادي الذي صار يعوّي ويجري وراءهم ثم يتوقف .

كثير من الأسر النازحة إلى بنغازي زمن الخمسينات والستينات باعت بيوتها وغادرت إلي الغرب .. لم يعد هناك قوسا في منتصف ليبيا .. الأخوَان فيلايني المدفونان تحت القوس بعثا من جديد .. بحثا عن القورينائيين فلم يجدوهم فعادا هرولة إلى قرطاجة .. قـُبضَ عليهم فور وصول بوابة رأس جدير واتهموهم بأنهم من أتباع نهضة راشد الغنوشي.. قالوا لهم نحن من اسلافكم أبناء قرطاجة .. أحفاد هانيبال .. لكن هيهات .. خففت العقوبة وزجّ بهما في مستشفي للمجانين .. لم يعد هناك قوسا في منتصف ليبيا .. وليبيا نفسها منتصفها اختل .. ترقص دون حزام .. دون ميزان .. لا تعرف رأسها من قدميها .. أختلط الحابل بالنابل .. الوطني بالمازقري .. ليبي الشعير بليبي البترول ..المجاهد بالمطلين .. الأفريقي بالعربي .. المصري بالشامي .. الكوري بالبنغالي .. كثرت الأقواس .. صارت هناك بوابات كثيرة .. بوابات داخل النفوس .. لكل نفس بوابة دخول وخروج .. لكل مدينة بوابة دخول وخروج .. ماعاد هناك أحد يقول لك قل اشبكة أو ابقرة .. يسألون فقط عن البطاقة الشخصية والوضع من التجنيد العسكري .. وقد يفتشون الأمتعة .. ويصادرون أي شيء يمنعونه .. في كل بوابة .. جمرك .. شرطة .. حرس بلدي .. مباحث .. شرطة عسكرية .. انتربول .. كل بوابة دولة قائمة بذاتها .. السلع التموينية ممنوع انتقالها داخل ليبيا .. في الغرب يوجد حليب وسميد .. في الشرق توجد مكرونة وأنابيب مياه .. في الجنوب يوجد تمر وبصل ودلاع .. تبادل السلع بين المدن عبر القنوات الرسمية مسموح به .. لكن كتجارة حرّة أو سمسرة فممنوع .. الحديد من مصراتة .. والإسمنت من درنة وبنغازي .. والمدن تتبادل

سلعها وتتقايض .. فلكل مدينة شهرتها .. وماذا تحتاج وماذا ستعطي .. واستغل الكثير من أهل الغرب معارفهم في الغرب وسوّقوا للشرق السلع الكثيرة .. والشرق لا معارف لديه في الغرب .. فهو يشتري ويبيع .. وازدهرت حركة نقل السلع بالشاحنات بين المدن .. وكثرت شاحنات مصراتة .. الشكوانطا و الأوتانتا والداف .. كل بيت صارت له سيارة داف وظهرت أغنية تقول " *بيع البقرة واشري داف .. قوّي عزمك راك تخاف* .." واشترى تجار الغرب انتاج بساتين التفاح والعنب في الجبل الأخضر وثمارها مازالت على الشجر.. واختلطت الناس بفعل المصالح والعمل والعسكرية .. لكن هناك الكثير من عرب الغرب باعوا بيوتهم في بنغازي وعادوا إلى مناطقهم في الخمس وزليطن ومصراتة وبن وليد ومسلاتة وترهونة والزاوية وغيرها بعد غياب عدة عقود .. اولادهم ولدوا في بنغازي .. وبناتهم ولدن في بنغازي .. بعض اولادهم تزوّجوا شرقاويات وبعض بناتهم تزوّجن شراقا .. وفي الغرب لم يتأقلموا واجهوا صعوبات .. منهم من ضاعت أرضه .. قالوا له لا شيء لديك .. من يريد الأرض يبقى فيها .. ومنهم من تعرض لمضايقات لم يحتملها .. واستفزازات نفسية حاقدة .. احتفوا بهم في الشهور الأولى .. وأقاموا لهم الولائم بالمواشي التى جلبوها معهم .. لكن عندما وصلت الأمور في الجد والكلام عن النخل والزيتون والأرض .. تحولوا إلي وحوش .. ماعندكم شيء .. بتسكن ابني هنا وحددوا له مربعا صغيرا محاصرا بالزرب .. لكن بيع ممنوع .. نكتبولك ورقة بعيد السو .. جدنا وصانا بألا نفعل .. كثير منهم عادوا إلى بنغازي .. وكثير منهم رفعوا دعوات في المحاكم .. لكنها دعوات خاسرة .. فالقاضي منهم والمحامي منهم والشهود والشيخ منهم والطابوات لديهم .. وبالذراع لن تستطيع أنْ تتغلب على أوغاد تفطر على الزميتة والبسيسة بزيت الزيتون وتتغدى على بازين الشعير ولحم الجمل الشارف ..

أكثرهم عاد مرة أخرى إلى ربابة الذائح .. بحث عن شقة أو بيت .. أو إستضافة عند متسع إلى أنْ يفرّجها الله .. الأطفال فرحوا .. والنساء زغردن .. والشيوخ تألموا من الداخل .. لكن جولة واحدة في أزقة الفندق البلدي وسيدي حسين وراس عبيدة وسوق الحشيش أعادت لهم توازنهم وانبعثوا مجددا بروح معنوية عالية .. الأطفال هناك شعروا بالضيق .. اللهجة مختلفة .. ولا يقولون لهم يا أبناء العم إنما أنت يا شرقاوي .. تعال إهني .. ترى أدوي اشوية .. وعندما ينادي أحدهم طفلا ويرد باللهجة البنغازية : أه .. يقول له الغرباوي: شني أه ه .. خيرك اتنهق كيف الحمار .. وهناك لا ملاعب عامة .. لا مدينة رياضية .. لا أهلي بنغازي أو نصر أو تحدي .. لا يوجد سوى أرعى السعي .. أسقي الصفصفة (البرسيم) والفلفل .. أعطى التبن للبُقرَة .. وذات مرّة ذهبَ ابن أحد العائدين إلى النادي الوحيد في المنطقة وتدرب في فريق كرة القدم وعند نهاية التدريب عاد إلى المزرعة منهكا يجرجر رجليه فقال له خاله : *خيرك اتكركر.. اللي ايخف عقله يتعبن رجليه* ..

إحدى أرباب العائلات العائدة متزوج من شرقاوية من سلوق .. امرأة كريمة .. تكرم الضيف .. وتصافح الجميع .. حرّة .. بنت بادية .. عاشت في فضاء بدوي .. هناك في الغرب .. تصرفت وكأنها في بنغازي .. تخرج للضيوف بالرداء .. وتتحدث معهم .. وتناقشهم .. وتقضي مصالحها معهم في حدود الإحترام .. لكن شيوخ هذه العائلة جذبوه جانبا .. وأمروه بأن تخفي زوجته وجهها بالرداء عندما تتكلم مع الرجال وتخجل ولا تسلم على أي كان .. زوجتك فضحتنا أمام الناس .. تتكلم مع الرجال .. وتسلم على الجميع .. أنت ما تفهمش .. بعد شاورتنا زمان نتزوج البدوية اللي نحصدلهم في الزرع .. قلنالك لا : *البوادي عطيهم وما تاخدش منهم* .. لكن ما سمعتش كلامنا .. وخذيتها .. وماتت في زلزال المرج وخذيت بنت عمتها الهجالة .. توّى يا فالح .. يامراتك تقعد كيف نساوينا .. لا يخش عليها ولد خالها ولا ولد عمتها ولا جار ولا واحد براني ولا زقرلو ذكر يا تسهّل على حالك ..

_ لكن مراتي عزوز كيف أمكم

وأضافوا له .. الاحسن تقيلنا من ها البرباقاندا وتاخذ مراتك وصغيويرتك وتولّي لبنغازي .. انتم معاش اطيبوه هناي .. معاش تاكلوا خبزة .. معاش تقدروا اتعيشوا في الغرب .. البازين مش باهي لبطونكم .. خذيتوا على الرز والبراك والباصطي .. ولّي يا هرواك .. استغابط روحك بكري .. اهني خلاص .. ماتماش خبزة تاكلها عندنا .. وين ما ربيت العيش كوله .

لم يناقشهم .. وعاد إلى ربابة الذائح .. سرعان ما باشر عمله وتحصل على بيت مناسب .. فزوجته عقورية وبنغازي عواقير .

المكان باق والبشر زمن متحرك عفن .. ينتقل من حيز إلى حيز .. يبقى في مكانه .. يطير .. ينزل .. يتعفن .. الجماد طاهر .. البشر قذر .. نجس .. أمرنا الله أنْ نتيمم بالجماد .. لأنه نقي .. لا يدوّد .. لا يتنفس .. المدن ثابتة في مكانها .. والأرض تدور بها .. ولا تدّورها .. اليوم جلست في غابة شحات .. أسند ظهري على شجرة .. الريح تحرك فروع وأوراق الشجرة بشدة .. جذع الشجرة يدفع ظهري ويعود .. وأنا لا أستطيع هزهزة جذع الشجرة .. أستطيع أنْ أحرقه فقط .. الجذع دافيء .. أرتحت بالإستناد إليه .. أنا رواق باهت وهو وتد .. أنا شراع ممزق وهو صاري متين .. تمنّيت أنْ يقبل بي ورقة من أوراقه أعيش وأسقط ليوقد بي بعض الزرادة نارهم فاترمّد وتتقلني الرياح معها .. تسوح أينما ذهبت وترمي بي في غدير أغتسل وأترسب في القاع .. ويجف الغدير وتنبت فيّ رسابتي وردة أو زرعة قمح أو لفت .. وأتعلق بالجذور .. وتلوكني برقّة .. أو يكون نصيبي غسل في مغسلة مطعم أو بيت لأنجرف مع مياه الغسيل إلى المجاري .. أختلط بالغائط لأقرأ عليه كل هذه المدوّنة .. والغائط في هذا العالم لا يبقى غائطا .. يُستغل في مصانع السماد .. يُعالج بالكيماويات .. تستخلص منه فوائده ذات القيمة.. لتمنح يناعة لخضر وفواكه البيوت الزجاجية ذات طعم البلاستيك .. فلا أدري أين أكون .. هل في خيارة طويلة تستغلها عانس سجينة لمآرب أخرى .. أم في باذنجانة سوداء أو بيضاء تقلى في زيت أو تخلل أو تشوى بابا علوش .. أو في رأس فلفل محشي يقدم في إحدى الولائم .. أم يُدفن البئر الأسود في التراب ليكون نفطا تتكالب عليه بعد أمد أمم قادمة .. لا أدري .. ولن أختار .. مستقبلي للغائط .. فليضعني أينما أراد .

لا يوجد لدينا مال لنشتري فحما .. والحطب القريب كله أخضر .. لا يصلح للإيقاد .. مررت وآمال على حفر المواقد القديمة .. جمعنا من كل حفرة فحمتين أو ثلاثة .. ملأنا الكيس بالفحم .. وعدنا إلى مكاننا .. حفرنا حفرتنا .. وسكبنا فيها الفحم المجموع .. الفحم الذي أحترق سابقا .. وحضر زردات سابقة .. لو نعرف لغة الفحم لحكى لنا حكايات شيّقة .. هؤلاء عشاق اختفوا في الغابة وطهوا طعامهم على ترانيم الآهات .. وهؤلاء مسافرون إلى طبرق عن طريق سوسة طهوا غدائهم وواصلوا .. وهؤلاء سكاري باتوا ليلتهم في الغابة وعربدوا واغتصبوا أصغرهم وأسذجهم وفي الفجر تفرقوا ومن بقى قبضت عليه شرطة سياحة شحات لكسرهم عمودا أثريا ومحاولتهم إقتحام جمعية بيوت الشباب .. الفحم يحترق ويحكي .. وطعامنا عليه ينضج ويستمع ويتهيأ لدخولنا .. شواء من لحم وكبدة أبقته لنا أمنا من خروف العيد .. وأرز مبوّخ بالكرشة .. وأطفال صغار ثلاثة شاركونا طعامنا .. يجمعون فتات الخبز لمواشيهم من أرجاء الغابة .. والشاي الأخضر بالنعناع يُطلق أبخرة تتلوى إلى أعلى وتختفي .. وابنة الحظ وفالس الوداع يحضران الوليمة الصغيرة .. لم نغادر حتى ترمدت آخر فحمة وانطفأت آخر طقاشة وكل الحكايات أمست رمادا بلون الضباب .

الصديق الشاعر عبدالباسط بوبكر لم يزرني منذ أربعة أيام .. والقاص أبو زّوارة كما يقول محي الدين بن عربي " لا يعوّل عليه " يعدك بالحضور ويقسم لك بأغلظ الأيمان ولا يأتي

والأفضل أنْ لا يأتي لأنني أتقزز من زيارة البخلاء بالكتب .. أوصيته على إحضار كتاب عن مذهب اللذة للقورينائي ووعد ولم يحضر لا هو ولا الكتاب ..سأكتب شيئا عن مدينة قوريني بعنوان سُرّة الكون.. أبوزّوارة ينقع كتابه ويشرب ماءه مخلوطا بمسحوق القرون .. سأكتبها دون كتب .. لن أجعل أحداً يعلمني كيف هي اللذة ومذاهبها ؟ .. نحن من المحيشي لم نبدأ حياتنا الجنسية بالحمير .. نعي هذه الأشياء ونعرفها .. واللذة هي الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى مذاهب .. كل العالم متفق عليها وعلى أنواعها الفيزيقية والميتافيزقية .. سأكتب الآن بداية النص .. وليذهب أبوزوارة إلى الجحيم وليحيا الأديب الأثري داود حلاق الذي فتح لي مكتبة شحات الأثرية لأنهل منها ما أريد من معلومات طازجة .. ها هو المصران قادم بسرّة الكون :

قبر باتوس نافورة الآجورا ..
منـهلٌ دائري ..
يحوطه اكليل وياسمين ..
جارته سفينة رابضة على شوكة أبي زيدان ..

وعلى رأسه تـزقـزق العصافير ..

باتوس ودود رحيم ..
قبره دائري ..
تطوفُ حوله الناس ..
تُـغـمرهُ بغرسات السلفيوم ..
مغموسةٌ في نـدى المرسين ..
رحل باتوس ..
وتعالى السلفيوم كمسيح نـباتي ..
مبتـعداً عن حدقات عـمياء ..
بصرها صولجان ..
وبصيرتها مصران وحشي ..
أينك يا دود الفَنـاء ؟! ..
لا تكن سلحفاة ..
مومياء ..
ظلا أغرَقتهُ أصابعُ الظلمات ..
آهٍ يا باتوسنا ..
يا أبانا الباكي العطوف ..
لا أراك ليبياً أو إغريقياً ..
أراك روحاً ظامئة ..
قصدَتْ فرعونا فطردها طرد الأنبياء ..
تشرّدَتْ في جفاف الأجاج و جزر الصلادات ..
وإذ بُعِثَتْ فجّرتْ ماءها الوجداني ..
ذرفتهُ من نور عينيها ..
بـهَّرَتهُ بطهارة أبي اللون ..
وحرارة قورا ..
وبهاء ليبيا ..

ثمَّ واست به المرضى و الحزانى ..

***

كلُّ ليبيا تُـحْضِرُ السلفيوم لباتوس ..
يَـزنـه فـي كفّــات أيديها وينثره شفاء ..
وحينما هلَّ الرحيل ..
لم يحملْ معه شيئا ..
قـنـعَ في قبرهِ الدائري ..
وسط ساحة الآجورا ..
تطوف حوله الناس ..
يُحيّونه ويُعِزُّونَهُ ..
وهومضطجعٌ ..
يردُّ بأحيَا وأعزٍّ ..
طائفاً مع الطائفين ..
السماء فوقه ..
الأرض تحته ..
البحر أمامه ..
وجارته السفينة منتصبة على ثلاثية أبي زيدان ..
رافضة أنْ تعود إلى البحر ..
إلا
وعيون باتوس سيلٌ من شموع ..
والأمطار شآبيب من ثـقـوب العُلـى ..
وبـيارق اتلانـتـيك ترفرف على عمود السماء ..
و كائنات القمر و زحل و المريخ تستأذِنُـنَا باتوسنا ..
لِيتسامى صوب صرحَ مرقص عند إخضرار المنتهى ..
رافضة أنْ تعود إلى البحر
إلا

ونواح الحياة ..

يجـفـف عبراته على دفء البنتبوليس ..
لِيَـنْـبُتَ السلفيوم من جديد ..
وتلد الشِيَاه كل حول مِراراً ..
والحبوب السمينة تُـحْـنِي السنــابلَ ..
والنحلُ الـبرّي يُعسِّـلُ مَرارة الأفواه ..
وفـتيـانـنـا وخيولنا وعرباتـنـا تجلبُ الأمجاد ..
فـيـتـغـنّـى بها بنداروس وكاليماخـوس ..
والإسكندر الكبير بجبروته وعظمته يتواضع
فيُقرِّب لآمونـنـا في سيوا طزاجة الدماء ..

***

هنا ليبيا ..
سُرَّة الكون ..
سلـة الغلال والتمور ..
سيدة البحار والصحـاري ..

مُقدسة الغروب ..
عاشقة الفجر ..
واحة الصحابة ..
وشـز القديسين ..
بلاد العمسونات ..
فضاء الأسود والصقور
مهد المنجبات لأسرار الحليب ..
براح الجرامنت والتـحـنـو والمشواش ..
هنا ليبيا ..

نـبع الحنان

سيول العسل و أنهار الزيوت
هنا ليبيا ..
الأديم المكتسي برداءٍ يهدهده النسيم ..
السماء الزرقاء
الشعاع الشفيف..
الزيتون والنخيل
التين والرمان
العنب والليمون
البرتقال
اللوز
التفاح الذهبي ..

هنا ليبيا
البراءة الناضحة ببرقٍ يُضيء ..
ورعدٍ شجي ..
لا يُفزِعُ الكتاكيت ..
ولا يُذكِّـرُ الفراشات بغارات الغربان العنجـهـية .

عبدالباسط لا أدري أين هو منبسط .. ومع أي شاعرة تسعينية يتبادل قبلات السمع وتاركني .. لم يأتِ لمدة أربعة أيام .. والخبز نفد .. واليوم في الغابة وجدنا كيسا بلاستيكيا معلقا في غصن شجرة به بقية خبز ودجاج محمر و سلطة .. وكان الجوع قاسيا .. لا ندري فضلة من .. لكن خمّنا أنها فضلة نظيفة لأسرة تحترم النعمة .. لذلك علقتها في مكان نظيف .. وهل هناك أنظف من غصن شجرة يظلله الورق المتحرك بفعل النسيم ؟.. كتبت كثيرا .. ولا أحد قريب استشيره فيما كتبت .. آمال تقول لي جيد .. جميل .. أ شطب هذه الكلمة القبيحة من النص .. لا تكتب رواية مليئة بالبذاءات كتقودني نجمة .. أكتب أشياء نظيفة .. ضع كلمات بذيئة من الكتب و ليس من الشارع .. اكتب مثل رواية المُداسة .. والحقيقة .. لا أعرف كيف أكتب .. أريد أنْ أنتهي من هذا الهراء .. من هذه الحياة الورقية .. من هذه النار ذات الوقود المختلط .. من بقايا نفايات الدجاج المحمر .. أريد أنْ يطفئني الورق .. سأمزّق ما كتبت .. سأمزّق ما قرأت .. سأمزّق مارأيت .. سأمزق نفسي وذاتي بسكاكين الجنون .. اتركوني جميعا في حالي .. لا أريد لأحد أنْ يتدخل .. أريد أنْ أذهب إلى مكان آخر .. حيث أجد جداريات خيالي .. مكان يفتح على البحر .. أسافر مع الليل .. أغني بكلمات لا أنطقها .. أين أنت ؟ .. أين أنا ..؟ أين أنتم ..؟ أين هم ..؟ لا استطيع

الإجابـة .. لا أسـتطيع الـسؤال ؟ .. لا أسـتطيع الكتابـة .. أنـا عـاجز الآن .. عـاجز عـن القـول .. والبوح .. والنزف .. عاجز عن الفعل .. مسلوب الإرادة .. مسروق التصميم والقوة .. أنـا مسخ الآن .. أركب سيارة .. وأرحل إلـى طريق أخرى .. طريق لا محطـة أخيرة لها .. طريق أشاهد فيها كل ما مررت بـه .. طريق عمر بشر .. طريق زمنية وقحة .. تمر فيها الأحداث كأعمدة النور والشجر وأنت مستقل قطـار .. طريق تافهة .. تافهة جدا .. معبدة .. أو متصدعة .. على قضبان أو هوائيـة .. طريـق تقـود إلـى لا شـيء .. تظـل راكبـا وتـسير .. لا تقذف .. لا تنـام .. لا ترتاح .. لا تتعب .. تتناول الشطائر وتشرب الماء .. أنـا الآن في حاجة إلـى جرعة خمر .. أريد لرأسي أنْ تدوخ .. الله سأتفاهم معه .. لا أحد يدخل بيني وبينه .. أريد أنْ ألعن الحكومـة .. لا أحـد يـدخل بينـي وبينهـا .. أعـرف أنكـم لـن تـنفعوني إنْ شـنقت .. بـل سـتـتعلقون فـي جثتـي وتتمرجحـون .. تـقوّدون للحبـال الرأسية الخانقة .. أريد أن ألعن بـودوارة والمسماري وشـعراء المساحات .. لا أحد يـدخل بينـي وبينهم .. أريـد أن أدمّر العـالم .. لأنَّ العـالم مثلـي .. مدمر من الداخل .. والقشور اللامعة ستتساقط كبرجي منهـاتن .. كامبراطوريـات الفرس والروم والمسلمين والصينيين واليانكيين .. ستتهاوى القمم فورما تجف قواعدها .. فكما قرأتم القمة ما عادت تقتل .. القدم تطعم الـرأس .. والـرأس تقطـع القدم ولا تطيـر .. والـشمس المشرقة علـى الجميـع قادمـة .. والـريح قادمـة .. همـا مثلـي يركبـان علـى مطيّـة .. يقومـان برحلـة لا محطـة أخيـرة فيهـا .. رحلـة إستمرار .. لا تتوقف .. ترى وتشاهد في الطريق .. لا تستفيد شيئا أو تُنجز شيئا الا في محطـات التوقف القصيرة كهذه الدنيا .. القطار تحرك من بانكوك متجها جنوبا إلى ماليزيا .. أستـقل عربـة الدرجة الثالثة حيث الجلوس على الكراسي .. وركـاب هذه العربـة كلهم من المجرمين والسكارى والمدمنين على الحشيش والهيروين .. دعوني لأشاركهم خمرهم المحلي .. شربت بضع كؤوس .. صرت مثلهم نتحدث بانكليزية مكسرة .. ونغني ونرقص ونعربد .. القطار يقف كل عشرين كيلو متر .. يركب صبية يبيعون المشروبات والماء المثلوج وعراجين الموز ذات الأصـابع القصيرة .. الموز في ليبيا افتقد طيلة فترة الحصار .. لقد قطعت عنـا امريكـا قطـع الغيـار والـسلاح والمـوز .. اشتريت عرجونا كاملا .. علقته في سقف العربة .. صـارت عربتنـا شـجرة مـوز .. وصـرت أزقق في فمي بين حين وآخر إصبعا تلو إصبع .. والتايلنديون يضحكون .. قلت لهم بـالعربي متعودين على بلع الغصائص .. وعندما شرحت لهم العبـارة ضحكوا كثيرا وتنافسوا علـى بلـع الأصـابع .. أحدهم ليدي بوي له أثداء وضع إصبعا في مؤخرته .

لـن أشـطب شـيئا أيتهـا المـرأة زوجتـي .. اهتمـي بلوحـاتك التـشكيلية وقصـصك المتـشظية الحكايـا ورواياتك وأجنتك المشاكسة فـي مجاهيل الإعمـاق .. إصبع المـوز لـن يخرج من مؤخرة الـشاذ .. مـوزهم ولـيس موزنـا .. لـن يقاضـيني هـذا الـشاب .. ولـن يهـاجمني بمقـال ككويتـب مـن اجدابيا أو طبرق .. فهو لا يعرفني وأكيد أنه نساني فقد مرّ على هذا الأمر عدة سنوات .. عندما وصلنا إلـى حدود ماليزيا بلدة بيتر ويرث دخل عسكري طلب منا أنْ نمدد ذراعينا .. تأمل سـواعد الركـاب .. أنزل بعض الشباب .. واقتادهم إلى مكتب مكافحة المخدرات .. ذراعي ليس بها إلا كويات نـار .. تأمل عيني .. وسألني .. قلت له بيكوز آي لاف بيتش قيرل .. فضحك وتجـاوزنـي إلـى راكـب آخر .. فـي بيتـر ويـرث الكثيـر مـن الغربـان الـسوداء التـى تحلـق .. تجولـت فيهـا قلـيلا .. بعـض المعابـد البوذيـة والهندوسـية منتـشرة فـي نواصـي الـشوارع واخيـرا وجـدتُ مـسجدا للمـسلمين .. دخلتـه استحممتُ فيه وخرجتُ عائدا إلى محطة الحافلات مواصـلا رحلتي إلـى العاصمة كوالا لمبور .. الماليزيات جميلات قصيرات هادئات بشرتهن خمريـة نقيـة مـن البثـور كلامهـن قليـل مـن عيـونهن يشع بريـق ومـن جبـاههن تنـضح مسحة نـور .. معظمهـن يلبسن بنطلونـات قمـاش أودجـين نـاعم وبلوزات حرير طويلة فضفاضة ويضعن أوشحة عريضة علـى الـرأس .. عندما تكلم أي فتاة لا ترد عليك إلا بعينيها .. فتخجل وتعتذر بقلبك وروحك .. أكلهم لذيذ احمر وحـار كالأكل المغـاربي وجـوامعهم تحـف معماريـة مليئـة بالثريّـات والحـروفيـات ومـشغولات الجبس الدينيـة و خاليـة مـن

السجاد الأرضي .. كل أرض المسجد مبلطة بالسراميك الشفاف .. وكل المصلين يرتدون ساتر العورة (تنـّورات) كاليمنيين والعمانيين ويضعون على رؤوسهم قبعات بيضاء كثيرة الثقوب .. أناس طيبون .. أعطوني ثمرات يوسفي وكوب عصير أناناس مثلج وكعكة حلوة لذيذة منمشة بالجلجلان .. لا أدري هل هم سُنة أم شيعة .. و ما هو مذهبهم وهل هم متطرفون أم معتدلون .. قال إمامهم : " الله أكبر " فصليت وراءه وأقفلت فمي .

أنا حزين .. حزين جدا جدا .. لم أبق في ماليزيا إلا يوم ونصف .. لم أتعرف على أي فتاة .. ولم يصادفني أي زواج متعة أو ماخور .. ولم أستحلم .. والأمل لم يتركني أمارس العادة السرية في خلواتي الضيقة .. ماليزيا طاهرة مني فالتحيا ماليزيا وليسقط حظي الملعون..

اتركيني بيني وبين القراء .. لا تتدخلي أيتها الذات العميقة .. فالعمق ادعاء وسطحية .. والبلاغة تكمن في الطفو .. هم يريدون مثل هذا الأدب .. هذا هو جوهم .. وجوي .. جماعة الأخلاق والمثل والجامعة والإذاعة والإعلام والصحافة والرقابة ومجلس الإبداع والمسرح والمهرجانات والتكريمات وربطات العنق والوسط لا أريدهم .. فهم محض أدعياء .. أنْ تسطع يعني أنْ تسوّق .. ومن سوّق نفدت بضاعته .. وما سوّقه إهترأى وتمزّق .. فالوحي والإلهام والمَلكة أوهاج لا تباع .. اتركيني مع أناس الشارع .. القراء العاديين والأدباء الصعاليك والفتيات البائسات المحبطات وحشائش الحدائق وجدران البيوت وعرصات العمارات وأعمدة النور وإسفلت الطريق والبالوعات والبول والبراز والصديد .. استغرقي في سكينتك الهادئة .. لا أريد أي خدمات .. ستأتيني قهوتي بنفسها .. قهوتي قـُبلة منبهة .. لا تجعلني أغيب .. أو أغرق في يقظة وهمية .. أحلمي لي فقط .. إنْ زارني حلم في فراش خيالنا حوّليه لي .. وإنْ زارني كابوس فواسيه بعينيك الحزينتين .. أحبّ بانكوك التى نسيتها في بداية المدونة والناس دائما تنسى اخيارها .. بانكوك أحبها .. مدينة تدخلها بدون نقود وتعيش .. الماء كثير كذلك جوز الهند والجوافة والمانجو والبطيخ الأبيض والبنات الحنونات الطيبات الدافئات .. إنْ جعت فعليك ببوذا .. تجده في كل مكان .. صندوق صغير .. به تمثال جالس .. أمامه فواكه وطعام .. وشموع مضاءة .. وبخور يفوح .. إنْ وجدت بوذيا طلبت منه طعاما فيعطيك .. وإنْ لم تجد أحدا فسمي بإسم الله وكل .. لن يضربك التمثال .. لكن شيخنا سيعتبرك سارقا .. فكل ولا تخبر أحدا .. واترك أمرك لله .. تتفاهم معه مباشرة دون صكوك إجابة ..

في منطقة السوكمفيت ببانكوك فندق الميدل إست .. كله من الخشب .. رائحته الخشبية تعلق بك طوال العمر .. قريب منه مطعم شهر يار .. صاحبه قوّاد مصري ملتح .. أول ما حل ببانكوك فتحه ماخورا ومرقصا .. وبعد التوبة والزواج بتايلندية حوله إلى مطعم أرضي ومسجد علوي .. تأكل وتدفع تحت وتحمد و ترفع الدعوات فوق .. في بانكوك تجد الكثير من الليبيين الذين جربوا الإستثمار التجاري في تايلند .. ففتحوا مكاتب تصدير واستيراد واشتغلوا في تصريف العملة والتوسط لدى المصانع في تنفيذ الطلبيات للتجار .. المبروك الفزاني .. عمر الحداد .. صلاح عبدالصمد .. السنوسي الزواوي .. محمد الصافي وغيرهم من الإصدقاء الرائعين .. عاشوا في الغربة .. وتألموا .. وقاسوا .. وتعبوا .. منهم من كوّن نفسه وراجت تجارته .. ومنهم من انتكس ووقف مرة أخرى .. ومنهم من عاد إلى ليبيا .. فبقى قليلا وحدث له ما حدث للغرابة العائدين للغرب .. فعاد إلى بلد الابتسامة الدائمة .. عاد إلى بلد سوادي كب .. والتوكتك وباتايا وشانغماي والبادبونغ والباتونام والبوبي وتشاينا تاون والفودلاند .. محاولا أنْ يعيد الكرّة .. عمر الحداد شاب ليبي من اجدابيا متزوج تايلندية من أصل صيني عيونها تختفي إذ تبتسم .. رجل طيب نظيف أنيق عفيف .. يصلي الفروض والسنن .. يساعد الزبائن الليبيين والأفارقة والعرب في الحصول على سلعهم بأسعار مناسبة مقابل عمولة يتفق عليها مُسبّقا .. ليس لديه مكتبا .. مكتبه حقيبته .. لكن لغته الانجليزية والتايلندية جيدتين وروحه المرحة وعفويته تسعفانه في الحصول على زبائن

خليجيين بشكل شبه دائم .. السنوسي الزواوي شاب ليبي اشتغل جيدا لأنه توغل في علاقته التجارية والحياتية مع الصعاليك التايلنديين وفتح دكاكين تابعة له في طرابلس وبنغازي يديرها إخوته وأصدقائه .. في زمن قصير ترسخت أقدامه في بانكوك .. يعامل الزبائن بمودة .. يقابلهم بابتسامة وسيجارة روثمان لا تفارق فمه .. منهم من يستودع عنده أمواله .. وإنْ حدثت مشكلة لأي ليبي مع التايلنديين .. يتدخل بصدر رحب ويبذل مجهوداته ومساعيه المشكورة مستخدما نفوذه وعلاقاته المتينة مع الشباب التايلندي البشوش .. مكتبه دائما تصدح فيه موشحات المألوف وأغاني المرسكاوي الليبية .. أحيان ينتشي بعض الشباب الزبائن فيرقصون على أنغام الفونشة وهي تغني .. "*عقلي فيه ثلاث وصايف .. مجروح وغاوي ومرايف ..*" زبون بدوي لم تروق له هذه الأغاني فوضع له في المسجل أهزوجة طبيلة .." *مطرودين الغالي منّا .. موعاد لنا .. كي طردت آدم من الجنة* ".. أنتشى البدوي فرمى للسنوسي ربطة دولاراته قائلا له : اشحن لي بهالتفتوفة حاوية كنادر (كلاركس) حريمي .. واقترب من سكرتيرة المكتب التايلندية (بو) .. مطلقا قرب أذنها غناوة علم مرتجلة .. *في بانكوك درايق قصيرات كي عمر غلاي مع مغلية* .. فصرخت البنت .. ووضع السنوسي يده على فم البدوي محاولا إيقافه فعضه ولسكره أصرّ على اتمام الغناوة .. فيما بعد فهمت السكرتيرة (بو) الأمر وضحكت للبدوي كثيرا .. فالتقط صورة معها ليكبّرها ويعلقها في دكانه بسوق العرب بنغازي .

أحد الحاضرين حاول أنْ يقلب كلام الطبيلة بتغيير كلمة الغالي بالوطن وصار ينقر بمهماز مظلته على جدار المكتب و يترنم .. *مطرودين الوطن منّا .. موعاد لنّا .. كي طردت آدم من الجنة ..* لكن البدوي صرخ فيه كسّرت وزن الطبيلة الله يكسّر عظامك..

صلاح عبدالصمد شاب ليبي من منطقة ميدان الشجرة بنغازي .. شد الرحال إلى تايلند مغامرا .. وبفضل الكثير من أصدقاءه عادل وحسن والصافي وغيرهم وبفضل معاملته الجيدة لهم رسخ في السوق وفتح لمكتبه فرعا في الصين وآخر في اندونيسيا .. و تزوج تايلندية مثقفة وجميلة أنجب منها عدة أطفال .. كانت زوجته تعد للأصدقاء من الزبائن الليبيين الفاصوليا بالكرشة والكسكسو بلحم الرأس .. والبازين .. والشرمولا .. لقد فهمتْ الأمر .. وصلاح علمها كل شيء .. صارت أمهر من طباخي مطعم برعي و بن عبيّة وبوذراع .. فالليبي الطريق إلى جيبه بطنه بعد أسفل سرته .. بعض الشباب الليبيين يودعون عند صلاح اموالهم .. ويذهبون إلى السهر حتى ساعات الصباح الأولى .. أو أقول لكم حتى ينزلوا باب السرانتي مع صاحب المرقص .. ويعود كل منهم مع فتاته إلى الفندق .. في فنادق تايلند وفي كل تايلند لا شيء ممنوع .. كل شيء مباح .. المهم أنْ لا تخطىء في أحد .. أو تكسّر شيئا .. حتى وإن كسرت شيئا .. يتسامحون معك بعد أنْ تدفع ثمنه والتعويضات .. لكن إنْ دخلت السجن هناك فعليك العوض والسلام .. فسجنهم مزدحم مختلط نساء ورجال أجانب ووطنيين .. وأي أجنبي يدخل السجن يغتصبه السجناء التايلنديون .. ألماني يحكي لنا في إحدى المراقص أنه أعتقل ليومين فأعطاهم ثمن خمس علب واقي (كوندوم) كي لا ينقلوا لمؤخرته فيروس الإيدز..

الأمكنة كثيرة .. كل مكان وحكايته .. والفحم كثير .. والهواء كثير .. ولو رددنا الأكسجين لأشجاره لحكى للأشجار حكايات تجعلها ترقص وتبكي وتقذف بأوراقها المحترقة وتموت وتسكر .. الأشجار تطلق الأكسجين ولا تتبعه .. لكن يطلقوننا ويتبعوننا حتى القبر .. وفي القبر لا يتركونا نتفاهم مع الدود والفناء .. يذكروننا .. تعبث بنا النميمة والصدقات الجارية .. والتاريخ يكتبنا على هواه .. ما جدوى أنْ تقول الحقيقة ؟.. مادام كل السامعين مزيفين .. مادامت الحياة شيء باهت .. شيء يأتي فجأة .. ولا تشعر به إنْ هو ذهب .. مادامت كان موجودة .. كان فعل ماضي ناقص .. ونحن ناقصون .. ناقصو طعام .. وخبز .. ومال .. وضحك .. وحب .. وصحة

.. ودين .. وجنس .. وسياسة .. وكرامة .. وجنون .. وأمل .. وسمر .. وسناء .. وسعادة .. وتاريخ .. وكلما نشبع فراغنا يتسع أكثر وكأننا نار حطبها الطمع واللاجدوى .

لست فوضويا ..أو اشتراكيا .. أو لا منتميا .. لست روائيا أو قاصا .. أو كاتب سيرة ذاتية .. وبالطبع لست شاعرا أو رساما .. لست .. لست .. لست .. الخ .. أنا لا أدري .. أنا لا شيء .. مغامر في اللاشيء .. أكتب هكذا دون أفكار مسبقة أو منتظرة أو مرميّة على قوارع الوجود .. أعرف كيف أجعل هذا النص رواية بلزاكية أو كونديرية أو غيرها .. أعرف الحبكة .. أعرف جلد الشخصيات إلى مصيرها .. لكن لن أفعل .. لن أرْضِي حتى نفسي .. أرفض الجر إلى النجاح .. فشلي نجاحي .. أنا هكذا .. ثمرة في مهب النضج .. ليست نيئة .. وليست ناضجة .. مليئة بالمرارة الحلوة .. أكتب هكذا .. أحبّ هكذا .. أنقاد إلى إلهامي .. أنفث نسيم نبضي .. أترك سفينتي ترسو في مكان لا يعرفني .. تصل غداً أجهل ما يخبىء لي .. أحبّ كلّ مكان أدوسه بروحي .. أحبّ كلّ لقمة أكلها .. وكل جرعة أرتشفها .. وكل عبرة أشمها .. وكل فرج أندسّ فيه .. أحبّ أطفالي الأبرياء .. أحبّ نسائي اللاتي أشفقن علي .. أحبّ كل كائن إختلطت به .. لا أكره أحدا .. حتى نفسي لا أكرهها .. حتى الشر لا أكرهه .. الشر مظلوم مثلنا .. والخطيئة ضحية من ضحايا الآلهة .. الكرة رميتها بعيدا .. تنط وحدها في ملعب شوك .. لا أحد يركلها .. لا أحد يجرؤ أنْ يعيدها لي .. فلن يجدني إنْ فعل .. وكراتي لا يعشقن العودة بالقهقري .. أحبّ السماء الأولى .. صافية أو مضببة أو غائمة .. أحبّ البحر المتوسط هادئا أو ثائرا .. أحبّ الغبار والتراب وصهد الهجيرة وزمهرير الشتاء .. أحب الصحراء التى تنبت العشب وتفجّر الماء .. أحبّ الثورة .. والانقلاب .. والأمزجة المتماوجة .. أحبّ الحركة .. أحبّ الحبّ نفسه .. أحبّ العشق .. أحبّ ٢ يوليو من كل دهر .. أحبّ البدايات .. أحبّ الانبجاسات .. أحبّ الطلاق من كل شيء .. أحبّ النهوض والانتصاب .. أحبّ القذف في الفراغ .. أحب المبيت في الطرقات .. والجلوس على المصطبات .. أحبُّ رومل ولا أحبّ هتلر .. أحبّ النوم في العسل والتمرّغ في رُب التمر وسف السكر الناعم .. وهرش لحيتي على لزوجة الحلقوم .. وإذابة الحلاوات الخشنة .. أحب الفلفل المحشي والمكرونة المطبوخة بالبخار .. أحبّ الماء والهواء والمطر .. أحبّ الكتب والكلمات .. أحبّ الحبر والنور ..

أحبّ الورق الأبيض غير المسطور.. أحبّ السطح والقشور .. أحبّ الدهن الذي يفتته الليمون .. أحب الشحم الطافح فوق الشوربة العربية .. أحبّ السلفيوم والريحان و الزعفران .. أحبّ الشعر غير المقفى .. كل قافية قفا .. وكل قفا نكوص وعهور .. أحبّ الأنبياء والمصلحين والفلاسفة والمفسدين .. أحبّ الشوارع والأزقة والحارات والحانات .. أحبّ القهوة بالهيل والشاي الأخضر بالبردقوش .. أحبّ أنْ أفرك رأسي وأجد شيئا .. أحبّ أنْ أفرك شيئا وأجد رأسي .. أحبّ أنْ ألعن دون توقف .. أحبّ أنْ أبصق حد العطس .. أحبّ الصداع .. أحبّ الدوخان .. أحبّ أنْ أتبرّم وألتفت .. أحبّ اللفت على الكسكسي .. والحمص على الأرز المبّوخ .. والنعناع الجاف على خشارة الحساء .. أحبّ التأمل حد النسيان .. أحبّ الدفء المنبعث من التنور .. أحبّ بنغازي .. والظهرة .. ودرنة .. ومراكش .. ومسقط .. وبانكوك .. أحبّ مريم وماجدة ونادية وآم وسميرة وسناء وسماح ونسيبة وولاء وبدرية وآمال و هلم جر .. أحبّ الآن .. أحبّ المكان لأنه واضح .. أحبّ الزمان لو توقف .. أحبّ العتاب المصحوب بمضغ اللبان .. أحب العطور التي لا تفوح .. أحبّ العطر الذي أهديته لسميرة و لم تسنفده حتى الآن .. أحبّ ساعتها الفضية التي حفظت الميثاق .. لقد زارتني سميرة في شحات .. لم أرها منذ خمس سنوات .. عرفتها وعرفتني .. أرتني ساعة فضية في معصمها .. سألتني هل عرفتها ؟ .. وكيف لا أعرف تاريخي التعيس ؟ .. وكيف لا أستضاء ببارقة كتاباتي البكر .. لو اتجاهل ذلك اكون عديم مصداقية .. قلت لها مازلت أشم منك ذات الرائحة القديمة .. فقتلتني بنظرة وقالت لي : العطر الذي أهديته لي في عيد ميلادي ٢-٧-١٩٩٩م باقٍ .. باقٍ .. أرشش منه بنفثات الندى .. مازال لم ولن ينفد أبدا ..

عطر حقيقي لا يفنيه الزمان .. بكيت بدموع قلبي وقلت لها آمال فوق ولا مال لدي وأريد أنْ أذهب إلى مقهى الصقر للانترنيت في البيضاء .. لابد أنْ أكتب هذه الطزاجات .. فمدت لي ١٥ دينار رددت لها عشرة فلم تقبل وغادرت .. عند المخرج ناديتها سميرة وجريت نحوها .. وقفت تتأملني من تحت إلى فوق .. فتناولت يدها وقبلت ظاهرها والتفت كلانا إلى الجهة الأخرى .. وأي عذاب يتوالد من مذاق العنب ورذاذ الشلال وملح برنيق .. لا أدري ماذا أفعل لإنسانة تحبني حد القداسة وأخرى مازالت تحتفظ بعطري حتى الأبد .. وأخرى تقرأ جنوناتي بنهم النهم .. وأخرى تلومني ماضغة علكة روحي .. لا لوم أيها العالم إنْ جننت .. أحبّ الدلاع والبطيخ والتفاح .. أحب اللوز والعسل .. النعناع والكسبر.. الزهر وزيت الزيتون .. أحبّ الآمان .. أحبّ الرمّان وحبيباته الحمراء العطرة المباركة .. أحبّ الذُرة المشوية الطريّة..

ذات ليلة في مدينة درنة الزاهرة كتبت عن الرمّان و الذُرة .. كتبت عن مدوّنة نباتية ..

في إحدى الليالي المقمرة كنا جالسين ..
وسط أزهار الحنان ..
تحت شجرة الرمّان ..
كان الفحم مستعرا ..

وكنا نرسل عرانيس الذرة إلى السعير ..

فرقعت العرانيس ألماَ ..
ابتسمت حبيباتها المشوية ..
لحبيبات الرمان الطريّة ..
ثم قالت :
أنتن تؤكلن بالسكر
أما نحن فيضاف إلينا الملح ..!

تمت

ملاحظة :

بعض الأسماء الواردة في الرواية قد تتطابق مع أسماء موجودة على أرض أو سماء الواقع .. لم أقصد ذلك إنّما مجرّد إلهام وتخييل وحُبٍّ ..

محمد الأصفر
٢- ٧- ٢٠٠٤ ف
بنغازي - شحات - درنة